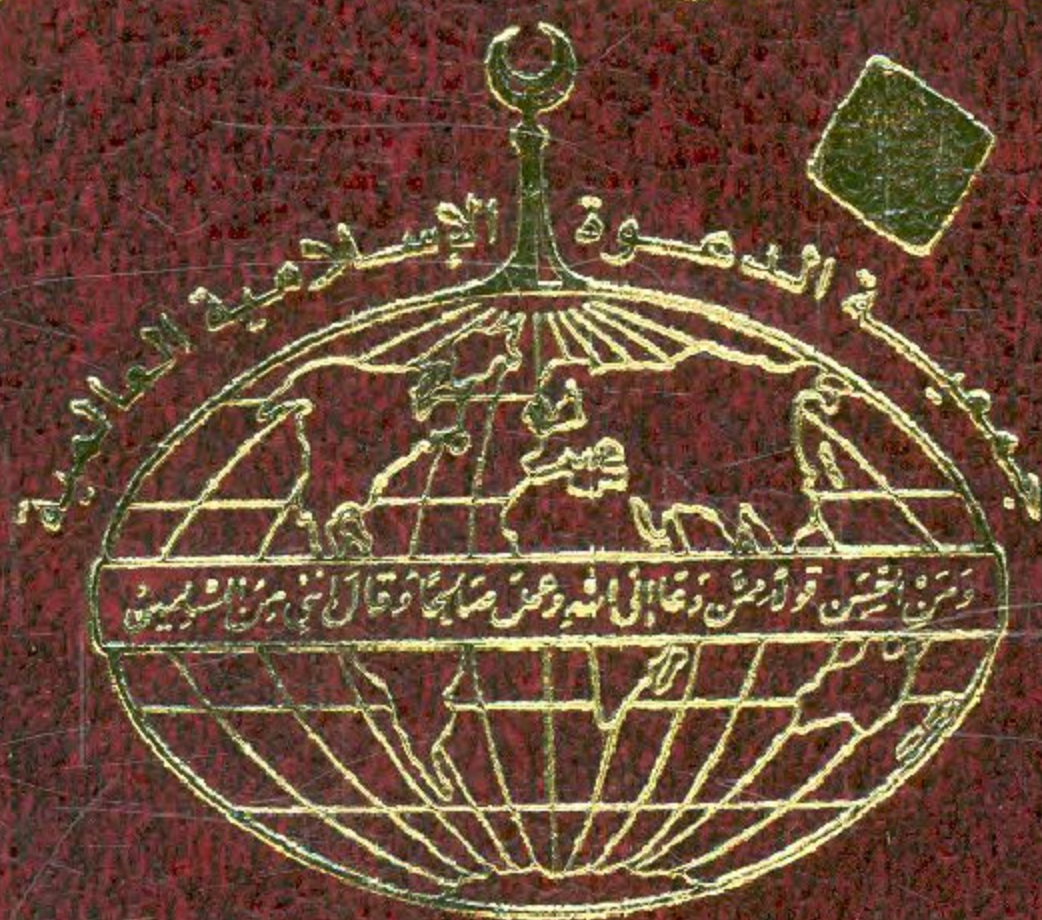


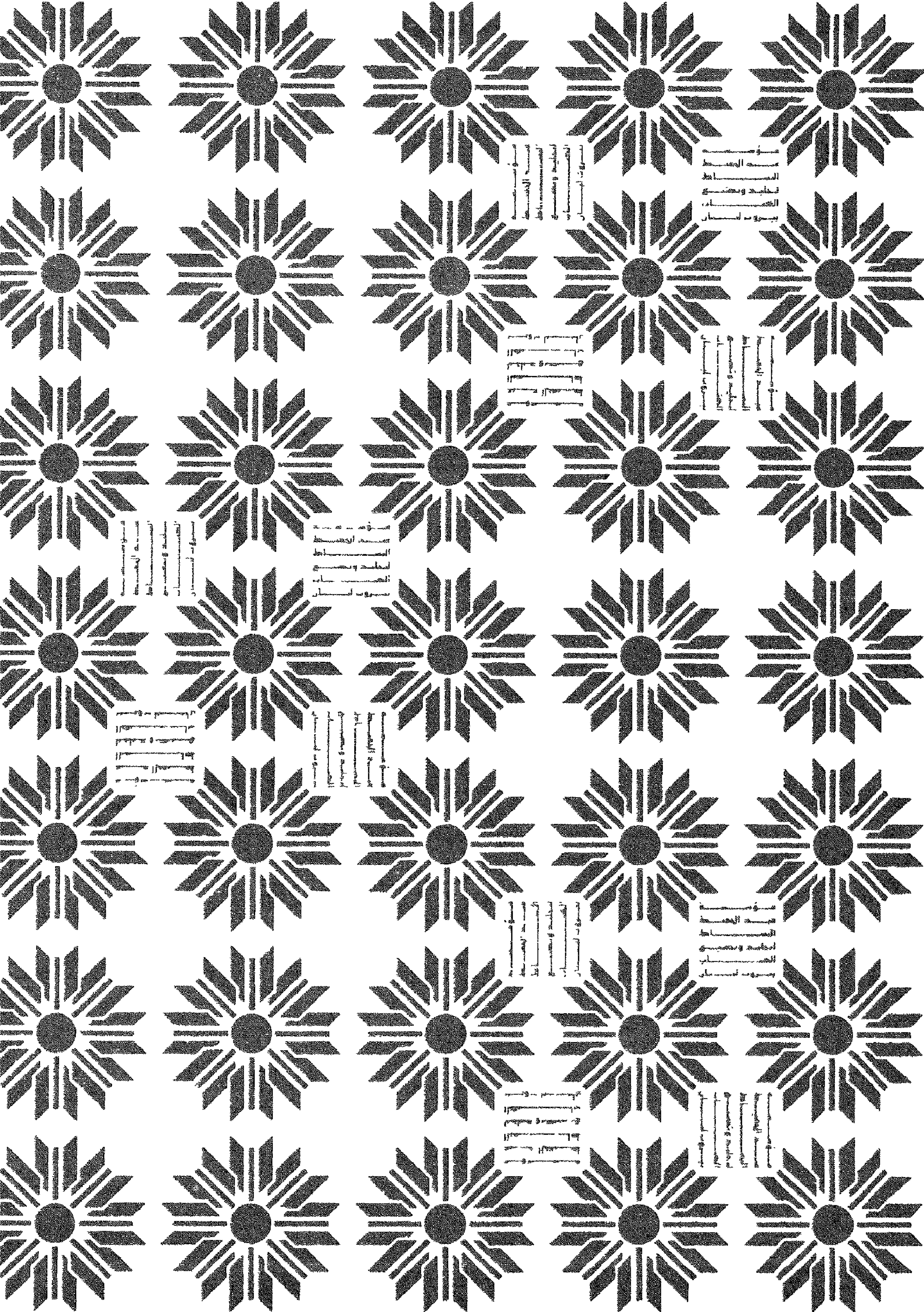
# تفسير سورة

# البقرة

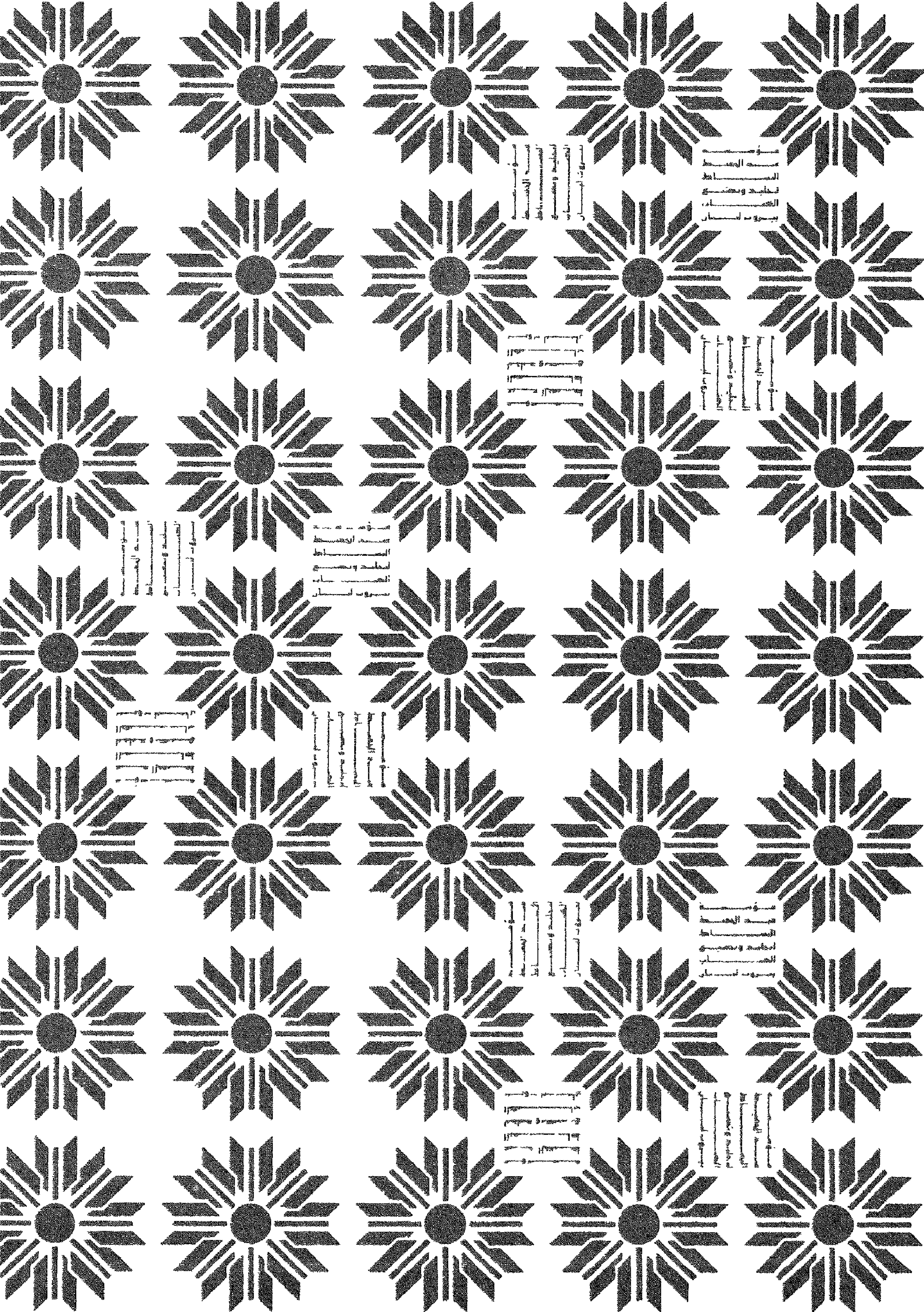


WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY  
Association Mondiale de L'Appel Islamique













٥٥٧-١٧٤٠

T-١١٢٥١

٢٠٠٨

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ



**WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY**  
**Association Mondiale de L'Appel Islamique**







C.2(gift)

مجلدات

تفسير سورة

البقرة

بقلم

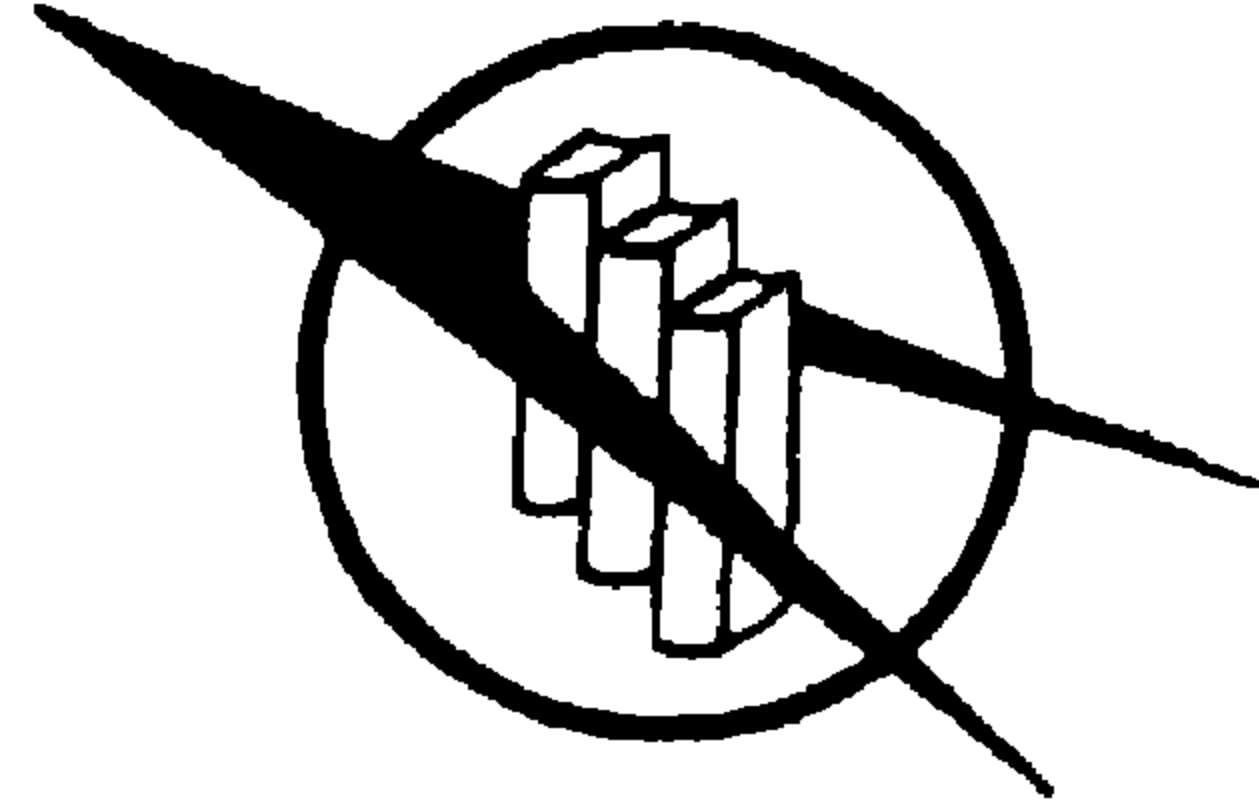
عفيف عبدالفتاح طباره



# دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

www.malayin.com



جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

## تحذير وانذار

من يقوم بتزوير هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال  
أية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية  
الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافية والتسجيل  
، أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون  
إذن خطي من الناشر.

الطبعة الثانية

٢٠٠٨



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## حَوْلَ هَذِهِ السُّورَةِ

لِلْعَلَّامَةِ فَضِيلَةَ الْقَاضِي الشَّيْخِ حَسَنِ غَزَالٍ

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين الذي أرسله الله رحمة للعالمين وبعد.

هذه السورة (البقرة) أطول سورة في القرآن وقد أخرج الترمذي عن النبي ﷺ قوله: «لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة...» وذلك أخذاً من سنام الجمل الذي هو أعلى موقع فيه. وتُسمى السورة عادةً باسم شيء يُذكر فيها وقد سُميت سورتنا هذه (البقرة) لاشتغالها على قصة أشار إليها المؤلف في مقدمته.

ولا ريب أن هذه السورة فائقة الأهمية لاشتغالها على أمور تهتم كل مسلم، منها: ما يتعلق بالعقيدة من الإيمان بالغيب وتقسيم الناس بين مؤمن وكافر ومنافق. ومنها: ما يتعلق بالجانب التشريعي. ومنها: ما يتعلق بالمعاملات بين الناس، وهي في كل ذلك تتناول الأمور بشكل يعتمد المعالجة الموضوعية.

ففي جانب العقيدة يخاطب الله البشرية طالباً منهم العودة إلى الإيمان والرجوع إلى الفطرة بعبادة الله وحده فيخاطبهم بهذا الأسلوب الهادي المتزن،



يخاطب العقل والفكر والوجدان، تأمل الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم يخاطب الله الذين لا يستجيبون لنداء الحق خطاب إقحام مبني على الحجة الدامغة فيقول: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ.﴾ فهذا هو التحدي حيث يطلب منهم أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، وتأمل التحدي الصارخ ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أنظر كيف أغلق بوجههم الباب، أي حتماً لن تستطيعوا فعل ذلك، وهذا يعني أن هذا القرآن ليس بكلام بشر بل هو من عند الله ولذا لا يستطيعون أن تأتوا بمثله، إذاً لماذا المكابرة عودوا إلى الإيمان بالله وإلا... ﴿فَأْتُوا النَّارَ﴾ أية نار؟ إنها ليست ناراً وقودها الخشب والحطب بل إنها نار وقودها أنتم الذين كفرتم وعاندتم كما قال الله تعالى في تنمة الآية السابقة: ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

وفي جانب العبادات تشريع الصلاة والصوم والحج. وفي جانب الأحوال الشخصية تشريع الزواج ذلك الرباط المقدس وما حوى من دعوة كريمة إلى الاستجابة لما يمليه العقل والشعور والإحساس والعاطفة، ثم تشريع الطلاق وما يترتب عليه من حقوق وواجبات وأحكام مادية ومعنوية، ولا تنسى الآيات في أدق المواقف أن تشير إلى مراعاة حقوق المرأة وعدم الإضرار بها، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوا﴾.

وفي سورة البقرة أعظم آية هي آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ.﴾ وقد روي عن رسول الله ﷺ بأنها سيدة آي القرآن.



ولا بد من الإشارة إلى أن عبارة «الكاتب العدل» التي تملأ الشوارع ربما لا يعرف الكثير من الناس أنها مأخوذة من النص القرآني في أطول آية في معرض كتابة الدين ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ وتظل هذه الكلمة «الكاتب العدل» رمزاً مدوياً واعترافاً صارخاً بأن القرآن الكريم هو من أطلق هذا العنوان منذ أكثر من أربعة عشر قرناً مع الإشارة إلى أن التعبير القرآني ﴿كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ أبلغ من «الكاتب العدل» لأن الباء في العدل تجعل العدالة متجهة إلى مضمون الكتابة لا إلى الكاتب.

وأخيراً وليس آخراً لا ننسى أروع آية في مناجاة الخالق حيث يعلمنا ربنا أدب المخاطبة والتوجه إليه بنداء خفي فيقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ...﴾ وتأمل الخاتمة ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا...﴾ وقد أخرج الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَتْ خَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي» كما روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ أن العبد إذا قرأ تلك الآيات: «قال الله: قد فعلت»<sup>(١)</sup> أي قد عفوتُ وغفرتُ ورحمتُ.

وفي الختام لا بد أن ننوّه بأسلوب صديقنا الأستاذ عفيف طيارة الذي اعتمده في التفسير حيث يتوخى الجزالة في اللفظ، والسهولة في العبارة والإيجاز الذي لا يُخلُّ بجوهر المعنى، وعدم التطويل المملّ آخذاً بعين الاعتبار أن القارئ في هذه الأيام ليس لديه الوقت ليستغرق في شروحات جانبية، وحسبُه أن يأخذ من المعاني ما يوفي بالغرض.

(١) أخرجه مسلم.



وهناك جانب مدهش لا يعيره الكثيرون انتباههم عنيت به جانب الطباعة فقد أولى المؤلف هذه الناحية اهتماماً خاصاً حيث كان يشرف على الطباعة بنفسه مراعيّاً الفسحة بين الكلمات والانفراج بين السطور فيُسَرِّح القارئ النظر بين أزهار الكلمات في قِطْع من رياض المعاني، وعندها يشعر القارئ بمتعتين: متعة النظر المريحة ومتعة المعاني الرائعة البديعة.

وفي الختام نسأل الله سبحانه أن يوفق المؤلف إلى إتمام مهمته التي أوشكت على النهاية في إكمال تفسير القرآن ليحظى القارئ بهذه الثروة من التفسير الرائع البديع.

جعل الله خير أعمالنا خواتمها، وخير أيامنا يوم أن نلتقاك يا أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين.



## تعريف بهذه السورة

سُمِّيت هذه السورة بسورة البقرة لأنها أوردت قصة عنها حيث طلب الله من بني اسرائيل على لسان موسى عليه السلام أن يذبحوا بقرة، قال اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ ذلك بعد أن قُتِلَ فيهم قتيل ولم يعرفوا قاتله، فأمرهم الله أن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا ويخبرهم من هو القاتل، ثم يموت ثانية فيكون هذا العمل معجزة من عند الله وبرهاناً على قدرته.

وهذه السورة هي أطول سورة في القرآن مدونة على ثمان وأربعين صفحة وتبلغ آياتها ستاً وثمانين ومائتي آية، كما أنها سورة مدنية أي نزلت بالمدينة المنورة بعد هجرة النبي محمد ﷺ من مكة، وهي تُعنى بالتشريع العام لحياة المسلمين سواء منه ما يتعلق بالدين أو بالأمور الدنيوية لأنهما في نظر الإسلام مترابطان لا يفصل أحدهما عن الآخر.

وقد اشتملت هذه السورة على كثير من المواضيع سأقتصر على ذكر بعضها :

- التنويه بشأن القرآن بأنه هداية للناس و متحد في الوقت نفسه جميع الناس بأن يأتوا بسورة من مثل سُورِهِ إذا كانوا يرتابون بأنه ليس من كلام الله، وتقدير بعجز الناس عن الإتيان بمثله، وإلى الآن لم يأت أحد بمثل هذا القرآن أو بسورة من مثله، وهذا دليل على أن القرآن وحي إلهي وليس من كلام البشر.



- الكلام المستفيض عن المنافقين الذين كانوا بمثابة طابور خامس ابتليت بهم الأمة وهم الفريق الذي يمعن في الأرض فساداً ، وقد تحدّثت هذه السورة عنهم في ثلاث عشرة آية حيث كشفت عن خداعهم ومؤامراتهم على الإسلام وذكرت مرض قلوبهم ليكون المسلمون على بينة من أمرهم نحوهم والحذر منهم .
- بيان الدلائل الكونية على وجود الله ووحدانيته في خلق السموات والأرض وقدرته سبحانه على البعث والدعوة إلى عبادته وحده وعدم الإشراك به .
- بيان فضل الله على البشرية حيث جعل أباهم آدم خليفة في الأرض ليعبدوا الله وليعمروا الأرض وقيموا فيها ميزان العدالة ، وبيان ما كان من الملائكة بشأنه ، وكذلك بيان سكن آدم وزوجه في الجنة ثم إخراج الله لهما منها بسبب عصيانهما وأمره بأكلهما من الشجرة التي نهاهم الله عن الأكل منها ، وإهباطهما إلى الأرض ، وإن إقامة الإنسان في الأرض غير دائم أبداً كما قال الله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ .
- الكلام المستفيض على بني إسرائيل في كثير من الآيات حيث كانوا جيراناً للمسلمين في المدينة المنورة ، فيذكّرهم الله بنعمة تفضيله لهم على عالم زمانهم وبنعمة إنجاء آبائهم من ظلم فرعون ، وما أعقب ذلك من الانتقام منه وإهلاكه . ثم تذكيرهم بنعمة تظليلهم بالغمام في صحراء سيناء المُحرقة وإنزال المنّ والسلوى عليهم غذاء لهم ، وبتفجير الماء لكل سبط من أسباطهم الأثني عشر لإرواء عطشهم ولكن بالرغم من هذه النعم التي أنعمها عليهم كفروا بنعم الله ونقضوا العهود والمواثيق فاستحقوا غضب الله . كما تحدّثت السورة عن مزاعم بني إسرائيل الباطلة كزعمهم أن الجنة خالصة لهم من دون الناس ، وسوء أدبهم مع الله حيث طلبوا رؤيته ، واشتغالهم بالسحر للإضرار بالناس .



- اختبار الناس بتحويل القبلة في الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة بمكة وما أثير حولها من أقاويل ، وبيان أن البر ليس بالتوجه إلى جهة معينة ولكن البر هو الإتيان بفضائل الأعمال والقيام بواجب العبادات نحو الخالق وقد جاء ذلك في آية البر وهي من أبلغ آيات القرآن التي تبين جوهر الدين وحقيقته : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

- أوضحت السورة أصول التشريع في نطاق العبادات من الدعوة إلى المحافظة على الصلوات ، وبيان عبادة الصوم التي بها طهارة القلوب وبيان بعض أحكام الحج والدعوة إلى بذل الصدقات على المحتاجين وعدم إبطال ثوابها بالمن والأذى لهم .

- حرية الدين ومنع إكراه أحد على الدخول في الإسلام وهو بهذا سبق المدنية الحديثة بقرون في هذا المنحى مما يسجل للإسلام سبقاً في الدعوة إلى حرية المعتقد .

- الاهتمام بالأسرة ففي السورة دعوة إلى الوصية للوالدين والأقربين ، ومعاملة اليتامى بالحسنى ومخالطتهم في المعيشة وإصلاح أموالهم وأحوالهم وتنظيم شؤون الأسرة في الزواج والطلاق والعدة .

- تحريم الخمر والقمار والربا وبيان إثمها والأضرار المترتبة عليها ومدى أثارها السيئة على الأمة .

- إباحة الأكل من جميع الطيبات وتحريم المأكَل التي فيها الضرر للإنسان مع تعداد هذه المأكَل المحرمة وإباحة الأكل منها عند الضرورة الشديدة التي تؤدي إلى الهلاك .



- أحكام القصاص في القتل القائمة على مساواة العقوبة بالجرم مما يردع المجرمين.
  - تحريم أكل أموال الناس بالباطل والإدلاء بها إلى الحكام للاستعانة بهم - عن طريق الرشوة - على أكل أموال الغير ظلماً وعدواناً.
  - الكلام عن الجهاد في سبيل الله وإن القتال هو لردّ الاعتداء لا للاعتداء على الناس بل لمنع الفتنة في الدين من اضطهاد المسلمين وإخراجهم من ديارهم ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.
  - دعوة المؤمنين للإنفاق في سبيل الله لأنه العدة لحفظ كيان الأمة من الأعداء، مع بيان ثواب المنفقين في سبيل الله.
  - الدعوة إلى كتابة الدين في أطول آية في القرآن، وهي تبين الأصول المتبعة لحفظ حقوق الدائن والمدين بما لا نجد له مثيلاً في أحدث النظم القانونية في العالم.
- هذا قليل من كثير مما اشتملت عليه هذه السورة من أحكام ووقائع تاركين للقارئ الكريم الاستمتاع بما حوت من تفاصيل في منتهى الروعة والإبداع.
- وأختم هذه الكلمات بما جاء في فضل هذه السورة، فقد قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»<sup>(١)</sup> وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة»<sup>(٢)</sup> أي السحرة.

(١) أخرجه مسلم والترمذي.

(٢) أخرجه مسلم.



# سُورَةُ الْبَقَرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾  
 الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ  
 ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ  
 وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ  
 هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ  
 لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ  
 أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

## شرح المفردات

- لا ريب: لا شك.
- هُدًى: إرشاد، وضده الضلال.
- للمتقين: الذين يمثلون أوامر الله ويجتنبون نواهيه اتقاء لعذابه.
- يؤمنون بالغيب: يصدقون بما غاب عن حواسهم كالتصديق بالله واليوم الآخر والملائكة.
- بما أنزل إليك: بما أوحى إليك يا محمد من القرآن.
- يوقنون: يعتقدون اعتقاداً جازماً.
- المفلحون: الفائزون بما طلبوا، الناجون يوم القيامة.



سواء عليهم أُنذرتهم أم لم تُنذرهم: أي مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه، والإنذار إعلام فيه تخويف.  
 ختم الله على قلوبهم: طبع الله على قلوبهم فلا يصل إليها الحق.  
 غشاوة: غطاء.

### القرآن هداية للمتقين

يستهل الله هذه السورة بهذه الأحرف: ﴿الْم﴾ هذه الأحرف تُقرأ مقطعة فلفظها: أَلِف، لام، ميم. وقد افتتح الله هذه السورة بهذه الحروف على هذا النحو، ولم يكن هذا الأسلوب معروفاً عند العرب من قبل، ولم يكن لهذه الحروف معانٍ في اللغة العربية تدل عليها سوى مسمياتها بأنها حروف هجائية يتألف منها الكلام، ولم يُروَ عن النبي محمد ﷺ بيان المراد منها، وقد كان المفسرون أمامها فريقين: فريقاً يرى أنها مما استأثر الله بعلمه، ويُروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ذلك قوله: «في كل كتاب سرّ، وسِرُّ القرآن أوائل السور».

وفريقاً آخر فسّر هذه الأحرف على وجوه شتى:

منها: أن هذه الأحرف رموز لبعض أسماء الله تعالى أو لصفاته، فالألف مثلاً إشارة إلى أنه سبحانه هو (الأول) و(الآخر)، واللام إشارة إلى أنه سبحانه هو (اللطيف)، والميم إشارة إلى أنه (الملك) و (المجيد) و(المؤمن) إلى آخر ما هنالك من أسماء.

ومنها: أن بعض هذه الحروف هي أسماء لبعض سور القرآن مثل سور: طه، يس، ص، ق.

ومنها: أن هذه الأحرف ذُكرت في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركّب من هذه الحروف المقطعة التي يتألف منها كلامهم.



ومنها: أن الكفار كانوا ينفرون عند استماع القرآن حين يتلوه النبي محمد ﷺ عليهم وكانوا يقولون كما حكى الله عنهم ﴿... لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] كما كانوا يتواصون بالإغراض عنه، فأراد الله تعالى أن يورد على أسماعهم ما لا يعرفون ليكون سبباً لإسكاتهم واستماعهم لما يرد عليهم بعد ذلك، فأنزل الله هذه الأحرف في مفتتح السور، فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين: اسمعوا إلى ما يجيء به محمد، فإذا ما أصغوا هجم عليهم القرآن بآياته يقرع أسماعهم، فكان ذلك من الله استدراجاً لهم حتى يقبلوا على القرآن ويستمعوا له وينتفعوا بمواعظه، والذي يؤكد ذلك أنه كان يُذكر لفظ القرآن أو لفظ الكتاب والمراد به القرآن بعد هذه الأحرف مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] ﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١] ﴿يَسَّ. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢] ﴿حَمْ. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الدخان: ١، ٢] ﴿الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمْتُ ءَايَاتُهُ﴾ [هود: ١].

ثم يُبَيِّنُ اللهُ علوَّ منزلة القرآن بقوله:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ذلك: اسم إشارة يشار به إلى البعيد، والكتاب مصدر بمعنى المكتوب والمراد منه القرآن الكريم، وقد أُشير إلى القرآن بلفظ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ للإشارة إلى علوِّ مكانته وبعده مرتبته في الكمال عن سائر الكتب ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك فيه بأنه مُنزل من عند الله، ومن ارتاب في أن القرآن وحي إلهي فلائه لم يُقبل على قراءته بعقل منفتح أو بقلب سليم من التعصب الأعمى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ خص الله القرآن المتقين بالهداية مع أنه هداية لهم ولغيرهم لأنهم هم المنتفعون به دون سواهم، فهو إرشاد لهم إلى ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم لما تضمَّنه من العقيدة، والأحكام



العادلة، والأخلاق الرفيعة. والمتقون: هم الذين يصونون أنفسهم ويحفظونها من عذاب الله وذلك بترك السيئات وفعل الصالحات.

ثم يصف الله المتقين بخمس صفات هي:

**أولها: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾** والإيمان هو التصديق القلبي الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها إياه، والغيب: ما غاب علمه عن الخلق وما لا تدركه عقولهم كذات الله وصفاته وملائكته واليوم الآخر.

**ثانيها: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾** والصلاة في اللغة: الدعاء وقد استعملها الإسلام في العبادة التي تحتوي على الركوع والسجود وتسبيح الله وتعظيمه.

وإقامة الصلاة تعني تأديتها كاملة يصحبها الإخلاص واستحضار جلال الله وعظمته، وهي التي تترتب عليها الآثار الحميدة من تطهير النفس من الآثام وسلامتها من الآفات والتي قال الله عنها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

**ثالثها: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾** أي يُنفقون مما أعطاهم الله وملئهم إياه في وجوه الخير التي تشمل الصدقات الواجبة كالزكاة، والمستحبة كصدقة التطوع وغيرها، وفي قوله سبحانه ﴿مِمَّا﴾ وأصلها (من ما) من: تفيد التبعية، أي ينفقون بعض أموالهم بدون إسراف وتبذير على المحتاجين، وجاء قوله سبحانه: ﴿يُنْفِقُونَ﴾ بصيغة المضارع التي تفيد أن الفعل يحدث ويتجدد منهم مرة بعد أخرى. وقد أثنى الله على المنفقين أموالهم في سبيل الخير لأن ذلك الإنفاق من أعظم أسباب رقي الأمم وسلامتها من الآفات الاجتماعية.

**ورابعها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾** أي ومن صفاتهم أنهم يُصدّقون بالقرآن المنزل عليك يا محمد من الله وبما فيه من أحكام وآداب



فيعملون بمقتضاها ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما يُصدّقون بما أنزل الله من الكتب السماوية التي نزلت على من سبقك يا محمد من الأنبياء والرسل كالطورا والإنجيل وغيرهما. فالكتب السماوية السابقة يكفي الإيمان بأنها كانت وحيًا من الله وهداية للناس ولكن على طول الزمن دخلها التحريف والتبديل، أما العمل فلا يكون إلا بما تضمنه القرآن من أحكام وإرشادات لأن القرآن نسخ ما قبله الكثير من الشرائع.

فالإسلام يُقرّ بالرسالات الإلهية السابقة ولا ينكرها وذلك خلافاً لليهود والنصارى، فاليهود ينكرون المسيحية والإسلام، وينكرون كتابيهما وهما الإنجيل والقرآن، والمسيحيون ينكرون نبوة محمد والقرآن الذي أنزله الله عليه، ولهذا نرى أن أهل كل دين يجدون احترام رسلهم في القرآن بينما يجدون انتقاص رسلهم في الديانات الأخرى.

وخامسها: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي يعتقدون اعتقاداً جازماً بوجود الدار الباقية بعد فناء دار الدنيا حيث يبعث الله الناس أحياء بعد مماتهم يوم القيامة، فيثيب الله الأبرار ويدخلهم جنات النعيم ويُعاقب الفجار بأن يدخلهم جهنم وبئس المصير.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى<sup>(١)</sup> مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بما سبق من صفات هم متمكنون من أسباب الهداية من ربهم ومن توفيقه لهم سبحانه ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالخيرات في الدنيا، ونيل نعيم الجنة في الآخرة، وتكرار اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ للتنويه بشأنهم وأن الفوز مقصور عليهم.

(١) هدى: إيراد الهدى نكرة يعنى أنه هدى عظيم على ما هو معروف في علم البلاغة.



وبعد أن بيّن الله صفات المؤمنين أتبع ذلك بوصف أحوال الكافرين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذه الآية جاءت فيمن حقّت عليهم كلمة العذاب وسبق في علم الله أنهم يموتون على كفرهم<sup>(١)</sup>. رُوي أن هذه الآية جاءت في أخبار من يهود المدينة المنورة جحدوا نبوة محمد ﷺ وكنتموا أمرها عن الناس وهم يعرفون بأنه نبي كما يعرفون أبناءهم.

وقد كان الرسول محمد ﷺ يحرص على أن يؤمن جميع الناس ويتبعوه على الهدى فأخبره الله سبحانه أنه لن يؤمن إلا من كتب الله له السعادة لطيب عنصره وطاعته له، وأنه يستوي - أي يتساوى - إنذاره للكافرين وعدم إنذاره لهم لأنهم باقون على ضلالهم.

والإنذار: هو الإعلام بما فيه تخويف وتحذير من الكفر لما يترتب عليه من عذاب الله.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ ختم وطبع في اللغة واحد وهو التغطية على الشيء بإحكام حتى لا يدخله شيء آخر، والختم على القلب بأن يجعله لا يفهم شيئاً، وهنا كناية عن أحوال الكافرين حيث مثل الله قلوبهم وأسماعهم بالوعاء الذي خُتم عليه، فلا يقبلون الحق والإذعان له ولا يسمعون من رسول الله موعظة يتعظون بها، فالإنسان إذا تمادى في اعتقاد الباطل وارتكاب المحظور يجعل الله على قلبه غطاء فلا ينفذ إليه الهدى ولا يميز بين الخير والشر ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ أي جعل الله على أبصارهم غطاء فلا تبصر آيات الله الكونية الدالة على وجوده وقدرته وحكمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ

(١) الكفر في كلام العرب الستر والتغطية، وسمي من لم يؤمن بالله أو بوحدانيته أو من ينكر نبوة محمد كافراً لأنه صار بجحوده لذلك الحق وعدم الإذعان له كالمغطي له.



عَظِيمٌ ﴿ ويشمل العذاب ما أعدَّ اللَّهُ للكافرين من عذاب الآخرة، وما يُصيبهم في الدنيا من عذاب على أيدي المؤمنين من الأسر والقتل. ووصف الله هذا العذاب بأنه عظيم لبيان شدته ووقعه على الكافرين.



﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

### شرح المفردات

يُخَادِعُونَ اللَّهَ : يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر .  
وما يخدعون إلا أنفسهم : وما يعود ضرر خداعهم إلا عليهم .  
في قلوبهم مرض : هو النفاق والكفر وسمي مرضاً لكونه مانعاً من إدراك الفضائل .  
لا تُفسدوا في الأرض : الفساد خروج الشيء عن حالة الاعتدال والاستقامة وضده الصلاح .



السفهاء : خفيرو العقل وضعيفو الرأي .  
 خَلَّوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ : انفردوا مع رؤسائهم وقادتهم المشبهين بالشياطين .  
 يَمْدَهُمْ : يمهلهم ويملي لهم ليزدادوا إثماً .  
 طُغْيَانُهُمْ : ضلالهم وكفرهم ، والطغيان مجاوزة الحد في الكفر والضلال .  
 يعمهون : يعمون عن الرشد ويتحiron في أمورهم .  
 اشترؤا الضلالة بالهدى : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى .

### صفات المنافقين

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن المنافقين في ثلاث عشرة آية ، والمنافقون هم الذين يخفون الكفر في قلوبهم ويظهرون الإيمان علانية ، قال الله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ واليوم الآخر هو الوقت الذي يبتدى ببعث الناس من القبور أحياء ويستمر باستقرار الأبرار في نعيم الجنة والفجار في عذاب النار .

اقتصر إيمان هؤلاء المنافقين على الإيمان بالله واليوم الآخر ليموهوا على المؤمنين بأنهم أحاطوا بالإيمان من جانبيه لأن من يؤمن بالله واليوم الآخر من شأنه أن يكون مؤمناً برسل الله وملائكته وكتبه .

ولكن الله نفى إيمانهم على أبلغ وجه إذ جاء النفي مؤكداً بالباء في قوله تعالى ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ والخديعة : الحيلة والمكر ، وإظهار خلاف ما يضمرون ، ومخادعة المنافقين لله هي من حيث الظاهر لا من حيث الحقيقة ، فهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، وهذا جهل منهم بالله تعالى إذ لو عرفوا الله حقاً لعلموا أنهم لا يستطيعون خداعه ، بل الله هو خادعهم أي مجازيهم على خداعهم .



وقيل: المراد بمخادعة الله خداع رسوله محمد لأن الله لا تخفى عليه خافية، ونُسب ذلك إلى الله تعالى للتنبيه إلى علو منزلة الرسول محمد حيث جعل خداعه خداعاً لله تعالى. وهم في خداعهم للمؤمنين من حيث إنهم يقولون أمامهم غير ما يبطنون، ويمثلون أحكام الإسلام لمنافع يحصلون عليها من الغنائم وغيرها، ولكن هذا الخداع شقاء عليهم لأنهم يعيشون في خوف مستمر من أن يكشف المؤمنون أمرهم، أو يفلت لسانهم بقول يُنبئ عن نفاقهم ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ والحال أنهم ما يضرّون بذلك إلا أنفسهم لأن ضرر المخادعة يعود عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي ما يحسّون بذلك لتماديهم في الغفلة والغواية، وإن الله سيفضحهم في الدنيا بإطلاع رسوله محمد والمؤمنين على خداعهم.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ والمرض هو العلة في البدن وما ينشأ عنها من آلام تمنع المريض من التصرف فيما ينفعه، وقد يستعمل المرض على وجه الاستعارة فيما يعرض للمرء من آفات وعيوب فيخلّ بكماله النفسي كالكفر والنفاق والحسد والكذب وغير ذلك، وهذه الآفات كانت متمكنة في عقول المنافقين ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ فزاد الله المنافقين كفراً ونفاقاً وحسداً بزيادة النعم على رسوله محمد والمؤمنين بما أيدهم الله من النصر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بما كانوا يكذبون ﴿ولهم عذاب موجه بما كانوا يكذبون بادعائهم الإيمان.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ القائل للمنافقين ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هو النبي ﷺ أو المؤمنون الذين اطلعوا على بعض من سوء أفعالهم. وإفساد المنافقين في الأرض هو بالكفر والعمل بالمعصية وإثارة الفتن بين المسلمين وإفشاء أسرار المسلمين للكفار وإلقاء الشبه على الإسلام ومعاونة المشركين على المسلمين ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

ولكن جواب المنافقين كان مبنياً على مغالطة كاذبة حيث أجابوا ﴿قَالُوا



إِنَّمَا نَحْنُ مُضِلِّحُونَ ﴿٨﴾ لقد صَوَّرَ المنافقون إفسادهم إصلاحاً لعدم تمييزهم بين الخير والشر وهذه صفة بعض مرضى النفوس في كل زمان، ولكن الله أكد فسادهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ فإِنَّ الله تعالى يحكم عليهم بالفساد وأنهم مقصرون عليه وقد أكد ذلك بحرف «إن» وبضمير الفصل «هم» ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ والشعور هو الإحساس النفسي والعقلي بخطأ ما يفعلون، فالشر قد استغرقهم حتى صاروا لا يميزون بين الخير والشر بسبب جهلهم وعدم إدراكهم الخبيث والطيب من الأفعال.

هذا مع العلم أن المدينة المنورة كانت قبل الإسلام ميداناً للصراعات والفساد وشيوع المعاصي والمنكرات، فلما بعث الله محمداً رسولاً منه عمل على إزالة هذا الفساد والقضاء على العصبية الجاهلية، وبذلك تهيأت الأرض للصالح بعد الفساد.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ وإذا قيل لهؤلاء المنافقين صدقوا بأن محمداً رسول الله وبما جاء به من الهدى من عند الله كما صدق به أصحاب محمد ﷺ من المؤمنين أجابوا على ذلك ﴿قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ والسفهاء: جمع سفيه، والسفيه: هو الجاهل الناقص العقل القليل المعرفة بمواضع المنافع والمضار. لقد وصف المنافقون أصحاب محمد بالسفهاء، فردَّ الله عليهم أبلغ ردّ فقال ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ أي إن السفه مقصور عليهم فلا يتجاوزهم إلى المؤمنين ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون مقدار ما أوتوا من سفه الرأي وما أوتي غيرهم من سداد الرأي وحكمة الإيمان.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لقيه: استقبله قريباً منه ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ أي أخلصنا الإيمان بقلوبنا ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ وإذا انفردوا إلى شياطينهم وهم

رؤسائهم وكبرائهم الذين يشبهون الشياطين في تمردهم وصددهم عن سبيل الحق ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ والمعية هنا يُراد منها موافقتهم في دينهم ليزيلوا ما قد يجري في خواطرهم من أنهم فارقوا دينهم وانقلبوا إلى دين الإسلام. وتابع المنافقون قولهم لرؤسائهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا القول منهم ورد مورد الجواب عما قد يعترض عليه رؤسائهم من مشاركتهم المؤمنين في مظاهر دينهم وكأنهم يقولون لهؤلاء الرؤساء إن مشاركتنا للمؤمنين هي على سبيل الاستخفاف والسخرية، وهنا صوّر الله نفاقهم أدق تصوير، فقد عبّر عن ملاقة المنافقين للمؤمنين بكلمة ﴿لَقُوا﴾ أي إن لقاءهم لهم كان مُصادفةً لا يحرصون عليها، وعبّر عن ملاقاتهم لرؤسائهم بكلمة ﴿خَلَّوْا﴾ والخلوة فيها القصد للإدلاء لهم بما عندهم من الأسرار لرؤسائهم.

ثم يردُّ الله على استهزائهم بقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي الله ينتقم منهم ويجازيهم على استهزائهم لاستحالة معنى الاستهزاء على الله تعالى، فقد سميت عقوبتهم باسم الذنب الذي صدر عنهم للمطابقة اللفظية بينهما، وتسمية جزاء الذنب باسم الذنب معروفة في الكلام العربي ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يمدُّهم: يزيدهم أو يمهلهم، والطغيان: الغلو في الكفر والضلال. يعمهون: أي يعمون عن الرشd ويترددون حيارى. والعمى يكون في العين، والعمه يكون في القلب. والمعنى: ويزيد الله المنافقين في ضلالهم أو يمهلهم فيه يتحيرون ويتخبطون فيه لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ اشتروا: بمعنى اختاروا واستبدلوا أي أن المنافق والكافر استبدلا الهدى بالضلالة والنفاق ﴿فَمَا رِبْحُ تِجَارَتِهِمْ﴾ لأن المستبدل في سلعته سلعة دونها ودون الثمن الذي يتاعها به هو الخاسر في تجارته، وكذلك الكافر والمنافق يخسران في تجارتهم لأنهما اختارا الضلال



وفضّلاه على الرشاد ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي أنهم لم يهتدوا إلى طرق التجارة السليمة التي تحقق الربح وتجنب الخسارة، وهؤلاء بمسلكهم الخاطئ هذا بقوا في ظلمة الضلال ولم يهتدوا إلى سبيل الرشاد.



﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْٓ أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

### شرح المفردات

مَثَلُهُمْ: صفتهم.

استوقد ناراً: أوقد ناراً.

صُمُّ: سدّوا آذانهم عن سماع الحق فصاروا كالصم.

بَكْمٌ: جمع أبكم وهو الأخرس، أي لا ينطقون بالحق.

كَصَيْبٍ: الصيْب هو المطر المنهمر.

فيه ظلمات: المراد بها الظلمات الناشئة من كثافة المطر وكثافة السحب التي تحجب نور الشمس والناشئة عن ظلمة الليل.

الصواعق: جمع صاعقة، وهي إفراغ كهربائي جوي بين سحابة مكهربة والأرض أو بين سحابتين. حَذَرَ الموت: خوف الموت.

محيط بالكافرين: أي لا يفوتونه ولا ينجون من بطشه.

## وصف أحوال المنافقين

ويتابع القرآن الكلام عن المنافقين فيصوّر أحوالهم بتلك الصورة البليغة:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ مثلهم: المثل هو الشبيه والمثيل، ويستعمل المثل في الحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفي ولتمثيل المعاني المعقولة بالصور الحسيّة، فيكون المعنى الذي ضرب له المثل أوضح وأوقع في القلوب.

وهذا المثل يسوقه الله لهؤلاء المنافقين الذين أظهرُوا الإيمان بالسنتهم وانتفعوا به بين المسلمين واكتسبوا بإيمانهم نوراً ثم أبطلوا ذلك الإيمان بنفاقهم فوقعوا في حيرة عظيمة، فمثل هؤلاء في نفاقهم كمثل رجلٍ أوقد ناراً في ليلة مظلمة فرأى ما حوله واتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ انطفأت ناره فبقي في ظلمة حائراً متخوفاً. وقد أسند النور إلى الله ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ للإيذان بأن هذا النور إنما ذهب بأمر سماوي بسبب نفاقهم ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وإيراد الظلمات بصيغة الجمع للمبالغة في شدتها فكأنها لشدة كثافتها ظلمات بعضها فوق بعض، وأكد هذا المعنى بقوله تعالى ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي أن هذه الظلمات بلغت من الشدة بحيث لا يرى من خلالها أي شيء.

﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وصف الله حال المنافقين بهذه الصفات لأنهم وإن كانت لهم آذان تسمع وألسنة تنطق وأعين تبصر، ولكنهم لما حجبوا أسماعهم عن تقبل الحقائق كانوا بمثابة الصم الذين لا يسمعون، ولما لم ينطقوا بالحق كانوا بمثابة البكم، ولما لم يميزوا بين الحق والباطل ببصائرهم كانوا بمثابة العمي ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فهم لا يتوبون ولا يرجعون إلى الهدى ولا إلى الخير.



ويتابع القرآن فيمثل المنافقين بهذا المثال الثاني:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ الصَّيِّبُ: المَطَرُ المنهمر، والظلمات: المراد منها كثرة هطول المطر وكثافة السحب وظلمة الليل. شبه الله القرآن الذي به حياة القلوب وإصلاح النفوس، بالمطر النازل من السحاب الذي به حياة الأرض والعباد. وشبه الله ما أحاط بالمنافقين من التردد والحيرة والشكوك بالظلمات، وشبه الله ما عليه المنافقون من الخوف من وعيد الله إياهم بحلول العذاب بهم بالرعد، وشبه الله ما في القرآن من الحجج الباهرة والإرشادات الخيرة للإنسان بالبرق. فالمنافق في قلبه ظلمات الكفر، بينما المؤمن يعيش نور الإيمان حيث يجد فيه الأمن والطمأنينة والسعادة.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ هنا مُبالغة في تصوير إغراض المنافقين عن قبول ما جاء به رسول الله محمد من الهدى حيث صَوَّرَ القرآن إغراضهم بالرجل الخائف من الصَّوَاعِقِ الذي يَسُدُّ أذنيه بأنامله حتى لا يسمعها خشية أن يموت من شدة صوتها وما تحدثه من هلاك لمن تصيبه ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ والإحاطة هنا: السلطان والاستيلاء والقوة، أي أنهم في قبضة الله سبحانه إن أراد أهلكهم فهو محيط بهم لا يفلتون منه.

ثم يأتي المشهد التالي ليزيد على الصورة خيالاً وَرَهْبَةً:

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ فالبرق لشدة لمعانه يكاد يذهب بأبصار المنافقين وهم كلما أضاء لهم استرشدوا به في سيرهم، وإضاءته لهم عندما يرون في إظهار الإيمان ما يعجبهم من الحصول على الغنائم في الغزوات والثراء في الأموال والسلامة في البلدان والأهل ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ فإذا ذهب ضوء البرق وعاد الظلام إليهم كأن لم يجدوا عند المسلمين مغنماً أو ما يعجبهم في دنياهم رجعوا إلى كفرهم وأقاموا على نفاقهم

وثبتوا على ضلالتهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي لو شاء الله لأذهب عن المنافقين سمعهم وأبصارهم عقوبة لهم على كفرهم وضلالتهم بسبب إعراضهم عن الحق بعد معرفتهم إياه، فقد جعل الله لهم السمع والأبصار لتكون سبيلاً إلى الهدى ولكن صرفوها إلى المعاصي والشهوات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وإنما وصف الله نفسه بالقدرة على كل شيء تحذيراً للمنافقين من عقوبته إياهم وأنه قادر على إذهاب أسماعهم وأبصارهم، وقدير من صيغ المبالغة على اسم الفاعل قادر، أي المبالغة في القدرة.



﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢).

### شرح المفردات

لعلكم تتقون: لكي تقوا أنفسكم وتحفظوها من عقاب الله.  
جعل لكم الأرض فراشاً: أي خلقها الله موطأة كالفرش بحيث يتيسر الاستقرار عليها.  
وأنزل من السماء ماءً: وأنزل الله من السحاب ماءً، فكل ما علاك سماء.  
أنداداً: جمع نَدَ وهو الشبيه والنظير والمماثل.

### **الدعوة إلى عبادة الله وحده**

وبعد الكلام عن صفات المؤمنين والكافرين والمنافقين يأتي خطاب الله للناس كافة داعياً إياهم إلى عبادته وحده بأسلوب مؤثر مقنع يجعل النفس تستجيب طوعاً لهذا النداء الرباني، قال الله تعالى:



﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ فالآية دعت إلى عبادة الله ووصفته بصفة الرب: وهو المالك والمربي، وإضافته إلى المخاطبين بقوله ﴿رَبَّكُم﴾ حث للإقبال على عبادته، وذلك أن الإنسان إذا اتجه بفكره إلى معنى كون الله مالِكاً ومربياً له وتَذَكَّرَ ما يحقُّه به من رفق وما يجود عليه من نِعَمٍ لا يلبث أن يخصه بأقصى ما يمكن من العبادة.

والعبادة في اللغة: الطاعة والخضوع والتذلل والتَّسْكُّ، والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المُنْعِم بأجلّ النعم وأعظمها وهو الله سبحانه.

ومجالات العبادة في الإسلام تشمل الأركان الشعائرية: من الصلاة والصيام والزكاة والحج ويطلق عليها العبادات، كما تشمل ما زاد على ذلك من ألوان التعبد كذكر الله والتوجه إليه بالدعاء، واستغفاره وتسبيحه، وتكبيره والشكر والحمد له. ثم يبين القرآن الدواعي والأسباب التي توجب عبادة الله:

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي اعبدوا ربكم فهو الذي أنشأكم من العدم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة وغذاكم بنعيمه ونماكم بكرمه، كما أنه سبحانه خالق من كان قبلكم من الآباء والأجداد والأمم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لعل: حرف يدل معناه على الترجي وهو توقع حصول شيء عندما يحصل سببه، والتقوى: جعل النفس في وقاية من عذاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والمعنى: اعبدوا الله راجين أن تكونوا من المتقين، لأن التقوى هي الغاية التي تنشأ عن العبادة، لأن من يعبد الله ويعلم أنه مطلع عليه يترك ما حرّمه عليه، ويؤدي ما افترضه عليه ويصبح من المتقين لله.

ثم يُبَيِّن القرآن نِعَمَ الله على الإنسان:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشاً﴾ أي خلق الله للإنسان الأرض منبسطة

ممهدة ليتمكن من الاستقرار عليها وبناء البيوت للسكن فيها، أضف إلى ذلك إمكان الانتفاع من خيراتها بما فيها من تربة صالحة للزراعة ولم يجعلها كلها جبلاً وودياناً وصخوراً صلبة بحيث يصعب العيش عليها والتنقل فيها ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وجعل الله لكم السماء كالسقف للأرض وسوى أجرامها على هذه الصفة المشاهدة، متماسكة كالبناء بقانون الجاذبية بحيث لا يصطدم بعضها ببعض أو يسقط بعضها على الأرض فينسفها ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي وأنزل الله من السحاب ماءً عذباً تشربون منه وفيه حياة كل حيٍّ على وجه الأرض ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ ومن هذا الماء ينمو كل أنواع الثمرات التي يقتات منها الإنسان والحيوان ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الأنداد: جمع ند وهو المماثل والشريك والنظير، فالمشركون لما تركوا عبادة الله إلى عبادة الأصنام وسمّوها آلهة وزعموا أنها تنفع وتضر فهم بذلك جعلوها شريكة لله. فالله سبحانه ينهاهم عن اتخاذ شركاء لله من أصنام لا تنفع ولا تضر ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم تعلمون أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة، فلو تأملتم أدنى تأمل في وضعها لتركتم عبادتها وتوجهتم إلى عبادة ربكم خالق الكون الجدير وحده بالعبادة.





﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ  
وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ  
تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ  
أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ .

### شرح المفردات

في رَيْبٍ: في شك.  
مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا: أي مما نزل الله من القرآن على محمد ﷺ.  
بِسُورَةٍ: السورة هي الطائفة من آيات القرآن والتي أقلها ثلاث آيات.  
وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ: أي ادعوا أنصاركم وأعوانكم ليشهدوا أنكم عارضتم القرآن.  
فَاتَّقُوا النَّارَ: فاحذروا عذاب الله في نار جهنم.  
أُعِدَّتْ: هُيِّئَتْ.

### القرآن يتحدى العرب وكافة الأمم

كان العرب في زمن النبي محمد ﷺ على جانب كبير من البيان والفصاحة في المنطق والبلاغة في القول، وكانوا يقيمون في كل سنة مواسم يتبارى فيها الشعراء ويُشدون أشعارهم وخطبهم في مكان يطلق عليه سوق عكاظ.  
فجاء القرآن أفصح كلاماً وأبلغ أسلوباً وأعمق معنى ليستحوذ على قلوب أهل الجزيرة العربية بعد أن كانت مسرحاً للظلم والفساد، وليخرجهم من الظلمات إلى النور، وفي الوقت نفسه ليكون القرآن دليلاً وبرهاناً على صدق نبوة محمد ﷺ الذي كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب.

سمع العرب فصاحة القرآن فبهتوا لفصاحته وأذعنوا لبلاغته فقالوا في

القرآن: هو شعر، وهو سحر، وهو أساطير الأولين، ورموا محمداً بالجنون، واتهموه بالكذب حيث زعموا أن القرآن من تأليفه، وهذه الشبهة يرددها الكثير من أتباع الديانات الأخرى بدون علم ولا بصيرة.

ولما كان من عادة العرب أن يتحدى بعضهم بعضاً بالقصائد والخطب لذا تحدى القرآن المشركين المنكرين بأن القرآن منزل من عند الله بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أي وإن كنتم - أيها العرب - في شك بأن القرآن منزل من عند الله على عبده محمد فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن بما يشبهه في حسن النظم وبراعة الأسلوب وسمو المعنى فأنتم أهل الفصاحة والبلاغة.

والآية وصفت النبي محمداً ﷺ بأنه عبد الله ﴿عَبْدِنَا﴾ باعتبار عبوديته لله، وفي إضافته إلى الله تنبيه على شرف منزلته عند الله، كما أن وصفت النبي محمد بصفة العبودية هو تذكير لأُمَّته بهذا المعنى حتى لا يغفلوا في تعظيمه ويدعوا له الألوهية كما غلا بعض أتباع الأديان الأخرى في تعظيم أنبيائهم.

ثم يخاطب الله المشركين المنكرين بأن القرآن منزل من عنده بقوله:

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ شهداءكم: أعوانكم ونُصراءكم، وقيل: آلهتكم. والمعنى: نادوا الذين اتخذتموهم آلهة وأعواناً وأنصاراً من غير الله ليعينوكم على مُعارضة القرآن، أو ليشهدوا بأنكم أتيتم بمثل القرآن بلاغة وحكمة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي صادقين في زعمكم أنكم تقدرُونَ على معارضة القرآن وأن محمداً افترى واختلق هذا القرآن.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ أي فإن لم تستطيعوا الإتيان بسورة من مثل سور القرآن ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ هو نفْي قاطع لاستطاعتهم الإتيان بسورة من مثله في الحاضر



والمستقبل وتأكيد على عجزهم عن معارضته وذلك من معجزات القرآن، إذ لم يثبت أنهم أتوا بسورة من مثل هذا القرآن أيام رسول الله ﷺ ولا من بعده إلى زمن كتابة هذه الكلمات ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي إذا عجزتم عن مُعارضة القرآن والآيتان بسورة من مثله وأصررتن على إنكاركم بأن القرآن وحي إلهي، فعندها تكون قد لزمتمكم الحجة، فاتَّقُوا عذاب النار التي سيكون وقودها من الكافرين ومن الأصنام التي كانت مصنوعة من الحجارة ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي هُيئت هذه النار للكافرين، واقتراهم مع الأصنام في عذاب النار زيادة في إيلاهم وتحسرهم.

هذا وقد ورد في القرآن جملة من التحديات للمشركون بأن يأتوا بمثل هذا القرآن قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

ولما لم يأتوا بمثله تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرَاهُ قُلٌّ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣].

فلما عجزوا عن الإتيان بعشر سور تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨].

وأعاد عليهم هذا التحدي في سورة البقرة في الآية التي نحن بصدددها،

ولما عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله جاء الرد القاطع لهم على عجزهم:

﴿قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ آلِئْسُ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

هذا هو التحدي الواضح الذي أعلنه القرآن منذ خمسة عشر قرناً ولم نسمع إلى يومنا هذا أن أديباً أو بليغاً أو شاعراً أو مجموعة من هؤلاء استطاعوا أن يأتوا بسورة واحدة مثل سور القرآن في بلاغتها ومعانيها الباهرة، أي دليل وبرهان على صدق نبوة محمد ﷺ وعلى أن القرآن وَحْيٌ من عند الله أقوى من ذلك؟

### القرآن هو المعجزة الكبرى لمحمد ﷺ

المعجزة هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها.

وقد جرت حكمة الله سبحانه أن تكون معجزة الأنبياء من جنس ما اشتهر به أهل زمانهم، فقد اشتهر قوم موسى بالسحر فكان من معجزاته عصاه التي ابتلعت أدوات السحرة. واشتهر قوم عيسى بالطب فكان من معجزاته إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله. واشتهر العرب في عهد محمد ﷺ بالفصاحة والبلاغة فكانت معجزته القرآن الكريم من النوع الذي اشتهروا به.

ومعجزات الأنبياء لم يشاهدها إلا من عاصر الأنبياء، وبوسع الملحدين أن ينكروها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة يشاهدها كل دارس للقرآن حسب علمه واختصاصه في أي فرع من أنواع المعرفة، وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات - أي المعجزات - ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً - أي القرآن - أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه الشيخان.



## من مظاهر إعجاز القرآن

ومظاهر إعجاز القرآن كثيرة نذكر بعضها فيما يلي :

**أسلوب القرآن :** ومن مظاهر إعجاز القرآن أسلوبه المخالف لأساليب العرب بما اشتمل عليه من تشبيه واستعارة وإيجاز وبلاغة، وما من عالم أو بليغ إلا وهو يعرف ذلك ويَعُدُّ خروج القرآن على أساليب الناس كافة دليلاً على إعجازه، وعلى أنه ليس من كلام البشر. فلو كان القرآن من تأليف محمد كما يدّعي بعض دُعاة الأديان لجاء القرآن بأسلوب يشبه أسلوباً من أساليب البلغاء والشعراء في عصره لأنه عاش في وسطهم، هذا مع العلم أن أسلوب القرآن وما اشتمل عليه من موضوعات يختلف عن أقوال النبي ﷺ ووصاياه التي دوّنتها كتب الأحاديث الشريفة.

**لا تفاوت في بلاغة القرآن في كل مواضعه :** ومن مظاهر إعجاز القرآن أن بلاغته لا تتفاوت ولا تختلف على ما يتصرف فيه من الوجوه من قَصَصٍ وَوَعْظٍ وحكم وأحكام وتشريع وغير ذلك مما حواه القرآن، بينما نجد كلام البليغ يختلف باختلاف الأغراض. فمن بلغاء العرب من يجيد الوصف دون الغزل، والمدح دون الهجو، ومنهم من يُجيد في بعض النواحي من أغراض الشعر دون بعض، وإذا تأملت نظم القرآن وجدت أن جميع ما يتصرف فيه من الوجوه والمواضيع ليس فيه انحطاط عن المنزلة العليا في البلاغة، كما أنه ليس في بلغاء العرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة في القول وعلى هذا القدر من الطول كالذي عليه القرآن.

**احتواء القرآن على أمور غيبية :** ومن مظاهر إعجاز القرآن اشتماله على كثير من الأمور الغيبية التي تحققت مثل قوله تعالى ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ

شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿[الفتح: ٢٧] فدخله المسلمون كما وعدهم الله، ومثل قوله: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٢ - ٤] فتحقّق ذلك كما أخبر القرآن . ومثل ذلك ما أنبأ به القرآن من أخبار القرون السالفة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلاّ الراسخون في العلم من علماء أهل الكتاب كإخباره عن أحوال نوح وعاد وثمود وفرعون وغيرهم، والكلام عن الكثير من الأنبياء والرسل وما جرى لهم من أحداث مع قومهم تختلف عما جاء في العهد القديم، هذا مع العلم أن النبي محمداً لم يجتمع بأخبار اليهود ورُهبان النصارى لتلقّي العلم على أيديهم، ولو حصل ذلك لشاع بين قومه هذا واتخذ أعداؤه ذلك مادة للطعن في نبوّته .

**ميزة القرآن على غيره من الكتب السماوية:** ومن مظاهر إعجاز القرآن اشتماله على العلوم الإلهية وأصول العقائد الدينية وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان، وبذلك يُفْضَلُ القرآنُ كُلُّ ما سبقه من الكتب السماوية .

والملفت للنظر أن القرآن يذكر صفات خالق الكون بغاية العظمة والجلال، ففي كل آية من آيات القرآن تلوح فيها عظمة الله تعالى وتظهر ألوهيته وقديسيته في أعلى مظاهرها، كما أن القرآن امتلأ بأسماء الله الحسنى وصفاته الجليلة، كما ورد فيه ذكر الله بكثرة لافتة بحيث لا يُضاهيه أي كتاب سماويّ، فالتوراة والإنجيل اللذان يتبعهما اليهود والنصارى لو قرأتها لوجدت صفحات منها خالية من ذكر الله تعالى، ولكنك لا تجد صفحة من القرآن خالية من ذكر اسم الله تعالى والدعوة إلى ذكره وعبادته وشكره .

**مُعْجَزَاتُ الْقُرْآنِ الْعِلْمِيَّة:** والجدير بالذكر اشتمال القرآن على كثير من



المسائل العلمية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للعلماء والباحثين في طبيعة الكون، ففي القرآن الكثير من الآيات التي تتعلق بعلوم الفلك والطبيعة وعلم الحياة وخلق الإنسان وغيرها من العلوم التي أشار إليها القرآن، وقد أَلَّف العلماء في ذلك كتباً تبين فيها ما أورد القرآن من الحقائق العلمية<sup>(١)</sup> منذ خمسة عشر قرناً حين لم تكن هذه المعارف معلومة في ذلك الوقت وهذا مما يثبت أن القرآن وحي إلهي.

**فصاحة القرآن في كل كلمة من كلماته:** ومن مظاهر إعجازه فصاحة ألفاظه وبلاغة أساليبه وحُسن وقعه على السمع، من تَخْيُّر الألفاظ العذبة التي تتألف حروفها في النغم بحيث لو سقط حرف واحد أو أُبدل بغيره أو أُقحم معه حرف آخر لشكّل ذلك خَلْلاً بَيِّناً في انسجام النغم، مع الابتعاد عن الغريب والوحشي من الكلام.

كما ترى في آيات القرآن اطراد الفاصلة فيها على نسق خاص، والفاصلة في اصطلاح القرآن هي الكلمة التي تختتم بها الآية القرآنية حيث تكون مُنْسَجَمَةً لِحناً مع الفاصلة التي سبقتها، وهذه الفواصل تنتهي بحرف خاص يتكرر في آيات السورة مثل (النون). كما جاء في أواخر الآيات (تعلمون، تؤمنون، تتقون) أو تنتهي الفاصلة (بالألف) مثل (خبيراً، كثيراً، عليمًا، حكيمًا) والقرآن يعنى بهذا الانسجام عناية واضحة لما في ذلك من تأثير كبير على السمع، ووقع مؤثر في النفس، وهذا يُظهر إعجاز القرآن وعظمة بلاغته.

(١) أورد المؤلف بعض هذه الحقائق العلمية في كتابه (روح الدين الإسلامي).

## تأثير القرآن

والقرآن اختص بميزة خاصة لا تجدها في أي كتاب آخر وذلك صنيعة في القلوب وتأثيره في النفوس فقارئه لا يملّه وسامعه لا يمجّه، تستشعر النفس عند قراءته لذة وحلاوة وروعة ومهابة، تستبشر به النفوس الطيبة المؤمنة لما فيه من المبشرات بنعيم الله للمتقين، وتشرح له الصدور لما فيه شفاء للهموم ويلسم للأحزان، وصدق الله إذ قال في القرآن ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ [الإسراء: ٨٢].



﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦) ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢٧).

## شرح المفردات

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا: التبشير يطلق غالباً على الإخبار بالخبر السار.  
وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا: أي قُدِّمَ لهم ثمر الجنة متشابهاً مع ثمار الدنيا لكنه يفوقها طعماً ومذاقاً.



أزواج مُطَهَّرَة: أي زوجات مُبَرَّات من كل دَنَسٍ وعيب.  
لا يستحي أن يضرب مثلاً ما: أي لا يترك الله ضرب المثل، وضرب المثل استعماله فيما ضرب له ..

بعوضة: البعوض يطلق على البق والناموس.

فما فوقها: أي الزيادة في الحجم.

الفاسقين: الخارجين عن طاعة الله.

ينقضون عهد الله: أي يبطلونه، وعهد الله ما أخذه على العباد من توحيدهِ والعمل بشريعته.

ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل: يقطعون صلة الأرحام.

### المقارنة بين المؤمنين والكافرين ومصير كل منهما

وبعد أن ذكر الله أحوال الكفار وأن مصيرهم في عذاب جهنم عَقَّبَ على ذلك بالكلام عن المؤمنين وما يفوزون به من النعيم في الآخرة، قال الله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يطلب الله من نبيه محمد ﷺ أن يُبَشِّرَ الذين صدَّقوا بوحدانيته وأخلصوا له الإيمان، وقرنوا إيمانهم بالأعمال الصالحة ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ والجَنَّات: جمع جَنَّة وهي كل بُسْتان ذي شجر متكاثف ملتف الأغصان، ثم صارت الجنة اسماً شرعياً لدار النعيم في الآخرة، وهذه الجنات تجري من تحت أشجارها الأنهار.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا﴾ أي أن سكان الجنة كلَّمَا رُزِقُوا ثمرة من ثمارها ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي قالوا: هذا الذي رَزَقْنَا الله إياه من قبل في الحياة الدنيا، أو بمعنى: هذا الذي وُعدنا به في الدنيا جزاء الإيمان والعمل الصالح ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ أي جيء لهم بهذه الثمار متشابهة في اللون والمظهر، وفي هذا إشارة إلى أن ثمار الجنة متماثلة في حسن مظهرها، ولذة

طعمها بحيث لا تفضل ثمرة في ذلك على أخرى بخلاف ثمر الدنيا فإنه يتفاوت في طعمه . أو بمعنى : أن ثمر الجنة متشابه في الصورة والشكل على ما كان في الدنيا فإذا ما أكلوا منه أَحَسُّوا فرقاً شاسعاً في اللذة والطعم بينه وبين ثمر الدنيا . وإنما جعل ثمر الجنة مشابهاً في الصورة لثمار الدنيا لتميل النفس إليه حين تراه، فإن الطباع تميل إلى ما كانت عليه من قبل .

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ ولأهل الجنة زوجات منزهات عن كل ما يعيبهن من العيوب في أبدانهن أو خلقهن، فهؤلاء الأزواج مطهرات من الأخلاق المشينة والطبائع الرديئة كالغضب والحقد والكيد والمكر والتطلع إلى غير أزواجهن، ومطهرات من الأدناس الجسدية كالحيض والجنابة والبول والتغوط والعرق وغير ذلك ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهم في الجنات باقون أبداً، وهذا مما يُضفي عليهم سعادة، لأن النعيم متى كان مترقب الزوال يجعل صاحبه منغصاً إذ يذكر أنه سيفقده يوماً ما .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ .

رُوي أنه لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في القرآن وضرب بهما المثل ضحك اليهود وقالوا: ما يشبه أن يكون هذا من كلام الله! فأنزل الله هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي . .﴾ .

ومعنى : يستحي من الاستحياء بمعنى الحياء وهو لغة: انقباض النفس وانكسارها من خوف ما يُعاب به ويدم، وهذا المعنى غير مراد بجانب الله، والمراد من الحياء: الترك، لأن من استحيا من شيء تركه .

والمَثَلُ في اللغة: الشبه والشبيه، وضرب المثل يعني إيضاحه وبيانه، واختير له لفظ الضرب لأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره إلى



قلبه، وضرب المثل هو للتذكير والوعظ والاعتبار وتقريب المراد منه بصورة المحسوس.

ومعنى الآية: إن الله لا يترك ضرب المثل بأي شيء سواء كان صغيراً كالبعوضة أو أكبر منها في الحجم كالذباب والعنكبوت.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فأما المؤمنون فيعلمون أن المثل الذي ضربه الله ومثل به هو الحق من ربهم، والحق هو خلاف الباطل وهو الأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وقد ضرب الله الأمثال للناس ليعينهم على فهم المعاني الصحيحة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي إن الكافرين يتعجبون ويقولون: ماذا أراد الله من ضرب هذه الأمثال المتمثلة بهذه المخلوقات الضعيفة؟ وغايتهم إنكار أن يكون الله قد ضربها للناس ويستحيل صدورها منه.

ثم يعقب الله على ذلك بقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ أي يضل الله بهذا المثل كثيراً من الناس الذين عميت قلوبهم عن إدراك مراميه، ويهدي به كثيراً من الناس ممن استنارت قلوبهم بالإيمان، فيزداد المؤمنون بالمثل رُشداً إلى رشدهم، ويزداد به الكافرون تخبطاً في ظلمات الجهل والضلال.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ والفسق في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج عن طاعة الله، فيشمل الخروج من الإيمان إلى الكفر، أو إلى ما دون الكفر وهي الكبائر والصغائر من الذنوب. ولكنه اختص في العرف من بعد بارتكاب الكبيرة. وإضلال الله تعالى للفسقين لا يعفيهم من أن يتحملوا تبعته، لأن الإنسان إذا سلك باختياره طريق الكفر والفساد غير مكترث بما حذر الله منه يتركه الله في ضلالته لأنه سلك سبيلها وأوغل فيها مختاراً.

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ والنَّقْضُ: إفساد ما أبرم وفسخه، وشاع استعمال النقض في إبطال العهد ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي من بعد توثيقه وتمامه بين المتعاهدين.

والعهد الذي نقضه هؤلاء الفاسقون هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بطاعته ونهيه إياهم عن معصيته، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل بما وصّاهم به. كما أن عهد الله هو ما أخذه على أهل الكتاب بالعمل بما أنزله عليهم من الكتب الإلهية واتباع محمد حين يُبعث نبياً والتصديق بما جاء به، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد أن أخذ الله عليهم العهد بأن يبينوه للناس ولا يكتُموه وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ...﴾ [آل عمران: ١٨٧].

والعهد يكون تارة بين الأفراد والجماعات في الأمة الواحدة وتارة بين الأمم بعضها مع بعض فلا يجوز نقض هذه العهود، ويكون نقضها خروجاً عن طاعة الله وهديه.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ وهو قطع صلة الأرحام والقربات وكذلك صلة الأخوة بين المؤمنين. فصلة الأرحام توجد نوعاً من التكافل الاجتماعي بين البشر فإذا حدث لشخص مصيبة أسرع أقاربه إلى الوقوف بجانبه ومدّ يد المعونة له والتخفيف عنه. وقطع صلة الأخوة بين المؤمنين يؤدي إلى إضعافهم وشيوع الحقد والفرقة بينهم ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ والإفساد في الأرض ضد إصلاحها، وإصلاحها يكون بالعمل بوصايا الله، أما إفسادها فيكون بشيوع الفواحش والمنكرات والظلم والغش، كما يكون إفسادها بإفساد



البيئة التي نعيش فيها وينتقل ضررها إلى الإنسان والحيوان والنبات والماء ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي أولئك المتصفون بهذه الصفات الذميمة هم الذين خسروا الحياة الطيبة في الدنيا وسوف يخسرون نعيم الآخرة بما أفسدوا في الأرض ونقضوا عهد الله.



﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠).

### شرح المفردات

استوى إلى السماء: تعلقت إرادته تعالى بتسوية السماء.  
 خليفة: هو من يخلف غيره وينوب منابه، والمراد به آدم عليه السلام لأنه كان خليفة الله في الأرض.  
 ويسفك الدماء: يريقها بالقتل عدواناً وظلماً.  
 نُسبِح بحمدك: ننزهك عما لا يليق بك ومتلبسين بحمدك.  
 ونُقَدِّس لك: نطهر ذكرك عما لا يليق بك تعظيماً لك وتمجيداً، من التقديس بمعنى التطهير.

## آدم خليفة الله في الأرض

وبعد أن عدد الله مساوي أولئك الكافرين وبين ما يصيرون إليه من الخسران في الدنيا والآخرة وَجَّهَ إِلَيْهِمُ الْخُطَابَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَعْرُوفِ فِي عِلْمِ الْبَلَاغَةِ بِاسْمِ (الالتفات) حيث نقل الحديث عنهم من طريق الغائب إلى طريق الخطاب مباشرة:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ والغرض من هذا الاستفهام الإنكار والتوبيخ، أي عجباً من أمركم كيف تكفرون بالله وتجحدون فضله ونعمه عليكم، وكنتم أمواتاً في حال العدم حيث كنتم في أصلاب آبائكم فأخرجكم الله أحياء إلى الدنيا بعد أن نفخ فيكم الروح وأنتم في أرحام أمهاتكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي بخروج أرواحكم في الدنيا بعد انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُخْيِيكُم﴾ ببعثكم أحياء بعد الموت يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ثم تصيرون إلى الله وحده دون سواه حيث يتولى حسابكم ويجزيكم على أعمالكم يوم القيامة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي أنه سبحانه خلق جميع ما في الأرض من حيوانٍ ونباتٍ ومعادنٍ وخيراتٍ من أجلكم أنتم أيها الناس لتتفعوا بها، وفي هذا النص دليل على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة من استعمالها حتى يقوم دليل على حرمتها، وقد أكد القرآن على ذلك بقوله ﴿جَمِيعًا﴾.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ والمراد من استوائه - تعالى - إلى السماء إقباله عليها بإرادته ليخلقها بغير صارفٍ يصرفه عن ذلك أو بمعنى علا إليها وارتفع من غير تكييف ولا تحديد ولا تشبيه مع كمال التنزيه عن مشابهة أحد ﴿فَسَوَّاهُنَّ

سَبْعَ سَمَواتٍ ﴿٢٨﴾ ومعنى تسوية الله تعالى للسماءات السبع تدبير خلقهن وتقويمه لهن مصونات من النقص والخلل ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي أن علم الله شامل لكل ما في الكون لا يخفى عليه شيء.

ولكن ما المراد بالسماءات السبع؟ ليس هناك رأي جازم بحقيقة السماءات السبع، ولذلك يرى بعض العلماء أن نسلم الأمر لله ونؤمن بأن هناك سبع سماءات كما جاء في القرآن وإن كنا لا ندري كنهها. وهناك من ذهب في تفسير ذلك بأن الغلاف الجوي للأرض مُكوّن من سبع سماءات أي سبع طبقات، والسماء في اللغة هي كل ما علاك فأظلك من سقف أو غيره، كما تطلق على الفضاء الواسع هذه القبة الزرقاء.

وهناك رأي جدير بالملاحظة كما ذهب كثير من المفسرين وهو أن المراد بالسماءات السبع الكواكب السبعة السيّارة في مجموعتنا الشمسية وهي الكواكب الآتية: عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون، أما كوكب بلوتو الذي اكتُشف حديثاً فأقوى النظريات الحديثة لا تعتبره من مجموعتنا الشمسية إذ إن خصائصه تختلف عن بقية الكواكب في المجموعة الشمسية كما أن هذا الكوكب لا يُرى إلا بواسطة التلسكوب لبعده الشاسع.

ومما يؤيد ذلك أن الله لفت أنظار العرب إليها في زمن نزول القرآن وأنها كانت مرئية لهم كما جاء في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَواتٍ طَباقاً<sup>(١)</sup> . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ [نوح: ١٥ - ١٦]،

(١) طباقاً: جاء في لسان العرب تطابق الشيئان: تساويا، والمطابقة: الموافقة، وطابقتُ بين الشيئين: جعلتهما على حدٍ واحد. فالكواكب السيارة تتوافق من حيث دورانها حول الشمس وتكوينها الجيولوجي مع بعضها البعض.



واقتران ذكر الشمس والقمر ضمن هذه الكواكب السيّارة يدلّ على أن المُراد بالسماءات السبع هذه الكواكب السيّارة التي مر ذكرها في مجموعتنا الشمسية .

ودليل آخر على ذلك ما نص عليه القرآن من أن طبيعة هذه الكواكب تشبه طبيعة الأرض كما جاء في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وهناك من المفسرين من قال إن كلمة سبع سماوات لا يراد بها العدد المحدود المذكور إنما يراد بها الكثرة من الأعداد كما ورد في بعض آيات القرآن ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان : ٢٧] . ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة : ٨٠] . فالسبع والسبعون يراد بها الكثرة ولا يراد بها عدد محدود .

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أي واذكر يا محمد وقت أن قال الله للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وجاعل بمعنى خالق، أي إني خالق في الأرض خليفة يخلفني في تنفيذ أحكامي فأمكنه من الأرض وأجعله صاحب سلطان فيها وهو آدم وذريته . وقد استخلفهم الله في عمارة الأرض بما ميّزهم على سائر المخلوقات من المواهب والعقل ، وبما سخّر لهم ما في السماوات والأرض ، وبما أنزل عليهم من الشرائع الإلهية والأحكام ليحكموا فيها وينفذوا إرادة الله في خلقه .

كما أن كلمة الخليفة تأتي بمعنى الخالف لمن كان قبله ، أي أن آدم وذريته خلفوا من سبقهم في عمارة الأرض ، ولهذا قالت الملائكة عندئذٍ : ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وهذا مما يشعر بأنه كان في

الأرض صنف أو أكثر من نوع الحيوان<sup>(١)</sup> وأنه أفسد في الأرض وسَفَكَ الدماء، أو أن الملائكة قالوا ذلك لِعِلْمٍ قد علموه من اللَّهِ سبحانه بوجه من الوجوه. والفساد: ضد الصلاح، وسفك الدماء حصول التقاتل بينهم مما يؤدي إلى إسالة الدماء.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على اللَّهِ ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه البعض، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك.

وتابع الملائكة قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ وأصل التسبيح في كلام العرب التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم، فيكون المعنى: ونحن ننزهك عن كل سوء ونقيصة. والحمد: الثناء، أي نُسبح لك حامدين لك، ومتلبسين بحمدك، والتقديس: التطهير، أي نُطَهِّرُكَ يا رب عن النقائص وعن كل ما لا يليق بك من سوء أو بمعنى: نُظهر قلوبنا عن الالتفات إلى غيرك حتى نصير مستغرقة في أنوار معرفتك.

وقد ردَّ اللَّهُ على الملائكة بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي أَغْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إني أعلم ما لا تعلمون من الدواعي والأسباب من جعل آدم خليفة في الأرض حيث جعلت في ذريته الصلاحية لعمارة الأرض وجعلت فيهم الأنبياء والصالحين الذين يخصّصوني بالعبادة ولا يضير أن بعضهم مُفسد، سَفَاكَ للدماء.

(١) علم الأنثروبولوجيا يقرر أن الأرض سكنها أنواع شتى من المخلوقات القريبة الشبه من البشر قبل آدم معتمداً على تحليل وفحص الجماجم والعظام المتحجرة التي وجدت في أنحاء المعمورة والتي قدر العلماء أن بعضها يرجع عمره إلى مليون سنة وبعضها إلى ثلاثة أرباع المليون والبعض الآخر إلى ١٣٠ ألف سنة. وليس معنى ذلك أن هناك إنساناً كان قبل آدم فأدم هو أول البشر على سطح الأرض.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ قَالَ يَتَّادُمُ أَنْبِئَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

### شرح المفردات

وعلم آدم الأسماء كلها: ألهمه الله معرفة ذوات الأشياء التي خلقها ومعرفة أسمائها ومنافعها.  
عرضهم: عرض الشيء: إظهاره وإبانه.  
أنبئوني: أخبروني.  
سبحانك: ننزهك عما لا يليق بك.  
أعلم غيب السموات والأرض: أعلم ما غاب في السماوات والأرض عنكم.  
ما تبدون: ما تظهرون من الأفعال والأقوال.  
تكتمون: تخفون.  
اسجدوا لآدم: حيوه بالانحناء.

### قصة آدم مع الملائكة

ثم يبين الله جانباً من علوم الغيب وذلك في قصة آدم مع الملائكة ليثبت بذلك صحة نبوة محمد ﷺ وأن القرآن وحي إلهي. ومن المعلوم أن محمداً كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يصاحب أخبار اليهود، كما أن هذه الأخبار الغيبية



تختلف في جوهرها عما جاء في التوراة، قال الله تعالى:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي علّم الله آدم أسماء كل الأشياء من جميع المخلوقات دقيقها وجليلها، والأسماء جمع اسم، والاسم ما يكون علامة على الشيء، وتأکید الأسماء بلفظ كلها ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ يدلّ على أنه علّمه أسماء كل ما خلق الله من المخلوقات من إنسان وحيوان ودابة وطيور وغير ذلك، ويصحّ حمل الأسماء على معرفة ذوات الأشياء، ومعرفة ما يخصها من المنافع والمضارّ.

يقول الشيخ متولي الشعراوي في تفسيره: «والعجيب أن الطريقة التي علّم الله سبحانه وتعالى آدم بها هي الطريقة نفسها التي تتبعها البشرية إلى يومنا هذا، فأنت لا تعلّم الطفل بأن تقصّ عليه الأفعال، ولكن لا بد أن تبدأ تعليمه بالأسماء والمُسَمَّيات تقول له: هذا كوب، وهذا جبل، وهذا بحر، وهذه شمس، وهذا قمر، وبعد أن يتعلّم المُسَمَّيات يستطيع أن يعرف الأفعال ويتقدم في التعليم بعد ذلك».

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ أي ثم عرض الله المُسَمَّيات المدلول عليها بالأسماء على الملائكة ﴿فَقَالَ أَتَبْشُرُونَ بِأَسْمَاءٍ هَؤُلَاءِ﴾ أي قال الله تبكيتاً لهم وإظهاراً لعجزهم: أخبروني بأسماء هؤلاء ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في زعمكم أنكم أحقّ من آدم بالخلافة في الأرض.

ولكن الملائكة عجزوا واعترفوا بجهلهم عن العلم بهذه الأسماء قائلين: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ أي نُنْزِهْكَ يَا رَبَّ التَّنْزِيهِ اللَّائِقَ بِكَ، فلا يمكن أن تخلو أفعالك من الحكمة، وما كان سؤالنا إلاّ لتعلم ونعرف الحكمة من استخلافك آدم في الأرض، وإننا لا نعلم أي شيء إلا ما علّمنا إياه

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ العليم والحكيم: من صيغ المبالغة في اللغة، أي إنك يا رب عليم بكل شيء، ذو الحكمة الشاملة في تدبير خلقك.

ثم وجه الله الخطاب لآدم:

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي أخبرهم يا آدم بأسماء هذه المسميات التي عجزوا عن معرفتها ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فلما أخبرهم آدم بأسماء المسميات التي فاتتهم معرفتها ظهر لهم فضل آدم عليهم، عندئذ خاطب الله الملائكة بقوله: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي ألم أقول لكم إني أعلم ما غاب عنكم في السماوات والأرض وأعلم ما تظهرونه وما كنتم تخفونه في أنفسكم من أنكم أفضل من آدم وأحق منه بالخلافة؟

ثم بيّن الله ما خصّ آدم من تفضيل وإكرام على غيره من المخلوقات:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي واذكر يا محمد حين قلنا للملائكة اخضعوا لآدم تحية له وإقراراً بفضله. والسجود في اللغة: الخضوع والتذلل، وسجود الملائكة لآدم كان على وجه التحية والتكريم والتعظيم. وقد يكون السجود بانحناء كالركوع. والسجود في عرف الشريعة الإسلامية وضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة وليس السجود لآدم عبادة لأن عبادة غير الله هي الشرك وهو أعظم الآثام.

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ فسجد الملائكة جميعاً لآدم باستثناء إبليس فإنه امتنع عن فعل ما أمره الله تكبراً واستعلاء عن السجود لآدم، وقد بين القرآن في موضع آخر ما قاله إبليس لربه مُبَيَّنّاً سبب امتناعه عن السجود: ﴿قَالَ

أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ [ص: ٧٦] وقال إبليس أيضاً ﴿إِنِّي أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] .

وإبليس<sup>(١)</sup> ليس من الملائكة بل كان من الجنّ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا ابْنُ آدَمَ أَبَوِ الْبَشَرِ ثُمَّ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَهُمْ خَاصِيَّةٌ يُعْرَفُونَ بِهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، وإبليس قد عصى ربه وهذا يعني أنه ليس من الملائكة، كما أن إبليس خُلِقَ من نارٍ بينما الملائكة خُلِقَت من نور.

ويختتم الله الكلام عن إبليس بقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي صار بسبب عصيانه لأمر ربه واستكباره من الكافرين بالله، الجاحدين لنعمه، البعيدين عن رحمته.



(١) إبليس: مشتق من الإبلّاس وهو اليأس من رحمة الله، ولم ينصرف لأنه معرفة، ولا نظير له في الأسماء فشبهه بالأسماء الأعجمية التي تمنع من الصرف.



﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

### شرح المفردات

رَغَدًا: أكلًا هنيئًا وافرًا بلا عناء.  
فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ: فأوقعهما الشيطان في الزلل والخطيئة وأبعدهما عن الجنة.  
اهْبِطُوا: الهبوط هو النزول من أعلى إلى أسفل.  
مُسْتَقَرٌّ: مكان تستقرون فيه.  
ومتاعٌ إلى حين: وما تتمتعون به من خيرات الأرض وتنتفعون به إلى وقت انقضاء آجالكم.  
كلمات: هي كلمات التوبة والاستغفار التي ألهمه الله أن يدعُو بها.  
فتاب عليه: قَبِلَ الله توبته.

### غواية الشيطان لآدم

ويتابع القرآن فيذكر غواية الشيطان لآدم واستجابة آدم له مما سبب له الخسران:

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ فاللَّهُ سبحانه تحدث عن نفسه بصيغة الجمع تعظيمًا لقدره لأنه ملك الملوك حيث أمر آدم أن يتخذ الجنة مأوى

ومنزلاً ومسكناً مع زوجته. والزوج كما جاء في الآية هي حواء. ويُطلق لفظ الزوج على الرجل والمرأة. والجَنَّة في اللغة: هي كل بستان ذي شجر متكاثف ملتفت الأغصان يظلل ما تحته.

وقد اختلف العلماء في الجنة التي أسكنها الله لآدم، هل هي في السماء أم في الأرض؟ فذهب جمهور من العلماء إلى أنها في السماء وهي جنة الخلد، أي دار النعيم التي وعد الله بها المتقين في الآخرة.

وتابع الله قوله لآدم وزوجه ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ والرَّغْدُ: الواسع الهنيء، أي كُلا من ثمر الجنة أكلاً واسعاً هنيئاً من أي مكان شئتما من الجنة، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ القرب: الدُّنُو، وجاء لفظ ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ عوضاً عن لفظ الأكل للمبالغة في النهي عن الأكل منها، إذ في النهي عن القرب من الشيء المأكول ما يمنع الأكل منه، وبالأخص إذا كان في هيئته مما يغري بالأكل منه ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ المراد من ظُلمهما ظلم نفسيهما بالأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها مما سبب لهما الحرمان من النعيم الذي كانا يعيشان في الجنة.

وهنا سؤال: ما نوع هذه الشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها؟ لقد ذكر المفسرون في تعيينها أقوالاً شتى، يقول الطبري في تفسيره: «ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا في السنة الصحيحة.. وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها».

ثم بيّن القرآن الحالة التي وصل إليها آدم وحواء بعد أن عصيا ربهما وأكلا من ثمر الشجرة التي نهاهما الله عنها:

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي أغوى الشيطان آدم وحواء فوقعا في الزلل

وهو الخطأ والذنب بسبب وسوسته لهما للأكل من الشجرة فأكلا منها، وهناك قراءة ﴿فَأَزَالَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي أبعدهما الشيطان عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ والتعبير عن الجنة وما فيها من نعيم بقوله تعالى ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أبلغ من تعداد النعم التي كانا يتنعمان فيها، فإن من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يُعَبَّرَ عنه بلفظ مبهم لتذهب نفس السامع في تصور عظمتة وكماله إلى أقصى ما يمكنها تخيُّله.

وقد يقال: كيف تَوَصَّلَ إبليس إلى إغواء آدم وحواء بالوسوسة وهما في الجنة بعد أن قيل له كما في سورة الحجر ﴿فَأَخْرَجَ مِنْهَا فِرْعَانَكَ رَجِيمًا﴾ [آية: ٣٤]؟ قيل في ذلك إنما منع من الدخول إلى الجنة على وجه التكرمة كما يدخلها الملائكة، ولم يمنع من الدخول للوسوسة ابتلاء لآدم وحواء، وقيل: إنه خلص إلى آدم وزوجه بالسلطان الذي جعله الله له ليتلي به آدم وذريته.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ والخطاب لآدم وحواء وإبليس، والمعنى: انزلوا من الجنة وانتقلوا منها إلى الأرض حيث يكون بعضكم عدواً للآخر بما أودع الله فيكم من غرائز بعضها للخير وبعضها للشر استغلها الشيطان بوساوسه وأثار العداوة بينكم. وها نحن نرى العداوة متأصلة بين الأمم والجماعات والأسر والأفراد بتأثير وساوس الشيطان.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي لكم في الأرض موضع استقرار وتمتع بالعيش فيها إلى وقت انتهاء آجالكم بالموت. ومن كان على ذكر دائم من أن استقراره في الأرض وتمتعه بنعيمها سينتهي يوماً ما بالموت فشأنه أن يسارع إلى العمل الصالح ويكف عن الظلم والخطايا التي سيعاقب عليها يوم القيامة.



﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ وتلقي آدم للكلمات هو أخذه لها، وقبوله لما فيها، وعمله بها حين أوحاها الله إليه، وأظهر ما قيل في تعيين هذه الكلمات هي ما أشار الله إليه بقوله على لسان آدم وحواء: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ التوبة في أصل اللغة: الرجوع، والتوبة من الله: الرجوع على عبده بالرحمة والتوفيق، والتوبة من العبد: الرجوع عن المعصية، والندم على الذنب، مع تركه للذنب فيما يستأنف من الزمان ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ التواب والرحيم من صيغ المبالغة، أي أن الله كثير القبول للتوبة من عباده عظيم الرحمة بهم، وهذا يفيد أن الإنسان قد تتكرر منه المعصية ولكن الله يقول لمثل هذا المذنب: ارجع إلي بالطاعة ولا تيأس من رحمتي فأنا أقبل توبتك ولو تكررت معصيتك.

والتوبة التي شرعها الله هي رحمة بالناس، فالإنسان إذا عصى ربه وعرف أنه لا توبة لذنوبه ولا غفران لها وأنه محكوم عليه بالعذاب في الآخرة جزاء ما فعل لا ريب أن ذلك يؤدي به إلى التماذي في عصيانه لله بسبب قنوطه من رحمة الله.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً﴾ كرر الله الأمر لآدم وحواء وما سَيِّئَ شَأْنُهُمَا من ذرية بالنزول إلى الأرض ليبين لهم ما سياترتب عليهم من واجبات ﴿فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ فإذا يأتينكم مني إرشاد إلى الدين الحق بواسطة رُسُلِي الذين يُبَلِّغُونَكُمْ شَرِيعَتِي ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فمن عمل منكم بإرشاداتي وأطاع رُسُلِي فهم آمنون يوم القيامة من أن يلحقهم مكروه ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا فنعيم الجنة ينسيهم ذلك ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ والذين جحدوا آيات القرآن وكذبوا بأنها

مُرْسَلَةٌ مِنْ عِنْدِي أَوْ جَحَدُوا الْأَدْلَةَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِي وَرَبُّوبِيَّتِي لِهَذَا الْكَوْنِ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أَيُّ أُولَئِكَ مُصِيرُهُمْ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا.



﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَارْهَبُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ﴿٤٣﴾.

### شرح المفردات

إسرائيل: هو لقب النبي يعقوب عليه السلام جد بني إسرائيل.  
وأوفوا بعهدي: أدوا التكاليف التي عاهدت إليكم بها.  
أوف بعهدكم: أعطكم ثوابي الذي عاهدتكم عليه وافيًا.  
فارهبون: فخافون.  
بما أنزلت: أي بالقرآن الذي أنزلته.  
مصدقًا لما معكم: أي مصدقًا للتوراة.  
ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلًا: ولا تجعلوا بدلًا من العمل بآياتي منافع الدنيا وملذاتها فإنها قليلة.  
ولا تلبسوا: ولا تخلطوا.

### دعوة بني إسرائيل إلى الإسلام

وبعد أن بين الله نعمته على البشر ومن بينها خلق آدم وإظهار فضله على الملائكة بما أوتي من علم، شرع يُبين فضله على بني إسرائيل بقوله:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وإسرائيل: هو لقب النبي يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. ولفظ إسرائيل مؤلف من كلمتين: إسرا ومعناه باللغة العبرية: عبد، وإيل: هو اسم الله تعالى، فيكون معنى إسرائيل: عبد الله.

وَمُنَادَاةُ الْيَهُودِ بِلِقَبِ ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ تذكيرٌ لهم بأن نسبهم يرجع إلى أصلٍ طيّب، ولتكون مُنَادَاتُهُمْ بِذَلِكَ حثًّا لهم إلى الإقبال على ما يأتي بعد هذا النداء من وصايا لهم يجب عليهم اتباعها.

فَاللَّهُ سَبِّحَانَهُ يَذْكُرُهُمْ بِنِعْمِهِ عَلَيْهِمْ لَشُكْرِهِ وَاتِّبَاعِ هَدْيِهِ، وَمِنْ هَذِهِ النِّعَمِ إِرْسَالُ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ وَإِنْقَاذُهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْاضْطِهَادِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَتَمَكِينُهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَتَظْلِيلُ الْغَمَامِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي صَحْرَاءٍ تَتِيهِ وَإِنْزَالُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى عَلَيْهِمْ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ.

وإنما ذكر الله بني إسرائيل بالنعم التي كانت لأبائهم لأن أثرها واصل إليهم وفضلها عائد عليهم.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ والوفاء بعهد الله يكون باتِّباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

ويندرج في هذا العهد ما أخذه الله على بني إسرائيل في التوراة من وجوب اتِّباع الرسول محمد ﷺ عندما يبعثه الله نبياً وتصديقه فيما يخبر به عن ربه ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي أن الله يفي بما عاهدكم عليه من النصر على الأعداء إذا وفوا بعهد الله ﴿وَلِيَّائِي فَارْهَبُونِ﴾ أي ولتكن قلوبكم عامرة بخشية الله فإنها داعية إلى طاعته فيما يأمر به وينهى عنه، وتقديم الضمير ﴿لِيَّائِي﴾ على الفعل ﴿فَارْهَبُونِ﴾ يفيد الحصر بمعنى: لا تخشوا أحداً غير الله.



﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ وَصَدَّقُوا - يا بني إسرائيل - بالكتاب المُنَزَّل على محمد وهو القرآن فإنه مصدّق لما بين أيديكم من التوراة بما فيها من الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي، وما جاء في التوراة خلاف ذلك من وصف الأنبياء بالمنكرات من الأفعال فهو من تحريف كتاب الله. ويدخل في تصديق القرآن للتوراة إعلانه بما جاء فيها من البشارات على مجيء نبيّ تنطبق صفاته على صفات النبي محمد مطابقة جليّة وإن ما أعلنه القرآن بأنه مصدّق للتوراة يشير اهتمام بني إسرائيل ويدعوهم إلى دراسة القرآن وتدبر آياته، وهذا يهيئ نفوسهم إلى اعتناق الإسلام لما يجدون فيه من الحقائق والبراهين القوية على أنه مُنزل من عند الله.

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ ولا تكونوا أيها اليهود أوّل المبادرين إلى الكُفر بالنبي محمد بعد المشركين من العرب، بل ينبغي أن تكونوا أوّل المؤمنين به لما عرفتم من صفاته التي تنطبق على النبي التي وعدتكم التوراة بمجيئه.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال، والآيات: هي الدلائل التي أيّد الله بها رسوله مُحَمَّدًا ﷺ وأعظمها القرآن، أو الآيات المنزلة عليهم في التوراة والإنجيل المتضمنة الأمر بالإيمان برسول الله محمد ﷺ، والتمن القليل: هو ما كان رؤسائهم وأحبارهم يحرصون عليه من الرياسة والمال والجاه التي يخافون ضياعها وفقدانها لو اتبعوا الرسول محمدًا ﷺ، وإنما وصف الله الثمن بالقلة لأن متاع الدنيا قليل وزائل فلا يدوم ﴿وإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ وتقديم الضمير ﴿إِنِّي﴾ على الفعل يفيد الحصر بأن يخافوا الله وحده ويتقوا عقابه بطاعته وترك عصيانه.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ أي لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق

بالكذب فخلط الحق بالباطل هو ترويج للباطل في صورة الحق كأن يكتبوا في التوراة ما ليس فيها، فيختلط الحق المنزل من عند الله بالباطل الذي كتبوه بأيديهم ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ أي لا تكتُموا ما عندكم من المعرفة بأن محمداً رسول الله الذي تجدون صفته ونعته في التوراة والإنجيل ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون أن ما جاء به من الوحي هو من عند ربه وأنه رسول الله إلى الناس جميعاً، فكتمانهم كان عن عمد وإصرار بقصد صرف الناس عن اتباع الرسول محمد ﷺ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وإقامة الصلاة أداؤها مستوفية لأركانها وشروطها، مع التوجه إلى الله بالقلب والخشوع له، والإخلاص في العبادة، والمراد بالصلاة: الصلاة التي يقيمها المسلمون ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ والإيتاء: الإعطاء، والزكاة المُراد بها الصدقة المفروضة، وأصل معنى الزكاة في اللغة: النماء والزيادة والظَّهارة، وسُمي إخراج المال للفقراء زكاة من حيث إنه ينمي مال المزكي فتكثر بركته ويرفع الله البلاء عنه، كما أن الزكاة تطهر المزكي من الذنوب.

﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ والركوع في اللغة: الانحناء، وهو في عرف الإسلام أن يخفض المصلي رأسه ويمد ظهره وعنقه ويقبض على ركبتيه، والركوع كناية عن الصلاة من باب إطلاق اسم الجزء على الكل لأن الركوع رُكْنٌ من أركان الصلاة عند المسلمين، وبما أن اليهود لا ركوع في صلاتهم، لذا خصَّ الله الركوع بالذكر حثاً لبني إسرائيل على الإتيان بصلاة المسلمين. وفي قوله سبحانه ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ حثٌ على إقامة الصلاة جماعة. ويأتي الركوع بمعنى الخضوع لله بالطاعة.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُنَّ مِنَ الْكَثْبَةِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ .

### شرح المفردات

الْبِرُّ: اسمٌ يتناول كل عمل من أعمال الخير .  
تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ: تتركون العمل بما تدعون الناس إليه من طاعة الله .  
لَكَبِيرَةٌ: لثقيلة وشاقة .  
الْخَاشِعِينَ: الخشوع لله هو الخضوع والاستكانة له .  
يَظُنُّونَ: يعلمون ويوقنون .

### توجيهات لخير الإنسان

وبعد أن ذكّر الله بني إسرائيل بنعمه عليهم وأنكر عليهم كفرهم، جاء التوبيخ لأخبارهم حيث كان سلوكهم يُنافي ما يدعون الناس إليه من البرّ، قال تعالى مخاطباً إياهم:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ والبرّ: كما جاء في لسان العرب، الصدق والخير والصلاح والطاعة، وفلان يبرّ ربه أي يطيعه . ومعنى ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ والنسيان هنا: الترك، لأن أحداً لا ينسى نفسه . والاستفهام في الآية توبيخ موجه إلى أخبارهم بسبب تركهم العمل بما يرشدون الناس إليه من أعمال البرّ، فقد كانوا يحضّون الناس على طاعة الله وكانوا هم يقتربون المعاصي .

وتابع الله مخاطباً إياهم: ﴿وَأَنْتُمْ تَكُنُونَ مِنَ الْكَثْبَةِ﴾ والحال أنكم أيها



الأخبار تقرأون كتاب التوراة وتدرسونه وتتعلمون ما فيه من الحث على أفعال البر، والتحذير من تركه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي ألا تستعملون عقولكم وتدركون قُبْحَ فعلتكم هذه التي تنافي ما تدعون الناس إليه؟ وهل من العقل أن ينصح الإنسان غيره ويدعوه إلى طاعة الله ثم يترك نفسه في أحوال الرذيلة والمنكرات؟

والخطاب وإن كان لأخبار بني إسرائيل، فهو يشمل كل من يفعل فعلهم من الوُعَاظ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل واعظ يأمر الناس بالبر ولا يعمل بما يقول ينطبق عليه هذا التوبيخ من الله تعالى.

وتجدر الإشارة إلى أن الواعظ الذي يدعو الناس إلى البر لا بد وأن يكون قُدوة للناس في فعل الخير، لأن من يفعل المنكرات ثم يدعو الناس إلى تركها فإنه يكون بذلك قُدوة سوء. ولنا درس من النبي شعيب عليه السلام حيث قال لقومه ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

وقد قال أحد الحكماء:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ والاستعانة: طلب المعونة. والصبر: حَبْسُ النفس عن الشهوات وكفّها عن هواها، واحتمال مكاره الحياة ومصائبها بنوع من الرضا والتسليم لأمر الله.

والآية تدعو إلى الاستعانة بالصبر لأن كل خصال الخير تنشأ عن الصبر، وهو الدعامة الأولى للتغلب على مشاق الحياة ومصائبها، والفوز بكل ما يطمح إليه الإنسان.

كما دعا الله إلى الاستعانة بالصلاة لأنها تعين على النهوض بالأعمال

الجليلة، ففي الصلاة يناجي الإنسان ربه ويطلب العون والهداية منه ويذكر جلاله وعظمته ورحمته وفضله، ويذكر أنه سبحانه يُراقبه ويُحصي أعماله.

واللافت للنظر اقتران الصلاة بالصبر، فإذا كان الصبر بمثابة أم الفضائل لأنه استفراغ كل الجهد في سبيل تحمّل المشاق والمصائب، فإن الصلاة عامل قوي لإشاعة الطمأنينة في النفس وتقوية معنوياتها من جرّاء مُناجاة الله وذكره، وقد جاء في القرآن ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد يكون وقع المصيبة على النفس أقوى مما تستطيع تحمّله ويكون الصبر وحده لا يفي بالغرض لذا كانت الصلاة متممة لما تعجز النفس عن تحمّله، ولهذا روي «أن النبي ﷺ إذا حزبه أمر - أي أصابه غم - لجأ إلى الصلاة»<sup>(١)</sup>.

﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ لكبيرة: أي إن الصلاة ثقيلة وشاقة إلا على الخاشعين لله. والخشوع: التواضع والتذل والاستكانة.

وقيل: الخشوع حالة في النفس يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع. والمعنى: إن الصلاة صعبة وشاقة على من لا يخشع قلبه في صلاته لربه وهذا ينطبق على من لا يعتقد أن في فعلها ثواباً ولا في تركها عقاباً.

فالخشوع لله في الصلاة يجعل الإنسان يستحضر عظمة الخالق وجلاله ويدرك ضآلة نفسه وعجزها، فيسلم أمره إليه تعالى، ويخضع لكل ما يقدره عليه من مصائب.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ والظن هنا بمعنى اليقين والعلم، أي إن الصلاة صعبة إلا على الذين يخشعون لله ويوقنون أنهم سيحشرون إليه يوم القيامة لمجازتهم على أعمالهم ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ويعلمون أنهم إلى ربهم راجعون بعد مماتهم.

(١) أخرجه الإمام أحمد.

فما دُمْتَ أيها الإنسان قد جئت إلى الدنيا مخلوقاً من الله، فأنت لا محالة سترجع إليه بعد الموت لتنال ما تستحق من جزاء يوم القيامة على أعمالك في الدنيا إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر.



﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ نَظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

### شرح المفردات

على العالمين: على جميع الناس الذين كانوا في زمانهم.  
لا تجزي: لا تُغني، لا تقضي.  
عدل: فدية.  
يسومونكم: يذيقونكم.  
ويستحيون نساءكم: يتركون بناتكم ونساءكم أحياء للخدمة فلا يقتلوهن.  
بلاء: ابتلاء.  
فرقنا بكم البحر: فصلنا لأجلكم البحر بعضه عن بعض وجعلنا فيه طرقاً لتعبروها.

### فضل الله على بني إسرائيل

ثم يُذَكِّرُ الله تعالى بني إسرائيل بنعمه التي أسبغها عليهم محذراً إياهم من عذاب يوم القيامة إذا عصوا أمره وخرجوا عن طاعته، قال تعالى:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ هذا النداء من الله لبني إسرائيل لتذكيرهم بنعمته عليهم حثاً لهم على القيام بواجب الشكر والطاعة لربهم على ما أولاهم من النعم التي سيأتي ذكرها فيما بعد ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي فَضَّلْتُ أسلافكم وآباءكم على أهل زمانهم، وكان هذا التفضيل لآبائهم لأنهم كانوا أصحاب دين سماوي وغيرهم من الأمم كانوا يعبدون الأصنام. وعلى هذا فلا يتناول هذا التفضيل مَنْ مضى قبلهم ولا من سيوجد بعدهم، وهذا التفضيل وإن كان في حق الآباء، ولكن يحصل به الشرف للأبناء فلا يجدر بهم أن يُضَيَّعُوا هذا الشرف بعصيان الله.

وبهذا لا يفهم من ذلك تفضيلهم على أمة محمد إذ قد أعلن القرآن بأن المسلمين هم خير أمة أخرجت للناس عندما قامت بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله تعالى مخاطباً أمة محمد ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثم يُحذِّرُ الله بني إسرائيل من العقاب لهم يوم القيامة بقوله:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ اتقوا: احذروا، واليوم: هو يوم القيامة، والحدِّثُ من هذا اليوم وما يجري فيه من فزع وعذاب يكون بالسير على صراط الله المستقيم ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ لا تجزي: لا تقضي، أي لا تقضي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً من الحقوق أو شيئاً من الجزاء ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ وقد كان يهود بني إسرائيل يقولون: نحن أبناء الله وأحبَّاءُ وأولاد أنبيائه وسيشفع آبؤنا لنا عند الله، فأخبرهم الله أنه لا يقبل منهم شفاعاة لمن مات على كفره غير تائب إلى الله عز وجل. فالآية نفت الشفاعاة للذين كفروا برَّبِّهم، أما الشفاعاة للمؤمنين المُقَصِّرِينَ في واجباتهم الدينية فتقبل إذا أذن الله ورضي للشافعين أن يقوموا بشفاعتهم كما جاء في القرآن: ﴿... مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ...﴾ [يونس: ٣].



فقد روي عن النبي ﷺ: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»<sup>(١)</sup> كما روي عن النبي ﷺ أيضاً قوله: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ»<sup>(٢)</sup> مِنْ أُمَّتِي»<sup>(٣)</sup>.

ويتابع القرآن قوله في الكافرين ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ والعَدْلُ: الفدية. أي لا يؤخذ من أحدٍ فدية بدلاً من كفره، بالغاً البذل ما بلغ من القيمة كما قال تعالى في موضع آخر من القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١].

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ والنصر: يراد به المعونة، أي لا يستطيع أحدٌ أن يُقدِّمَ لهم المعونة للتخلص من العذاب المحقق بهم.

﴿وَإِذْ<sup>(٤)</sup> نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وفرعون لقب يطلق على كل ملك من ملوك مصر قديماً والمعنى: واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن خلصناكم من ظلم فرعون وأعدائه، لقد خوطب بنو إسرائيل بهذه النعمة مع أن هذا الإنجاء كان لأسلافهم وأجدادهم، ولو استمر عذاب فرعون لهم لأفناهم عن بكرة أبيهم.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يذيقونهم أشدَّ العذاب وأفظعه ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ يذبحون: بتشديد الباء الذي يدل على كثرة الذبح الذي هو إزهاق الروح عن طريق قطع شريان الحلق، والأبناء: المراد بهم الأطفال الذكور ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ والاستحياء: الاستبقاء أحياء، أي يُيقون بناتكم أحياء

(١) أخرجه البخاري.

(٢) الكبائر: أي كبائر الذنوب مثل الشرك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور وغيرها.

(٣) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وأبو دواد.

(٤) إذ: بمعنى وقت فهي مفعول به لفعل ملاحظ في نظم الكلام وهو (واذكروا).

عند الولادة فلا يقتلوهم، وأطلق اسم النساء على البنات لأنهن يصرن نساء، وغايتهم من تركهن أحياء هي الخدمة لهم عندما يكبرن وللمتعة كذلك ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفي قتل الذكور واستحياء النساء بلاء عظيم، والبلاء: هو الاختبار والامتحان، وقد يكون بالضراء ليصبروا أو ليقنعوا عما هم عليه من المعاصي، وقد يكون بالسراء ليشكروا ربهم، كما فسّر البلاء هنا بالمحنة. ووصف البلاء بالعظم (عظيم) لأن تذبيح الأبناء وإبقاء البنات أحياء هو أعظم محنة تنزل بالأمة، فإن فناء الرجال يقتضي انقطاع النسل، وفساد مصالح النساء في أمر المعيشة.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ الفرق: الفصل، أي واذكروا يا بني إسرائيل حين فصلنا لكم البحر بين مياهه فصار فيه طُرقٌ فسيرتم فيها هرباً من فرعون وجُنده وبذلك تمت لكم النجاة من الهلاك على أيديهم ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ بينما أطبق الله البحر على فرعون وجنده وأغرقهم حينما ساروا خلفهم في طرق البحر ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ وأجدادكم يشاهدون غرقهم، ولا شيء يشفي غليل النفس مثل رؤية مصرع عدوها الذي يحاول قتلها.

فالآية تشير إلى قصة نجاة بني إسرائيل التي ذكرها القرآن في مواضع أخرى وسنذكر هنا ملخصها.

جاء الأمر الإلهي لموسى بالخروج من مصر فانطلق بقومه بني إسرائيل سراً في الليل قاصداً بلاد الشام. عَلِمَ فرعون أن موسى وقومه قد خرجوا من مصر فتبعهم بجيش كبير وأدركهم مع طلوع الشمس قرب ساحل البحر الأحمر. أيقن بنو إسرائيل بهلاكهم عندما رأوا طلائع جيش فرعون وراءهم واستولى الذعر على نفوسهم فقالوا لموسى: لقد لحق بنا فرعون ولا طاقة لنا به فماذا نفعل والبحر أمامنا؟ قال لهم موسى كما جاء في القرآن: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

[الشعراء : ٦٢] ، وفي هذه الأثناء أوحى الله إلى موسى ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء : ٦٣] ، ففعل ، فبقدره الله صار فيه اثنا عشر طريقاً يبساً على عدد أسباط بني إسرائيل ، ووقف الماء بين هذه الطرق كالجبل العالي ، فسار بنو إسرائيل في هذه الطرق المفتحة لهم في البحر حتى وصلوا إلى البر ، بينما كان فرعون وجنوده لا يزالون يسيرون خلف بني إسرائيل في طرق البحر ، عندئذٍ أمر الله البحر بأن يطبق عليهم فانطبق وأغرقهم جميعاً .



﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ .

### شرح الكلمات

وَعَدْنَا : وعده إياه ، وصيغة المواعدة تنبئ عن تراضي الواعد والموعود وتوافقهما .  
الفرقان : استعمل في القرآن بمعنى الحجة وبمعنى النصر ، واسماً للكتاب المنزل من عند الله .  
بارئكم : البارئ من أسماء الله تعالى ومعناه : الذي خلق الخلق .  
فاقتلوا أنفسكم : فليقتل البريء منكم المجرم .

جَهْرَةً: عياناً غير مستترٍ بشيء .  
بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ: أحييناكم بإعادة الروح إليكم.

### عبادة بني إسرائيل للعجل

ويتابع القرآن فيذكر فضل الله ورحمته على بني إسرائيل بالعفو عنهم بعد عبادتهم العجل، قال تعالى:

﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي واذكروا - يا بني إسرائيل - إذ وعد الله موسى بإعطائه التوراة بعد انقضاء أربعين ليلة يقضيها في التوجه إلى الله بالصيام والعبادة في جبل الطور، وقال ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لأن الشهر القمري يبدأ ليلة طلوع الهلال، ولهذا نجد العرب يؤرخون بالليالي. والمواعدة تفيد التوافق على الوعد بين اثنين: أي الوعد من جانب الله والاستجابة المقرونة بالشوق من جانب موسى وبيان ذلك: أنه لما عاد بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وعد الله موسى أن ينزل عليه التوراة وضرب له ميقاتاً - أي جعل الله له موعداً - وهو شهر ذي القعدة ثم زاد عليه عشر ليال من شهر ذي الحجة كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَوَاَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وبعد انتهاء أربعين ليلة قضاها موسى في العبادة أنزل الله عليه التوراة.

ثم يقول سبحانه ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ومعنى اتخذهم العجل: جعلهم له إلهاً يعبدونه. والمعنى: ثم اتخذتم يا بني إسرائيل العجل من بعد ذهاب موسى إلى جبل الطور لمناجاة ربه وأنتم ظالمون لأنفسكم بعبادة غير الله وذلك مما يسبب لكم الشقاء والخسران.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ والعفو: محو الذنب



وعدم المؤاخذه به . أي ثم عفونا عنكم إذ تبتم بعد عبادتكم العجل لتكونوا من الشاكرين على نعمة ارفعوا بالاستمرار على طاعة الله والعدول عن معصيته .

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ الكتاب : المراد به التوراة . والفرقان : هو الشرائع والأحكام التي تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام . ويصحح أن يُراد من الفرقان المعجزات التي أجراها الله على يدي موسى لأنها فرقت بين الحق والباطل ، حيث كان فيها نجاة بني إسرائيل وإهلاك فرعون وجنده . والمعنى : واذكروا إذ أعطينا موسى التوراة والشرائع والأحكام والمعجزات ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لتهتدوا بها إلى سبيل الفلاح في الدنيا والفوز بالسعادة في الآخرة .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ أي واذكروا وقت أن قال موسى لقومه : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم عندما عرضتموها لعقاب الله باتخاذكم العجل إلهاً فعبدتموه . وصدر موسى خطابه لهم بقوله : ﴿يَا قَوْمِ﴾ لِيُذَكِّرَهُمْ بأنه منهم وأنه لا يُريد بهم إلا خيراً ﴿فَتَوْبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ أمر موسى قومه بالتوبة وهي الرجوع عن ذنبهم والندم على ما فعلوا من معصية والعزم على عدم العودة إليها . و (البارئ) اسم من أسماء الله ومعناه : الخالق على غير مثال سابق الموجد للأشياء على ما تقتضيه الحكمة ، فهو سبحانه المستحق للعبادة ، وأما العجل فإنما يعبد من يشبهه في الغباوة ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي إن توبتكم تكون بأن يقتل البريء منكم المجرم بغية تطهير المجتمع من المشركين .

وهذا التعبير ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ جاء مثله في القرآن ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] بمعنى : فليسلم بعضكم على بعض . وقد ذكر المفسرون عدد الذين

قُتِلُوا وَكَانَ فِيهِ مَبَالِغَةٌ لَا يَرْتَضِيهَا الْعَقْلُ ، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَذْكُرْ عِدَدَ ذَلِكَ .

وَمِنَ الْمَفْسِرِينَ مَنْ فَسَّرَ الْقَتْلَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ وَهُوَ جَعَلَ النَّفْسَ كَالْمَقْتُولَةِ :  
بِمَزِيدِ الْغَمِّ وَالنَّدَمِ وَالْإِذْلَالِ أَوْ قَطَعَ الشَّهَوَاتِ .

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ أَيَّ إِن قَتَلَ أَنْفُسَكُمْ امْتِثَالًا لِّمَا أُمِرْتُمْ بِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ هَذَا النَّصُّ مَعْطُوفٌ عَلَى مَحْذُوفٍ وَكَأَنَّهُ قَالَ : فَفَعَلْتُمْ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ خَالِقَكُمْ ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ التَّوَّابُ وَالرَّحِيمُ صَيغَتَانِ مِنْ صَيَغِ الْمَبَالِغَةِ ، أَيَّ إِن اللَّهَ كَثِيرُ قَبُولِ التَّوْبَةِ مِنْ عِبَادِهِ عَلَى كَثَرَةِ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ مِنْ ذُنُوبٍ وَهُوَ دَائِمُ الرَّحْمَةِ أَوْ وَاسِعُهَا بِحَيْثُ يَشْمَلُ عِبَادَهُ بِإِحْسَانِهِ وَفَضْلِهِ .

ثُمَّ يُبَيِّنُ الْقُرْآنُ تَعَنَّتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخُرُوجَهُمْ عَنْ جَادَّةِ الْأَدَبِ مَعَ رَبِّهِمْ ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ لِمُوسَى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أَيَّ وَادْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَدْ قَالَ أَجْدَادُكُمْ لِمُوسَى : لَن نَصَدِّقَكَ وَلَن نُّقِرَّ بِمَا جِئْتَنَا بِهِ حَتَّى نَرَى اللَّهَ مَعَايِنَةً وَعِلَانِيَةً لَا سِتَارَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ .

وَفِي سِيَاقِ ذَلِكَ رُوي : أَنَّهُ لَمَّا تَابَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ عِبَادَةِ الْعَجَلِ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَمَرَ اللَّهُ مُوسَى أَنْ يَأْتِيَهُ فِي أَنْاسٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ عَلَى مَا اقْتَرَفُوا مِنْ عِبَادَةِ الْعَجَلِ ، فَاخْتَارَ مُوسَى مِنْهُمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ خِيَارِهِمْ فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى طُورِ سَيْنَاءَ لِمَوْعِدِ حَدِّدِهِ اللَّهَ لَهُمْ ، فَلَمَّا أَتَوْا ذَلِكَ الْمَكَانَ قَالُوا لِمُوسَى : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ إِيْمَانِهِمْ وَعَلَى تَمَرُّدِهِمْ وَقِلَّةِ اكْتِرَائِهِمْ بِمَا شَاهَدُوا مِنْ مَعْجَزَاتِ نَبِيِّهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

أمام هذا التمرد جاءهم العقاب الإلهي: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ  
تَنْظُرُونَ﴾ أي سقطت الصاعقة عليكم وأهلكتكم بنارها بسبب عنادكم وتعتكم  
وطلبكم المستحيل من ربكم. وفي قوله سبحانه ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ يفيد أن  
الصاعقة نزلت عليهم وهم يشاهدونها، وفي مشاهدتها رعب وفزع يأخذ  
بمجامع قلوبهم قبل أن يأخذ العذاب المهلك لأجسامهم. رأى موسى ما حل  
بقومه الذين كانوا معه فقام يبكي ويدعو الله ويقول: رَبِّ، ماذا أقول لبني  
إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم، رَبِّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي،  
أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا؟

استجاب الله دعاء موسى فأحياهم بعدما أماتهم كما قال تعالى في الآيات  
هنا ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ والْبَعْثُ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْإِيقَازِ مِنَ النَّوْمِ،  
كما يستعمل بمعنى الإحياء من الموت وهو المراد من الآية ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾  
أي لكي تشكروا نعمة الله ببعثكم أحياء بعد الموت. والشكر لله يكون بالعمل  
بما شرعه الله لهم حتى تغفر لهم جرائمهم.

وقال بعض العلماء: كان موتهم غشياناً وهموداً لا موتاً حقيقياً كما في قوله  
تعالى: ﴿... وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ...﴾ [إبراهيم: ١٧]،  
والمراد من البعث على هذا الرأي: إعادة النشاط والصحو لهم من بعد غيبتهم  
عن الوعي.



﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَّادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

### شرح المفردات

الْغَمَام: جمع غمامة وهي السحابة.

الْمَنَّ: مادة صمغية تنزل على ورق الشجر حلاوتها تشبه حلاوة العسل.

السَّلْوَى: طائر معروف بالسُّمَانِي.

رَغَدًا: واسعاً هنيئاً.

وقولوا حِطَّةً: أي قولوا شيئاً يحط ذنوبكم.

رِجْزاً: عذاباً.

يفسقون: يخرجون عن طاعة الله.

استسقى موسى: طلب من ربه الماء.

لا تَعَثُّوا: لا تُفسدوا ولا تطغوا.



### بعض المعجزات لبني إسرائيل

وبعد أن أحجم بنو إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة التي وعدهم الله بأن ينصرهم على سكانها وقالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، حينئذ أخبر الله موسى بأن الأرض المقدسة محرمة عليهم وأنهم سيتهون في الأرض في صحراء سيناء أربعين سنة جزاء خروجهم عن طاعة الله، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

وفي الآيات التالية يُذكر الله بني إسرائيل بما منَّ على آبائهم من النعم وهم في صحراء سيناء:

﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي جعلنا الغمام يظلكم في النهار ليقاكم حرَّ الشمس، والغمام هو السحاب ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ والمَنَّاء هو مادة صمخية تسقط على الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل. وقيل: هو شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، وقيل: المَنَّاء هو العسل. وقيل: هو ما منَّ الله به عليهم من غير تعب ولا زرع ومنه قول النبي ﷺ: «الكمأة من المَنَّاء الذي أنزل الله على بني إسرائيل»<sup>(١)</sup>. والسَّلْوَى: هو طائر السُّماني فيذبح الرجل منها ما يكفيه ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي قال الله لبني إسرائيل: كلوا من ملذات ما أنعمنا عليكم من الرزق ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي بتركهم شكر الله وإقبالهم على معصيته بأن كفروا بهذه النعم، أو بأن سألوا الله غير هذه النعم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكن سوء عاقبة ظلمهم يعود عليهم بعقاب الله على كفرهم في الدنيا والآخرة، فإن الله لا تضره المعصية له من خلقه كما لا تنفعه طاعتهم له.

(١) أخرجه ابن ماجه .

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ والقرية هي بيت المقدس، والظاهر أن الأمر بدخول القرية كان بوحي من الله إلى موسى بعد خروجهم من الصحراء التي تاهوا بها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي فكلوا من هذه القرية في أي مكان شئتم أكلاً هنيئاً ذا سعة بعد أن كان طعامكم مقصوراً في صحراء سيناء على المَنِّ والسلوى، وهذا معناه أن هذه القرية كانت ذات زروع وثمار ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ وادخلوا من باب القرية خاضعين متواضعين شكراً لله سبحانه على إخراجكم من الصحراء والإنعام عليكم بدخول الأرض المقدسة والاسترزاق منها ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ حِطَّةٌ: بمعنى ضع، أي وقولوا: يا ربَّ حُطَّ عنا ذُنوبنا، أو بمعنى: استغفروا ربكم وقولوا ما يحط ذنوبكم ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ الغَفْرُ في اللغة: التغطية والستر، أي نستركم سيئاتكم السابقة فلا نعاقبكم عليها ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ومعنى أحسن: فعل الحسن ضد أساء، والحسنة هي الفعل الحسن. والمحسن من صَحَّح عقيدته في وحدانية الله وأقبل على أداء فرائض الله وعمل كل خير يقربه من خالقه. فالله سبحانه وعد بزيادة ثواب المحسن، وقد جاء في القرآن: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي غير الذين ظلموا من بني إسرائيل القول الذي أمرهم الله به، فهم أمروا أن يقولوا قولاً دالاً على التوبة والندم فخالفوه إلى قول يحمل معنى الاستهزاء<sup>(١)</sup> ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ والرجز: هو العذاب، ولم يبين القرآن نوع هذا العذاب الذي سقط عليهم من السماء ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب خروجهم عن طاعة الله.

(١) روي أنهم قالوا حنطة بدل حط عن ذنوبنا، قالوا ذلك من باب الاستهزاء.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ استسقى: طلب السقيا، أي واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن أصاب آباءكم العطش وهم في صحراء سيناء، فاستغاث موسى بربه وطلب منه أن يمنّ على قومه بالماء ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ أي فأوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه حجراً من حجارة تلك الصحراء فضربه بها ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ انفجرت: انشقت، والعين: منبع الماء، أي خرج الماء بغزارة من اثني عشر مكاناً فيه، بعدد أسباط بني إسرائيل وهم ذرية أبناء النبي يعقوب عليه السلام الاثني عشر ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ علم: بمعنى عرف، أي عرف كل سبط العين التي صارت مشرباً لهم، وخصّ كل سبط بمشرب له منعاً لما عساه أن ينشب بينهم من التنازع على الماء. لقد أراد الله بهذه المعجزة أن يبين لهم صدق نبوة موسى وأن يزداد إيمانهم بالله الذي أرسله ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ أي قال الله لهم على لسان موسى بأن يأكلوا المن والسلوى ويشربوا من الماء الذي تفضل الله به عليهم ﴿وَلَا تَعَثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العثو: أشد الفساد، أي ولا تتمادوا فساداً في الأرض وتقابلوا النعم بالطغيان فيحرمكم الله منها.



﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ  
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا  
وَبَصِلِهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا  
مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ  
وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ  
وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ  
﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّبِيَّانَ مَن  
ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ  
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

### شرح المفردات

بَقْلِهَا: ما تنبت الأرض من الخضار مما يأكله الناس والأنعام.

قِثَّائِهَا: القثاء، الخيار وما يشبهه.

فُومِهَا: الحنطة، وقيل الثوم.

مِصْرًا: بلداً من البلدان.

الذَّلَّةُ: الهوان.

مَسْكَنَةٌ: فقر النفس.

باءوا بغضب من الله: رجعوا بغضب من الله مستحقين له.

### كفران اليهود لنعم الله عليهم

ثم يُبين الله لليهود ما كان عليه أسلافهم من كفران للنعمة حيث سئموا ما

كانوا عليه من طيب المأكَل:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ واذكروا أيها اليهود يوم



سيطر البَطَر على أسلافكم فقالوا لنبئهم موسى : إننا لن نصبر على نوع واحدٍ من الطعام وهو المَنّ والسَّلوى ، وسمّوهما طعاماً واحداً لأنهما يتكرران كل يوم ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ﴾ لقد طلبوا من موسى أن يدعو لهم ربّه لأن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من دعاء غيرهم ، وإخراج النبات من الأرض إظهاره بإيجاده . لقد طلبوا إخراج النبات من الأرض مع علمهم أن الصحراء لا تُثبت نباتاً ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا﴾ والقثاء : هو الخيار أو ما شابهه ، والفُومُ : هو الحنطة ، وقيل : هو الثوم . أجابهم موسى مستنكراً سوء اختيارهم : ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أي تُفضّلون هذه الأصناف على ما هو أفضل وأحسن وهو المَنّ والسَّلوى سواء من جهة اللذة في الطعام أو الحصول عليهما من غير تعب ولا مشقة؟

وتابع موسى قوله ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ والهبوط إلى المكان : النزول إليه والحلول به ، و (مِصْرًا) تعني بلداً ، أي انتقلوا إلى بلد زراعي من بلدان الشام تجدون فيه ما طلبتم . فلو صح ما تزعمون من كراحتكم الاقتصار على طعام واحد فأنتم الذين جنيتم على أنفسكم بسبب جبنكم من دخول الأرض المقدسة التي أمركم الله بدخولها ، ووعدكم بالنصر إن فعلتم ما أمركم الله به ، وعند ذلك تجدون في ذلك البلد ما ترغبون به من الطعام مِنْ بُقُولِ الْأَرْضِ ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي أحاط بهم الهوان والفقر . لقد عاش اليهود قروناً مستعبدين لمختلف الأمم فأورثهم هذا الاستعباد ذلّة وفقرًا في النفس مما جعلهم لا يفرّقون بين الحياة الكريمة والحياة الذليلة ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ ورجعوا بغضبٍ من الله مستحقين له لسوء أفعالهم .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي سبب غضب الله عليهم هو أنهم كانوا يجحدون آياته ، وآيات الله تستعمل بمعنى المعجزات أو نصوص

الكتب الإلهية المنزلة على رسل الله، أو حجج الله وأدلته على توحيده، فاليهود جحدوا آيات الله بكل معانيها التي جاءهم بها موسى عليه السلام ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهم بالإضافة إلى جحودهم لآيات الله: يقتلون الأنبياء الذين يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر كما فعلوا بيحيى عليه السلام وغيره. أما قول الله سبحانه: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ففيه بيان بأن قتل الأنبياء لا يكون بحق في حال من الأحوال، وهذه العبارة جاءت لتعظيم الأمر عليهم وزيادة التشنيع بقبح أعمالهم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي ذلك الكفر منهم بآيات الله وقتل الأنبياء بغير حق حصل منهم بسبب خروجهم عن طاعة الله ومجاوزتهم حدود الله إلى ما نهاهم عنه.

ثم يُبين الله في الآية التالية الناجين من عذابه المستحقين ثوابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والمراد بهم الذين صدّقوا برسالة محمد واتبعوه واستمروا على إيمانهم.

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود، وسُمُّوا بذلك من أجل قولهم ﴿إِنَّا هَدَنَّا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي تُبنا ورجعنا إليك يا رب، أو بسبب نسبهم إلى يهوذا أكبر أبناء يعقوب عليه السلام، فَقُلِبَتِ الدَّالُّ في يهوذا دالاً.

﴿وَالنَّصَارَى﴾ أتباع عيسى عليه السلام، سُمُّوا بذلك نسبةً لقرية تسمى (ناصر) كان ينزلها عيسى عليه السلام، وقيل سُمُّوا بذلك لنصرة بعضهم بعضاً.

﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ هم قوم يعبدون الملائكة ويصلُّون إلى القبلة، ويصلُّون الخمس ويقرأون الزبور، وقيل: إنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم وأنها فاعلة. وقيل: هم قوم يقدسون الرُّوحانيات ويتخذون لها وسائط يعبدونها لتقربهم إليها فعبدوا الكواكب السيارة والقمر وبعض النجوم وهم يؤمنون بخالق العالم وأنه واحد حكيم.

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي من آمن بالله من جميع هذه الطوائف المذكورة إيماناً بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له من غير ادّعاء بأن له ولداً، وآمن أيضاً باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء على الأعمال، وقرن إلى هذا الإيمان العمل الصالح فلهم أجرٌ على إيمانهم وعلى عملهم الصالح ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا خوف عليهم من أهوال يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا ومتاعها عند معايتتهم ما أعدَّ الله لهم من الثواب والنعيم عنده.

هذا الحكم يسري على الأمم التي كانت تعيش قبل الإسلام، أما الذين بلغتهم دعوة الإسلام فلا ينفعهم إلا أن يؤمنوا برسالة محمد ويتبعوا دينه.

وقد أساء فهم هذه الآية بعض الكتّاب فزعموا أنه يمكن تحقيق الإيمان الذي طلبه الله من عباده من الملل المذكورة مع بقائها على دينها بعد مجيء الإسلام وهذا زعم باطل لا يقوم على دليل ولا تسنده حجة، وقد نفى الإسلام زعمهم حين قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[آل عمران: ٨٥].

والخلاصة إن الفوز بنعيم الآخرة يكون بإيمان صحيح بالله الواحد الذي لا شريك له، له سلطان على القلوب مصحوب بالعمل الصالح، وإنه لا تفرقة أمام الله لا بالجنسية ولا بالملة فالخلق كلهم عباد الله يجزيهم الله سبحانه في الآخرة حسب إيمانهم وأعمالهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ .

### شرح المفردات

ميثاقكم: الميثاق هو العهد المؤكد.  
 رفعنا فوقكم الطور: أي زعزعنا جبل الطور عن مكانه فصار كالظلة فوق رؤوسكم.  
 بقوة: بجدة واجتهاد والتزام.  
 توليتم: أعرضتم.  
 السبت: يوم السبت حيث حرّم الله عليهم الصيد فيه.  
 خاسئين: أذلاء حقيرين.  
 نكالا: عقوبة وعبرة وزجراً لغيرهم.

### عقاب الله لبني إسرائيل لعصيانهم أمره

ويتابع القرآن فيذكر بني إسرائيل بما جرى لأسلافهم من تهديد عندما أبوا العمل بالتوراة ليكون ذلك عبرة لهم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ والميثاق: العهد المؤكد، والمراد به الإيمان بوحداية الله مقروناً بالعمل الصالح وفق ما جاء في التوراة، والمعنى: واذكروا - يا بني إسرائيل - وقت أن أخذنا عليكم العهد بأن تعبدوا الله وتتبعوا ما جاءكم به رسله وتعملوا بما في التوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ واذكروا كذلك وقت



أن رفعنا فوق أسلافكم جبل الطور تهديداً لهم بالعقوبة إذا لم يطيعوا أوامر الله . وبيان ذلك : أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح التي كتبت فيها التوراة فرأوا ما فيها من التكاليف الشاقة فأبوا قبولها والعمل بها ، فأمر الله الملك جبريل بأن يقلع الجبل من أساسه ويرفعه ويُظِلُّه فوقهم ، فقال لهم موسى : إما أن تقبلوا ما في التوراة وتعملوا بها وإلا أُلقي عليكم الجبل ، فلما رأوا أن لا مهرب لهم قبلوا ما في التوراة وسجدوا لله ، وجعلوا يلاحظون الجبل بأنظارهم وهم سجدوا لئلا يهبط عليهم ، فصارت عادة في اليهود أن لا يسجدوا إلا على أنصاف وجوههم ، ويقولون : بهذا السجود رُفِعَ عنا العذاب .

وَرَفَعَ الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ هُوَ لِإِسْهَادِهِمْ مَعْجَزَةٌ مِنْ مَعْجَزَاتِ اللَّهِ لِيَقْوَى إِيْمَانُهُمْ بِأَنَّ التَّوْرَةَ مُنْزَلَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلِيَكُونَ ذَلِكَ دَافِعاً لَهُمْ إِلَى الْعَمَلِ بِهَا .

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ والذي أعطاهم التوراة هو الله سبحانه ، ومعنى بقوة : أي بجدّ وعزم واجتهاد ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي وادرسوا ما في كتاب التوراة من الأوامر التي أمركم الله بها ، والنواهي التي نهاكم عنها واحفظوا ما فيه ولا تنسوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة . وهذا المعنى يندرج ضمن العمل بما جاء في القرآن الذي أنزله الله بعد التوراة والإنجيل وفيه الشرائع والوصايا التي تسعد الأمم وتجنبهم المهالك والخسران في الدنيا .

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ثم أعرضتم عن طاعة الله بعد أخذ الميثاق عليكم ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فلولا فضل الله عليهم بتوفيقهم للتوبة ورحمته لهم بالعفو عن زلاتهم لكانوا من الهالكين في الدنيا والمُعذِّبين في الآخرة . فالقرآن يُذَكِّرُ بني إسرائيل المعاصرين للنبي محمد ﷺ بما كان من أسلافهم من جحود النعمة ونقض للعهد ، وفي هذا

التذكير تحذيرٌ لهم من السير على طريقتهم ودعوة لهم للدخول في الإسلام الذي فيه نجاتهم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي ولقد عرفتم يا بني إسرائيل ما فعل الله بمن عصى من أسلافكم حين خالفوا أمره واصطادوا السمك يوم السبت الذي نهاهم الله عن الصيد فيه.

وبيان ذلك: أن الله أخذ العهد على بني إسرائيل أن يتفرغوا لعبادته في يوم السبت، وحرم عليهم الصيد فيه دون سائر الأيام، وقد أراد الله أن يختبر طاعتهم له، فابتلاهم بتكاثر الأسماك في يوم السبت دون غيره من الأيام، فكانت تتراعى لهم على ساحل البحر يوم السبت قريبة المأخذ سهلة المنال، فقالوا: لو حفرنا إلى جانب ساحل البحر الذي يزخر بالأسماك حياضاً تنساب إليها المياه مع الأسماك ويتعذر خروجها منها، ثم نأخذ هذه الأسماك من تلك الحياض يوم الأحد وما بعده، فنهاهم فريق منهم عن عملهم هذا، وقالوا لهم إنه خروج عن طاعة الله، فلم يعبأ أكثرهم بذلك النهي فعاقبهم الله بما بيَّنه بقوله:

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي كونوا قردة أذلاء مطرودين، واختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ ف قيل إن الله حوّلهم قردة حقيقة، ورؤي عن مجاهد أنه قال: «ما مُسِخَتْ صورهم ولكن مُسِخَتْ قلوبهم فلا تقبل وعظاً ولا تعي زجراً» ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ نكالاً: عقوبة وعبرة، أي وجعل الله مسخهم قردة عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعبرة لمن شهدها وعابنها من الناس، ولمن جاء بعدهم من الأمم إلى يوم القيامة، وتذكراً وعبرة للمتقين الذين يخشون ربهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا آلَتَنَ جِثَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

### شرح المفردات

هُزُؤًا: سخرية.

فَارِضٌ: كبيرة هرمة.

بِكْرٌ: فتية لم تلد.

عَوَانٌ بين ذلك: وسط بين المستة والفتية.

صفراء فاقع لونها: لونها شديد الصفرة.

لا ذَلُولٌ: لم تذلل بالعمل.

تُثِيرُ الْأَرْضَ: تقلبها بالمحراث للزراعة.

ولا تسقي الحرث: لا تروي الزرع.

مُسَلَّمَةٌ: بريئة من العيوب.

لا شِئَةَ فِيهَا: لا لون فيها يُخالف لون سائر جلدها.

### قصة بقره بني إسرائيل

ويُتابع القرآن فيبين ناحية من مساوئ اليهود وهي مُكابرتهم على طاعة نبيهم موسى، وجفاؤهم في مخاطبته وعدم مسارعتهم للامتثال لأوامر ربهم، وذلك يتمثل بما كان منهم لما طلب منهم أن يذبحوا بقره، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أي واذكر يا محمد الوقت الذي قال فيه موسى لقومه - وقد وُجد قتيلٌ بين أظهرهم لم يعرفوا قاتله - إن الله يأمركم أن تذبحوا بقره ليكون ذلك وسيلة إلى معرفة القاتل، وهذا ما سيأتي إيضاحه فيما بعد.

وسبب نزول الآيات في هذا الشأن: أن رجلاً من بني إسرائيل قد أدركته الشيخوخة وكان ثرياً، فاستبطأ ابن أخيه موته فقتله ليرثه. وكان بنو إسرائيل يسكنون في قريتين متجاورتين فألقى القاتل من قتلته إلى باب القرية الأخرى ليتهمهم بقتله ويأخذ ديته، فأنكر سكان القرية التي وُجد القتيل في جوارهم قتلته، ووقع الشجار بينهم وبين القرية الأخرى حتى شهبوا السلاح في وجوه بعضهم بعضاً، فقال أصحاب العقول منهم: أنتقاتل ورسول الله بيننا؟ اذهبوا إلى موسى وقصوا عليه القصة ففعلوا، فأوحى الله إليه أن يأمر بني إسرائيل بذبح بقره.

ويبقى هذا السؤال: هل سارع بنو إسرائيل إلى امتثال ما أمرهم الله به؟ الجواب: كلا، لم يمثلوا بل تلكأوا عن طاعة ربهم، وأجابوا موسى بما يقصه علينا القرآن: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي أتجعلنا يا موسى مكان هزء وسخرية؟ نسألك عن أمر القتيل وتأمرونا بذبح بقره! سمع موسى كلامهم فذهل من جهلهم وسوء أدبهم، فهل هناك نبي يستهزئ بقومه وبما كلفه به ربه؟ أجابهم موسى: ﴿قَالَ أَعُودُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي ألتجئ إلى الله من أن أكون من



زمرة الجاهلين ، فالاستهزاء بأوامر الله يؤدي بالمستهزئ إلى غضب الله وأسوأ العواقب .

تابع بنو إسرائيل قولهم : ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ لقد سألوا موسى أن يطلب من ربه أن يبين لهم صفة تلك البقرة ، أجابهم موسى بعد أن دعا ربه وبيّن له صفة تلك البقرة ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي إن ربكم يقول في شأن هذه البقرة بأنها ليست كبيرة هرمة ، وليست فتية صغيرة لم تلد بل هي ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي هي مُتوسطة السن بين الفارض والبكر ﴿فَاعْمَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي كفاكم مجادلة ونفّذوا أمر الله على الفور واذبحوا بقرة أيّا كانت على الصفة المذكورة .

لم يُنفّذ بنو إسرائيل ما أمرهم به ربهم ، بل بحثوا عن سؤال آخر يدل على غباثهم وسوء فهمهم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ أي اطلب يا موسى من ربك أن يبين لنا لون هذه البقرة ، فأجابهم موسى بما أوحى الله إليه ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي إن لونها شديد الصفرة يشعر ببهجة كل من ينظر إليها لنضارتها وحسن منظرها وصفاء لونها .

لكن بني إسرائيل لم تكفهم هذه الأوصاف التي بيّنها لهم ربهم بل أخذوا كعادتهم يماطلون في الامتثال فأجابوا موسى : ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي إن البقرة الموصوفة بالصفات السابقة هي كثيرة فاشتبه علينا أيها نذبح ، فادّع لنا ربك يا موسى يبين لنا شأن هذه البقرة ، ثم أضافوا قولهم : ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ وفي تعليق اهتدائهم بمشيئة الله دليل على تفويض أمرهم إلى الله سبحانه وطلبهم الهداية منه ، وهم لو لم يقولوا : ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لحيل بينهم وبين الاهتداء إلى البقرة المطلوب ذبحها أبداً .

والتلفظ بمشيئة الله يُستحسن في كل عمل يراد تحصيله ولذلك خاطب الله رسوله محمداً بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ...﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤].

وبعد أن فوضوا أمرهم إلى مشيئة الله جاء الجواب النهائي على ما طلبوا: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي قال موسى لهم:

إنَّ ربَّكم يقول إنها بقرة لم يذلها العمل فلم تفلح الأرض ولم تستخدم في انتزاع المياه من الآبار لسقي الأرض المهيأة للزراعة ﴿مُسَلَّمةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي بريئة من العيوب ليس فيها لون يخالف لون سائر جسدها فهي صفراء كلها. ثم قالوا عندما سمعوا تلك الأوصاف كلها ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَاذُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي فقالوا لموسى: الآن جئت بالبيان الواضح، وبحثوا عن البقرة المتصفة بهذه الأوصاف فذبحوها وقد قاربوا أن يتركوا ذبحها وما فرض عليهم في ذلك لغلاء ثمنها.

وكانت هذه البقرة على ما رُوي عند رجل يزعم أنه ليس بائعها بمال أبداً، فلم يزالوا يساومونه حتى رضي أن يأخذ ملء جلدها ذهباً ثمناً لها، وذلك بأن يأخذوا جلدها بعد ذبحها ويملأوه ذهباً فباعهم إياها على هذا الثمن.

فبنو إسرائيل لو أطاعوا الله من أول الأمر وذبحوا أية بقرة لأجزأتهم، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

ولعلَّ إكثارهم من المراجعات في أوصاف البقرة لغرض الوصول إلى تعيين وصف يتعذر وجوده في أبقارهم وذلك لغرض أن يعفوا من ذبح البقرة التي أمروا بذبحها.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾  
 فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ  
 لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ  
 أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا  
 لَمَا يَسْقَى فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ  
 وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ .

### شرح المفردات

فَادَرَأْتُمْ : اختلفتم وتنازعتم .  
 وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ : والله مُعَلِّنٌ مَّا كُنْتُمْ تَسْرُونَ وتغييئون .  
 اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا : اضربوا القاتل ببعض أجزاء البقرة .  
 وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ : وإن من الحجارة لما يسقط من أعلى إلى أسفل .

### الغاية من ذبح البقرة وقسوة قلوب اليهود

ثم يبين القرآن الغاية المتوخاة من ذبح البقرة :

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل إذ قتلتم نفساً  
 فاختلفتم وتنازعتم في قاتلها ، ودفع كل واحد منكم التهمة عن نفسه ، ونسب  
 القتل إليهم لكون القاتل منهم . والخطاب في الآية لليهود المعاصرين للنبي  
 محمد ﷺ وإن كان القتل حصل عند أسلافهم للتنبيه على أنهم ليسوا أفضل  
 منهم بل هم سائرون على نهجهم في الانحراف والضلال ، ويستعمل هذا  
 الأسلوب عند القصد إلى ذم المخاطبين ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ والله  
 يعلم الحقيقة وهو كاشفها ومظهرها مع كتمانكم لها .

وبعد أن تم ذبح البقرة أراد الله أن يظهر القاتل، فقال سبحانه:

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي قال الله لهم على لسان رسوله موسى: اضربوا القتيل بأي جزء من أجزاء البقرة التي ذبحتموها. وفي الآية حذف تقديره: فاضربوا الميت بجزء منها فأحياء الله ونطق باسم القاتل ثم مات بعد أن أخبر به ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أي مثل إحياء ذلك القتيل بعد موته يحيي الله الموتى للحساب والجزاء على الأعمال يوم القيامة ولكن ليس على الصفة التي تم بها إحياء ذلك الميت ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الآيات: الدلائل، أي يجعلكم الله مبصرين الدلائل الدالة على أنه قدير على كل شيء ولكي تستعملوا عقولكم في تعرف سبيل الرشده.

**تعليق على النص القرآني:** جمهور المفسرين يرى أن حادثة قتل النفس وتنازعهم في أمر القتيل حصلت قبل الأمر بذبح البقرة وإن وردت في الذكر بعده، وإنما قدّم الله قصة الأمر بذبح البقرة ليتشوق السامع إلى الغاية من ذبحها، كما أراد الله سبحانه أن يعطينا صورة عن سلوك اليهود ومكابرتهم لرسول الله موسى عليه السلام وتلكئهم عن الامتثال لما أمرهم الله به، هذا مع العلم بأن القرآن حين يذكر قصص الأنبياء أو الأمم السابقة فإنما يذكرها لهدف العبرة دون الاهتمام الزمني للقصة.

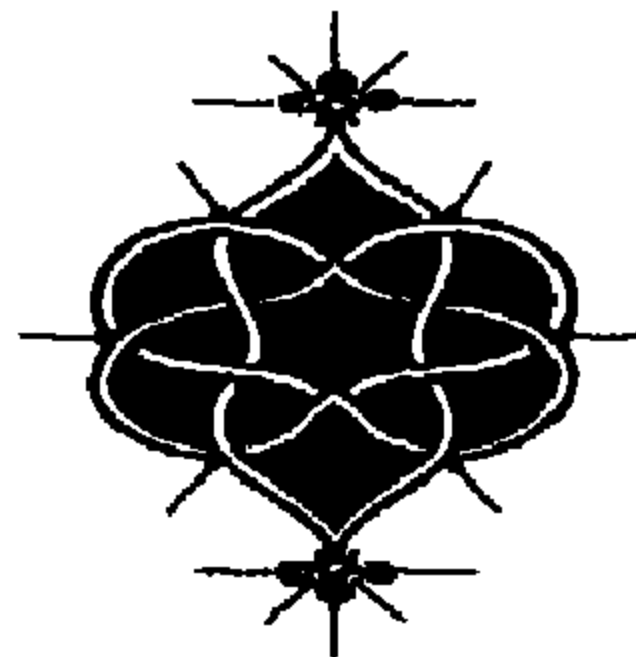
ثم يختم الله قصة البقرة بقوله:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ القسوة: الصلابة والشدة، والمراد بذلك قلوب جميع بني إسرائيل، ووصف القلوب بالقسوة لبعدها عن الاعتبار وعدم تأثير المواعظ فيها بعد رؤيتهم جميع المعجزات التي أيد الله بها موسى عليه السلام.



ثم وصف الله قلوب اليهود بقوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فقلوبهم تتفاوت في القسوة، فبعضها قاسٍ كالحجارة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة كالمعادن الصلبة ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ والتفجر: التفتح بالسعة والكثرة، وهذا بيان لفضل الحجارة على قلوبهم القاسية لأن من الحجارة ما يفتح بكثرة وسعة ويتدفق منها الأنهار ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقُّ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ وإن من الحجارة لما يتصدع فينبع منها الماء، وفي هذا إشارة إلى العين النابعة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الهبوط: التردي، أي النزول من أعلى إلى أسفل، أي إن من الحجارة ما ينزل وينحط من المكان الذي هو فيه إلى أسفل منه خشية من الله تعالى، وهذا الوصف مجاز عن انقياد الحجارة لأمر الله وأنها لا تمتنع على ما يريد منها، أما قلوب هؤلاء اليهود فلا تنقاد ولا تلين ولا تخشع، ولا تفعل ما يأمره الله به من الرحمة والشفقة على عباد الله.

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا تهديد لهم بأن الله ليس بغافل عن أعمالهم بل سيحصى عليها ويحاسبهم عليها وسيجازيهم عاجلاً أو آجلاً على أعمالهم الآثمة.



﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ  
 اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا  
 لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا  
 اتَّخَذْتُوهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا  
 تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ  
 ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا  
 يُظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ  
 هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا  
 كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا  
 النَّارُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيََا مَعْدُودَةً قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ  
 يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ  
 مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ  
 النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ .

### شرح المفردات

يَسْمَعُونَ كلام الله ثم يُحَرِّفُونَهُ : يُبَدِّلُونَهُ أَوْ يُؤْوِلُونَهُ بِالْبَاطِلِ .

عَقَلُوهُ : فَهَمَوْهُ .

خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ : انْفَرَدَ بِعَضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ .

فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ : حَكَمَ بِهِ أَوْ قَضَى .

لِيُحَاجُّوكُمْ : لِيُخَاصِمُوكُمْ وَيُقِيمُوا عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ .

أَمَانِي : جَمْعُ أُمْنِيَّةٍ وَهِيَ مَا يَحِبُّ أَنْ يَحْصَلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ .

فَوَيْلٌ لَهُمْ: أي هلاك وعذاب لهم وهو وارد مورد الدعاء .  
وأحاطت به خطيئته: الخطيئة: السيئة، وإحاطتها: شمولها له .

### تحريف بني إسرائيل للتوراة وأمانهم الباطلة

وبعد أن ذكر القرآن عناد اليهود وعدم امتثالهم لأوامر ربهم عقّب على ذلك بذكر بعض مساوئهم: كتحريف التوراة وأمانهم الباطلة، قال الله تعالى:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ الخطاب في الآية للنبي محمد ﷺ والمؤمنين والاستفهام في قوله تعالى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ للإنكار، أي لا تطمعوا في إيمان اليهود مستجيبين دعوتكم لهم للإيمان .

وقد كان النبي محمد والمؤمنون شديدي الحرص على دخول اليهود في دين الإسلام لأنهم أهل كتاب منزل من عند الله، فبين الله لهم أنهم ميئوس منهم للأسباب التالية:

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ والمراد بالفريق هنا من كان في زمن النبي محمد ﷺ وهم أخبار اليهود حيث كانوا يسمعون كلام الله - أي التوراة - ويؤولونها تأويلاً فاسداً، أو يبدّلون كلام الله حسب أغراضهم بوضع كلام آخر مكانه أو بكتمان بعضه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَغْلَمُونَ﴾ أي يحرفون كلام الله من بعد ما فهموه وضبطوه في عقولهم مع علمهم بأن من يحرف كلام الله يستحق الخزي والعذاب الأليم في الآخرة .

فأخبار اليهود حرّفوا كتاب الله وقلّدهم أتباعهم في ذلك تقليداً أعمى، فهؤلاء لا يرجى منهم خير ولا يهتدون إلى الدين الحق .

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ هذا الشطر من الآية فيه بيان لنوع من مساوئ اليهود الكاشفة عما يضمرونه من النفاق، فقد كان بعضهم إذا لقوا الذين

آمنوا من أصحاب النبي أظهروا لهم بأنهم مصدقون بنبوّة محمد وما أنزل عليه من القرآن وأنه مبشّر به في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بِغُضِّهِمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ وإذا انفرد اليهود بعضهم إلى بعض قال الأخبار للمنافقين منهم معاتبين إياهم ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ والفتح : بمعنى العلم وإزالة الإبهام، أي أتخبرون المؤمنين من أتباع محمد بما فتح الله عليكم من أبواب العلم التي كتمناها عنهم مما جاء في التوراة من البشارات والأوصاف التي تنطبق على نبوة محمد وأنه صادق في ادعائه النبوة. ويأتي الفتح بمعنى النصر والقضاء والحكم، أي أتحدثونهم بما قضاه الله فيكم من أخذه الميثاق عليكم بأن تؤمنوا بأن محمداً رسول الله وتستجيبيوا لدعوته ﴿لِيَحَاجُّوكُمْ بِهِ﴾ ليحتجوا به عليكم باعترافكم هذا قائلين : كفرتم بعد أن وقفتم على صدق نبوة محمد وأنه نبي حقاً ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي في حكمه وكتابه، أو بمعنى : ليكون للمؤمنين الحجة عليكم عند اجتماعهم بكم أمام ربكم في الآخرة فيكون في ذلك فضيحة لكم أمام الخلائق ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أليست لكم عقول تمنعكم من أن تحدثوهم بما يكون لهم فيه الحجة عليكم؟ ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ألا يعلم هؤلاء اليهود الذين نافقوا أن الله يعلم ما يخفونه من كفرهم بمحمد وتكذيبهم له وما أبدوه وأظهروه رياءً للمؤمنين بقولهم : آمنا، ليرضوهم بذلك نفاقاً وخداعاً!

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ﴾ وأُمِّيُونَ : جمع أُمِّي وهو الذي لا يُحسن القراءة والكتابة، والكتاب هنا المراد به التوراة، والأمانِيّ : جمع أُمْنِيّة وهي ما يرغب الإنسان في الحصول عليه، والمعنى : ومن هؤلاء اليهود أناس لا يحسنون القراءة والكتابة ولا يعلمون من التوراة إلا ما هم عليه من أمانيتهم بأن الله لا يؤاخذهم على خطاياهم، وأن أنبياءهم يشفعون لهم،



وَأَنَّ النَّارَ لَن تَمْسَهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴿وَأِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾  
وإن هؤلاء اليهود في اعتقادهم هذا ليسوا على علم من أمور الدين وإنما هم في شك منها . والظن : هو التردد في الاعتقاد بغير جزم ولا يقين .

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي هلاك وعذاب للذين يُحَرِّفُونَ كتاب الله وهو التوراة، إذ يكتبونها بأيديهم ويدسّون فيها ما ليس منها . ومن الأشياء التي حرّفوها ما جاء في التوراة من أوصاف النبي المُبَشِّر به التي تنطبق على صفات النبي محمد فأبدلوها بصفات أخرى ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ثم يقولون لأتباعهم من العوامّ: هذا من عند الله ليحملوهم على الاعتقاد به ، وهم بهذا يرتكبون أكبر جريمة وأعظم إثم وهو افتراء الكذب على الله ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ والاشتراء : الاستبدال، أي يأخذوا لأنفسهم مقابل تحريف كتاب الله ثمنًا قليلًا، وهو الاحتفاظ بالرياسة والجاه، وأكل أموال الناس بالباطل حيث يفتونهم بما يرضي أهواءهم ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي هلاك وعذاب لهم على فعلهم هذا ، وكرّر القرآن هذا المعنى للتأكيد على مبلغ إثمهم والعقوبة التي ستحل بهم من جرّاء تحريفهم كتاب الله وتبديله أو سوء تأويله ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ وهلاك وعذاب لهم مما يحصلون عليه بالباطل من مال، وهذا وعيدٌ شديدٌ لمن ابتدع في دين الله ما ليس منه أو اكتسب من مالٍ حرامٍ باسم الدين عن طريق الرشوة والتلاعب في آيات الله .

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أي وقالت اليهود لن تلاقى أجسامنا النار في الآخرة إلا أياماً قليلة . وذلك أن اليهود قالوا: عمر الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً واحداً ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ والمراد بالعهد: الوعد المؤكد . والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود تبكيئاً لهم وتوبيخاً: هل سبق لكم من الله وعد بذلك حتى

يكون الإيفاء بهذا الوعد متحققاً؟ ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ليس الأمر كذلك وإنما أنتم تقولون على الله ما لا دليل لكم عليه. فهم لا يستطيعون أن يؤكدوا أن الله وعدهم بما أخبروا به من أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، وليس في التوراة نصٌ يستندون إليه فيما ادَّعوه.

ثم أبطل الله دعواهم وبيّن من يستحق العذاب في الآخرة:

﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ بلى: حرف جواب بمعنى: نعم، أي نعم، من اقترف سيئة، والمراد بفاعل السيئة هنا: أهل الشرك والكفر بالله ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ والخطيئة المراد بها كبيرة من كبائر الإثم التي أوجب الله عليها عذاب النار، ومعنى إحاطة الخطيئة بصاحبها أخذها بجوانب إحساسه ووجدانه كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجاً منها فهو أسير الشهوات وسجين الموبقات، والخطيئة إذا أحاطت بصاحبها أخذت بمجامع قلبه فحرمته الإيمان وأدّت به إلى الكفر.

﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي من أشرك بالله واقترف ذنباً جمّة فمات عليها قبل الإنابة إلى الله بالطاعة والتوبة فأولئك سيكونون من أصحاب النار المُلَازمين لها لا يخرجون منها أبداً.

والخلود في عذاب النار هو لأهل الكفر بالله خاصة دون أهل الإيمان به لورود الأخبار عن رسول الله بأن أهل الإيمان لا يخلدون فيها، وأن الخلود في النار لأهل الكفر بالله.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والذين جمعوا بين الإيمان الصادق بوحدانية الله والعمل الصالح وامتنعوا عن السيئات ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي هم أصحاب الجنة المُلَازمون لها المنعمون فيها بكل ما يشتهون وهم باقون فيها أبداً لا يخرجون منها.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَتُّوْلَاءَ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْكَرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

### شرح المفردات

ميثاق : العهد المؤكد .

تولَّيْتُمْ : أعرضتم .

لا تسفكون دماءكم : لا تريقونها بأن يقتل بعضكم بعضاً .

ولا تُخرجون أنفسكم : لا يخرج بعضكم بعضاً .

أقرَّرتُمْ : قبلتم هذا الميثاق واعترفتُم بلزومه .

تقتلون أنفسكم : يقتل بعضكم بعضاً .

تظاهرون عليهم: تتعاونون عليهم.  
 بالإثم والعدوان: بالمعصية والظلم.  
 أسارى: جمع أسير وهو من يؤخذ على سبيل الغلبة في القتال.  
 تُفادوهم: تنقذوهم من الأسر.  
 خزي: ذُلُّ وهوان.  
 يُردُّون: يصيرون، يرجعون.  
 اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة: آثروا متاعها وملذاتها على نعيم الآخرة.

### العهد الذي أخذَه الله على بني إسرائيل

ثم يُبين القرآن العهد الذي أخذَه الله على بني إسرائيل وطلب منهم الوفاء به قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ الميثاق: العهد المؤكد، أي واذكروا يا بني إسرائيل إذ أخذنا عليكم العهد المؤكد ويشمل عدة أمور منها:

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ وقد جاءت الصيغة ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ في صورة الخبر المنفي، والمراد النهي عن عبادة غير الله وكلمة ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ إثباتُ العبادة لله وحده لأنه سبحانه هو المستحقُّ لها دون غيره، وعبادة الله الخضوع له وحده وإثبات الوجدانية وتصديق رسله والعمل بما أنزل في كتبه.

ومن الميثاق: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ قرن الله أمر الإحسان إلى الوالدين بالأمر بعبادته وذلك لِمَا للوالدين من الفضل الكبير على الولد لأنهما بذلا الكثير من العناية في تربيته والقيام بشؤونه في عهد الطفولة أيام كان صغيراً عاجزاً، والإحسان إلى الوالدين يكون: بمعاشرتهما بالمعروف والتواضع لهما، والقيام بما أوجبه الله لهما من الحقوق.

﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ وذو القربى: هو من تكون بينك وبينه صلة قرابة من جهة الأب أو الأم. والإحسان إليه يكون بالقيام بما يحتاج إليه من مال ومعونة بقدر الاستطاعة، وفي ذلك تقوية للروابط بين الأقارب وإشاعة الودّ بينهم ﴿وَالْيَتَامَى﴾ جمع يتيم وهو من فقد أباه وهو دون البلوغ، والإحسان إليه يكون بالعطف عليه والإنفاق عليه إذا كان فقيراً كما يكون بالتوجيه الرشيد والكلمة الطيبة. والإحسان إلى اليتامى بهذا المعنى فيه حماية للمجتمع حتى لا يكونوا عناصر شر وفساد فيه ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ هم الذين لا يقدرّون على كسب عيشهم أو لا يكفيهم ما يكسبونه من مال. والإحسان إلى المساكين يكون بإعطائهم ما يكفيهم من المال للعيش الكريم، وهذا ما يؤدي إلى التكافل بين أفراد الأمة.

ومن الميثاق: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ والقول الحسن للناس يكون بالنصيحة لهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع لئني الجانب، ومخاطبة الناس بما تطيب به نفوسهم مع الابتعاد عن الغلظة والفظاظة في القول والسباب والطعن والسخرية. هذه الوصية من أرفع الوصايا التي تشيع الود في المجتمع وتنفي عنه البغضاء والتناحر والتفرقة، هذا هو جوهر الدين وروحه القائم على الخلق الحسن.

ومن الميثاق: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ والصلاة التي أمر بنو إسرائيل بإقامتها، والزكاة التي أمروا بإتيانها، هما الصلاة والزكاة المشروعتان في ديانتهم قبل أن يُنسخا بشريعة الإسلام، ولعظم شأن هاتين العبادتين ذُكرتا على وجه خاص بعد الأمر بعبادة الله، لِمَا للصلاة من الأثر الكبير في النهي عن الفحشاء والمنكر، ولما في الزكاة من تأثير في تخفيف ويلات الفقر على المحتاجين.



هذه الوصايا التي ذكرَ الله بها بني إسرائيل ، وأخذ عليهم الميثاق للعمل بها ليست خاصة بهم بل هي موجهة كذلك إلى الأمة الإسلامية ، لأن هذه التوجيهات من صلب الشرائع الإلهية التي أنزلها الله لخير البشر ، وقد أمر الله الأمة الإسلامية بنظر ذلك في كثير من آيات القرآن الكريم .

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ تَوَلَّيْتُمْ : تَوَلَّى عن الشيء رفضه وانصرف عنه ، والتَوَلَّى والإعراض بمعنى واحد ، وقيل : التَوَلَّى بالجسم والإعراض بالقلب . والتوبيخ في الآية موجهٌ إلى اليهود الذين كانوا في عصر النبي محمد ﷺ ويشمل أسلافهم من قبل حيث أعرض أكثرهم عن الميثاق الذي أخذه الله عليهم ورفضوه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ وهم القلة منهم وتشمل من آمن قديماً من أسلافهم أو من كان على عهد النبي محمد كعبد الله بن سلام وأصحابه .

وبعد أن أخذ الله العهد على بني إسرائيل بالعمل بفضائل الأعمال عقَّب على ذلك بما أخذ عليهم العهد بالكفِّ عن سيئ الأفعال .

وقبل أن نذكر آيات القرآن التي جاءت في هذا الصدد ، نذكرُ هذه الوقائع التي كانت مسيطرة على الوضع في المدينة المنورة والتي على ضوئها جاءت الآيات التي تنهى بني إسرائيل عن عصيان الله .

كان في المدينة المنورة قبيلتا الأوس والخزرج وهم الذين سُموا الأنصار بعد إسلامهم . وقد كانوا في الجاهلية قبل الإسلام عبّاد أصنام وكانت بين القبيلتين حروب كثيرة . وكان يهود المدينة المنورة ثلاث قبائل : بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء قبيلة الخزرج ، وبنو قريظة حلفاء قبيلة الأوس . فكانت الحرب إذا نشبت بين الأوس والخزرج قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه من العرب فيقتل

اليهودي أعداءه وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم ، ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الأمتعة والأموال ثم إذا وضعت الحرب أوزارها افتدى اليهود أسراهم تصديقا لما دعت إليه التوراة ، وفي الآيات التالية يستنكر الله تصرفهم هذا بقوله :

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن لا يقتل بعضكم بعضاً ، والنص القرآني يشعر بأن دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر فإذا سفكه فكأنما سفك دم نفسه ، وهذا توجيه قرآني يبين الحرص على احترام النفس الإنسانية وعدم سفك دمها ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي لا يخرج بعضكم بعضاً من مساكنهم ، ويدخل في معنى الإخراج من الديار أن يتصدى الرجل لإيذاء جاره حتى يضطره إلى الخروج من داره تخلصاً من شره . والنص القرآني جعل إجلاءهم لغيرهم من مساكنهم إجلاء لأنفسهم فنبه بذلك على وحدة الأمة ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي ثم اعترفتكم بالميثاق الذي أخذه الله عليكم وبوجوب المحافظة عليه وأنتم تشهدون أنفسكم بلزوم العمل بمقتضاه أو بمعنى : وأنتم تشهدون أيها المخاطبون على أسلافكم بأنهم أقروا بهذا الميثاق وقبلوا به .

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ هنا خطاب لليهود المعاصرين لرسول الله محمد فيه توبيخ شديد لهم واستنكار لسلوكهم المنافي للميثاق ، والمعنى : ثم أنتم يا معشر اليهود بعد إقراركم بالميثاق قاتلت إخوانكم في الدين كما طردتموهم من ديارهم بعد أن نهاكم الله عن ذلك .

﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ تظاهرون : التظاهر التعاون . ولما كان قتل بعضهم لبعض وإجلاؤهم لفريق منهم عن ديارهم يحتاج إلى قوة

وغلبة، بين الله أنهم يفعلون ذلك متعاونين عليهم قتلاً وإخراجاً من ديارهم،  
 آثمين في حق إخوانهم في الدين معتدين ظالمين فيما يصنعونه بهم ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ  
 أَسَارَى تَفَادَوْهُمْ﴾ وإذا وجدتم الأسرى من أهل دينكم في أيدي أعدائكم  
 تسعون لفك أسرهم وتبذلون المال لإطلاق سراحهم ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ  
 إِخْرَاجُهُمْ﴾ فكيف تخرجون أهل دينكم من ديارهم وهو محرّم عليكم فعله  
 ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ والكتاب هنا : التوراة .  
 ومعنى بعض الكتاب الذي آمنوا به وأقروا به هو ما حُرّم عليهم من ترك الأسرى  
 في أيدي أعدائهم، والكفر ببعض الكتاب هو ما حُرّم عليهم من قتل وإخراج  
 أهل دينهم من ديارهم .

﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الخزي :  
 هو الذلّ والهوان مع الفضيحة، أي إنكم إن فعلتم ما نهاكم الله عنه، سيصيبكم  
 الله بالذلّ والهوان في الدنيا، وهذا ما تحقق فعلاً فكان الخزي الذي أصاب  
 بني قريظة من قتلهم جميعاً بسبب خيانتهم العهد مع رسول الله، كما أخرج بنو  
 قينقاع من ديارهم بالسبب ذاته .

وفي هذه الآيات إحياء للمسلمين وتحذيرٌ لهم بأنهم إذا لم يطبقوا شريعة  
 دينهم في كل مرافق دينهم سيصيبهم ما أصاب اليهود من ذل وهوان فإن الإيمان  
 ببعض ما قرره الدين من الأحكام والكفر ببعضه وتركه يُدخل المؤمنين في  
 حساب الكافرين لأن الإيمان وحدة لا تتجزأ .

ويُتابع القرآن كلامه عن هؤلاء اليهود : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ  
 الْعَذَابِ﴾ أي وبعد الذلّ والهوان الذي نزل بهم في الدنيا يصيرون إلى أشدّ  
 العذاب يوم القيامة ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعد لهم، فإن الله  
 لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيحاسبهم عليها يوم القيامة .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي أولئك اليهود الذين تقدم ذكرهم آثروا الحياة الدنيا واختاروها على الآخرة اختيار المشتري ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ فلا يخفف عنهم عذاب جهنم ولن يجدوا من ينقذهم من هذا العذاب لا بقوته ولا بشفاعته .



﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ .

### شرح المفردات

الكتاب : المراد به التوراة .

قفينا : أتبعنا .

البيّنات : المعجزات والحجج الدالة على نبوته .

أيّدناه : قويناه وسانددناه .

روح القدس : هو الملك جبريل عليه السلام .

لا تهوى أنفسكم : لا يوافقها ولا يتلاءم مع رغباتها .

وقالوا قلوبنا غُلْفٌ: أي محجوبة عما تقول فلا تفهم كأن عليها غلافاً.

يستفتحون: أي يطلبون من الله النصر.

اشْتَرَوْا: باعوا.

بَغْيًا: ظلماً وحسداً.

فَبَاءُوا: رجعوا.

مُهِنٍ: مذل.

### كفر اليهود واستكبارهم

ويتابع القرآن الكلام عن بني إسرائيل فيذكّرهم بالنعم التي أمدهم الله بها فقابلوها بالكفر والإجرام. قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي ولقد أعطينا موسى التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أي وأتبعنا من بعد موته أنبياء ورسلاً إلى بني إسرائيل، ومن هؤلاء الأنبياء: يُوشع وداود وسُلَيْمان وإِلْيَاس واليسع ويُونُس وزكريا ويحيى عليهم السلام. وكثرة الأنبياء فيهم ليست دليلاً على أنهم شعب الله المختار كما يزعمون، بل لغلظة قلوبهم وكثرة فسادهم، ولطول الفترة الزمنية بين موسى وعيسى فقد كانت خمساً وعشرين وتسعمائة وألف سنة على ما قيل.

﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي وأعطينا عيسى ابن مريم المعجزات والحجج الواضحة الدالة على صدق نبوته كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله. والملفت للنظر أن القرآن في كثير من آياته عندما يذكر كلمة عيسى يعقب على ذلك بقوله ابن مريم وذلك لدحض المزاعم بأنه ابن الله، وقد وردت صيغة ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ في القرآن ست عشرة مرة تأكيداً لهذه الحقيقة بأنه بشر ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أيّدناه: قويناه والمراد من هذه التقوية الإعانة، وروح القدس هو الملك جبريل عليه السلام، وسُمِّيَ رُوحاً لأن الملائكة أرواح



لطيفة. والقدس: الطهر والبركة، وسُمِّيَ جبريل بروح القدس لأنه يُنزل الوحي على رسل الله بما يطهر النفس ويزكيها بالحكمة والموعظة الحسنة.

ويصحّ تفسير روح القدس بالوحي الذي يمدّ الله به رسله إذ هو شبيه بالروح الذي تحصل به الحياة، ذلك أن الأمم تحيا به حياة صالحة.

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ والاستفهام للإنكار والتوبيخ على استكبارهم واستعلائهم وجعل هواهم هو المتحكم بهم فأذاهم ذلك إلى أن يُكذّبوا النبيين أو يقتلوهم، ونسب القتل إلى المعاصرين للنبي محمد مع أن القتل هم أسلافهم لرضاهم به ولحقوق مذمتهم بهم.

ويستوقفنا إيراد خبر قتلهم الأنبياء بصيغة الفعل المضارع ﴿تَقْتُلُونَ﴾ التي تدل على الحال لاستحضار تلك الجريمة التي بلغت من الفظاعة مبلغاً عظيماً وأن قتلهم الأنبياء تجدد دائماً منهم، وقد حاولوا قتل النبي محمد ﷺ فعصمه الله منهم.

ثم بيّن القرآن مذمة أخرى لهم وهي قولهم:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي قلوبنا عليها غشاء أو أغطية لا ينفذ إليها ما جئت به يا محمد من الدين، وهي ليست مستعدة لقبول دعوتك ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ بل أبعدهم الله عن رحمته وأهلكهم بكفرهم ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فقلة الإيمان تعني أنهم لا يؤمنون إلاّ بقليل مما يجب الإيمان به من التوراة، والمقصود بالقلّة العدم، أي لا يؤمنون أصلاً، فإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر لا يعتبر إيماناً بل كفراً.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ الكتاب هنا المراد به القرآن. أي ولما جاءهم كتاب مُنزل من عند الله وهو القرآن مصدّق للتوراة

التي معهم في التوحيد وأصول الدين التي أعلنت عن مجيء نبي تنطبق صفاته على النبي محمد ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يستفتحون: يستنصرون، والمراد بالذين كفروا هنا: المشركون العرب، والمعنى: وقد كان اليهود من قبل رسالة محمد يطلبون الفتح والنصر على مشركي العرب بالنبي المنتظر الذين يجدون نعتهم في التوراة، فكان اليهود يقولون لأفراد قبيلتي الأوس والخزرج من العرب قبل إسلامهم: «إن نبياً مبعوثاً قد أظلم زمانه تتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم».

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ فلما جاءهم النبي محمد الذي عرفوا صفاته ونبوته من التوراة معرفة لا يخالجهما ريب كفروا بنبوته حسداً منهم للعرب لأنه جاء منهم ولم يأت من بني إسرائيل ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فهلاك لهؤلاء وبعد لهم عن رحمة الله، وقال سبحانه ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل عليهم ليُشعِرَ بأن سبب حلول اللعنة عليهم هو كفرهم.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ بئس: فعل يستعمل للذم. واشتروا هنا بمعنى باعوا، ذلك أن اليهود لما دعاهم الله إلى الإيمان الذي يفضي إلى سعادتهم وحذرهم من الكفر الذي يؤدي إلى شقائهم، اختاروا الكفر على الإيمان فكأنهم باعوا الإيمان والحق وأخذوا مكانهما الكفر والباطل، فبئس كفرهم بما أنزل الله على محمد الذي باعوا به أنفسهم مقابل تصديقهم بنبوة محمد ومناصرتهم له ﴿بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ البغي: الظلم أو الحسد، والفضل في الآية هو الوحي الإلهي. فاليهود كان سبب كفرهم هو الحسد من أن ينزل الله الوحي على من يختاره من عباده وهو محمد ﷺ، فقد حسده اليهود على النبوة التي أنعمها الله عليه لأنه لم يكن من بني إسرائيل. فالنبي محمد يرجع نسبه إلى إسماعيل عليه السلام، وهو أخو جدهم إسحاق عليه

السلام وكلاهما وَلَدَا إبراهيم عليه السلام، وهم كانوا يريدون أن تقتصر النبوة عليهم من ولد إسحاق ولا تنتقل منهم إلى العرب ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ أي فرجعوا بغضبٍ على غضبٍ من اللد، أي غضب مضاعف، فهم كفروا بعيسى عليه السلام، كما كفروا بالنبي محمد ﷺ وكأن كفرهم باقى ومستمر، فحقَّ عليهم غضب الله وكان غضباً متكاثراً بالنظر لتعدد أسبابه ﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ الكافرون هنا هم اليهود المتحدث عنهم، فهؤلاء لهم عذاب مذلّ جزاء كفرهم واستكبارهم، وهذا العذاب يشمل عذاب الدنيا والآخرة.



﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ \* وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَتُسَمَّيَاْمُرُكُمْ بِهِ إِمْنَاكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ \*

### شرح المفردات

ويكفرون بما وراءه: ويكفرون بما جاء بعده.

الْبَيِّنَات: بالمعجزات الدالة على نبوته.

الطُّور: اسم جبل.

اسْمَعُوا: اسمعوا ما تؤمرون به سماع قبول وطاعة .  
أَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ: تَمَكَّنْ حُبَّ الْعِجْلِ فِي قُلُوبِهِمْ وَخَالَطَهَا .

### عصيان اليهود لربهم وإجرامهم

ويُتَابِع القرآن الكريم الكلام عن بني إسرائيل مبيناً جانباً من جحودهم للحق وإنكارهم لما جاء به محمد من القرآن المنزل عليه من الله :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا﴾ المراد بقوله تعالى : ﴿آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعني بما أنزل الله من القرآن على محمد، والمراد بقولهم ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا﴾ يعني بالتوراة التي أنزلها الله على موسى . والمعنى : وإذا دُعِيَ اليهود إلى التصديق بالقرآن المنزل على رسول الله محمد أجابوا إنهم يؤمنون بالتوراة، وهم أرادوا بذلك أن الله أنزل عليهم التوراة، والقرآن لم ينزل عليهم ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي يجحدون بما سوى التوراة وبما بعدها من كُتُبِ الله التي أنزلها على رسله ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ والقرآن هو الحق من عند الله والحق ضد الباطل ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ وتصديق القرآن للتوراة يدلّ على أنه وحي من عند الله، ويظهر ذلك بما جاء به من قصص الأنبياء التي توافق التوراة في الجوهر وتخالفها فيما نسبت إلى بعض الأنبياء من الفواحش، كما أن القرآن يصدق التوراة في بعض الأحكام، مع العلم أن محمداً كان أمياً لم يتعلم علماً ولا درس على يد أستاذ. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن التوراة ذكرت الكثير من البشارات على مجيء نبي تنطبق صفاته على صفات النبي محمد، وهذا يثبت أيضاً أن القرآن مصدق للتوراة، فمن يدّعي الإيمان بالتوراة يجب عليه الإيمان بأن القرآن منزل من عند الله، لأنهم إذا كفروا بالقرآن الذي يصدق بما معهم من التوراة فكأنهم كفروا بالتوراة .

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود موبخاً لهم: إن كنتم مصدقين بالتوراة فلاي شيء تقتلون أنبياء الله، والتوراة لا تسوّغ قتل الأنبياء؟ وجاءت ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بصيغة المضارع الذي يُفيد الحاضر والمستقبل ليدل على أن قتلهم الأنبياء يتجدد ويقع منهم المرة بعد الأخرى فهو شأن من شؤونهم اعتادوا عليه. وقتل الأنبياء وقع من أسلافهم ويصحّ توبيخ الخلف بما فعله سلفهم متى كان الخلف يمشي على درب السلف، هذا وقد حاول اليهود قتل الرسول محمد ﷺ فأبطل الله مسعاهم.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «إن خطاب الخلف بإسناد ما كان من سلفهم إليهم مقصود لبيان وحدة الأمة وتكافلها وكونها في الأخلاق والسجايا المشتركة بين أفرادها كالشخص الواحد، وبيان أن ما تبلى به الأمم من الحسنات والسيئات إنما هو أثر الأخلاق الغالبة عليها، والأعمال الفاشية فيها منبعثة عن تلك الأخلاق، فما جرى من بني إسرائيل من المنكرات لم يكن مصادفة وإنما كان عن أخلاق راسخة في الشعب تبع الآخرون فيها الأولين»<sup>(١)</sup>.

ثم يُبين القرآن لليهود المعاصرين للنبي محمد ﷺ ما صدر عن أسلافهم من كفر وظلم، وجاء الخطاب لليهود الحاضرين مواجهة بدل الكلام عن أسلافهم بصيغة الغائب لأنهم تطبعوا بأخلاقهم وساروا على خطاهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي ولقد جاءكم يا بني إسرائيل موسى بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقه وصحة نبوته كالعصا التي تحولت إلى ثعبان، ويده التي أخرجها بيضاء للناظرين، والبحر الذي ضربه موسى بعصاه فانفلق

(١) نقلاً عن تفسير المنار.



وصار فيه طُرُقٌ ليسلكها بنو إسرائيل وينجوا من فرعون وجنده، وغيرها من المعجزات ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي ثم اتخذتم يا بني إسرائيل العجل إلهاً من بعد أن فارقكم موسى ماضياً إلى مناجاة ربه ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ وأنتم معتدون على أحكام الدين حيث وضعتكم العبادة في غير موضعها بعبادتكم العجل بدلاً من عبادة الله وحده.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تعملوا بما جاء في التوراة، ورفعنا فوقكم جبل الطور إظهاراً لقوتنا وقدرتنا عليكم وما يمكن أن تفعله هذه القدرة بكم حتى إذا استشعرتكم ذلك آمتتم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي خذوا ما أُمِرتُم به في التوراة بجدٍّ وعزم ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ واسمعوا ما أُمِرتكم به سماع تدبّر وفهم وتقبلوه بالطاعة، ولكن كان جوابهم: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي سمعنا قولك وعصينا أمرك، وجوابهم هذا فيه مبالغة بالكبرياء والعصيان ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ والإشراب هو جعل الشيء شارباً واستعير لجعل الشيء متصلاً بشيء آخر، أي إنّ حبهم العجل خالطهم حتى نفذ إلى قلوبهم كما ينفذ الماء إلى أعماق البدن ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي سبب هذا الحب الشديد لعبادة العجل هو تقليد لساداتهم الفراعنة في مصر، فقد رسخ الكفر في قلوبهم بطول الزمن وتوارثه الأبناء عن الآباء.

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: بئس الذي يأمركم به إيمانكم المزعوم بالتوراة من الأعمال التي تقتربونها المنافية لما جاء في التوراة ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ هذه الجملة فيها قدح وذم في ادّعائهم الإيمان إذ الإيمان لا يسوّغ العمل بالجرائم والمعاصي، فأنتم لستم بمؤمنين.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجَةٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ .

### شرح المفردات

خَالِصَةً: خاصة بكم.  
لَوْ يُعَمَّرُ: لو يطول عمره.  
بِمُزَحَّزَجَةٍ: بِمُبْعِدَةٍ.

### أوهام اليهود

ومن مزاعم اليهود الباطلة أن الجنة لن يدخلها إلا من كان يهودياً وأن الجنة هي خاصة بهم دون الناس جميعاً فأبطل الله هذا الزعم بقوله:

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ﴾ المراد بالدار الآخرة هنا: الجنة، وخالصة: بمعنى مختصة. ومعنى الآية: قل يا محمد لهؤلاء اليهود: إن كان دخول الجنة والتمتع بنعيمها مختصاً بكم فلا يدخلها أحدٌ غيركم ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ والمراد بالتمني هنا: هو التلفظ بما يدلُّ عليه لا مجرد أن يخطر بالقلب وتميل النفس إليه، أي تمنوا الموت بحق إن كنتم صادقين في زعمكم أن الجنة خاصة بكم فإن من أيقن

بدخول الجنة اشتاق إليها وتمنى الحصول عليها ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ أي ولن يتمنوا الموت طالما هم على قيد الحياة لأنهم يعلمون أنهم كاذبون فيما يدعون به، وذلك ﴿بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب ما عملوا من المعاصي الموجبة لدخولهم النار في الآخرة، وعبر عن اقتراف المعاصي بالأيدي لأن معظم الأعمال تتم بالأيدي ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ هذه الجملة فيها وعيد وتهديد لليهود الذين مرّ ذكرهم لأنهم ظالمون في أمرهم كله، والله عليم بسائر أحوالهم.

لنقف عند قوله تعالى ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ فإنه معجزة من معجزات القرآن لأنه إخبار بالغيب عنهم بأنهم لن يتمنوا الموت ولو بألسنتهم، ولو حصل ذلك لنقل ذلك عنهم وهم الذين يريدون الإساءة إلى الإسلام، كما أن من الممكن أن يفطن اليهود لهذا التحدي ويقولوا: بل نحن نتمنى الموت ونطلبه من الله، ولكن حتى الآن لم يصدر منهم هذا النفي.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ<sup>(١)</sup> أٰخِرَ صَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ أي والله لتجدنَّ يا محمد أولئك اليهود أحرص من جميع الناس على حياة. وتنكير ﴿حَيَاةٍ﴾ للتحقير، أي إنهم أحرص الناس على أية حياة ولو كانت حقيرة وذليلة فهي عندهم خير من الموت. وقيل: أراد بتنكير ﴿حَيَاةٍ﴾ حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي هم أحرص من الذين أشركوا على هذه الحياة، والذين أشركوا هم الذين جعلوا لله شريكاً أو شركاء في خلقه ولا يؤمنون بالبعث ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا.

(١) ولتجدنهم: اللام الداخلة على تجدنهم للقسم، والنون للتوكيد.

وقد ذكر الله المشركين بوجه خاص للمبالغة في توبيخ اليهود على شدة حرصهم على الحياة حيث إن أولئك المشركين لا يؤمنون بحياة أخرى بعد الموت، لذا فإن حرصهم على طول البقاء في الدنيا غير مُستغرب بالنسبة لكفرهم، فإذا زاد حرص اليهود على الحياة على المشركين - واليهود لهم كتاب إلهي يقر بالبعث - كان في ذلك تصوير لمبلغ جشعهم وحرصهم على الحياة ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي بلغ من شدة غلو اليهود في الحرص على الحياة أن الواحد منهم يتمنى أن يعيش السنين الكثيرة ولو تجاوزت أقصى حد لا يبلغه الإنسان في عمره. وإنما خص الألف سنة بالذكر لأن العرب كانت تذكر ذلك عند إرادة المبالغة ﴿وَمَا هُوَ بِمُرْخِزِجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ وما ذلك التعمير الطويل لو تم لإنسان مُذنب بمُبعده أو مُنْجيه من عذاب الله يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ وبصير هنا بمعنى عليم، وهذا تهديد ووعد لهم فهو سبحانه عالم بأعمالهم علم من يبصر ويُدقق لا تخفى عليه خافية من أمرهم وسيجازيهم الله بما يستحقون من عقاب.



﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

### شرح المفردات

جبريل: ملك من ملائكة الله، أمين على تبليغ الوحي بين الله ورسوله.

مُصَدِّقًا لما بين يديه: مُؤَيِّدًا ما تقدمه من الكتب السماوية.

ميكال: الملك ميكائيل.

بَيِّنَات: واضحات.

الْفَاسِقُونَ: الخارجون عن طاعة الله.

نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ: طرحوه جانباً ونقضوه.

### عداوة اليهود لجبريل ونبذهم للعهد

ومن قبائح اليهود قولهم في الملك جبريل عليه السلام هو عدونا، وأرادوا من هذا القول أنهم لا يؤمنون بوحي من الله يأتي به عدوهم، وبالتالي يكون لهم في نظرهم عذر برفض نبوة محمد الذي يتلقى الوحي من ربه بواسطة جبريل عليه السلام.



وقد روي أن اليهود قالوا للنبي محمد ﷺ: إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحي، فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: جبريل، قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدونا! لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة لتابعناك على دينك فأنزل الله قوله:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الضمير في ﴿نَزَّلَهُ﴾ عائد على القرآن، ويكون المعنى: قل يا محمد من كان عدوًّا لجبريل فلا وجه لعداوته ولا سبب لذلك لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه وإنما نزل بأمر الله الذي تجب طاعته ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهذا القرآن مؤيد لما سبقه من الكتب السماوية ومنها كتاب التوراة، وتأيد القرآن لها موافقته لما جاء فيها من وحدانية الله وأصول الدين الصحيح والأخلاق الكريمة وإذا وجد ما يُنافي هذه الأمور فإن سببه ما دخل عليها من تبديل وتحريف وتأويلات باطلة ﴿وَهَدَىٰ وَبُشِّرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن القرآن بالإضافة إلى ما سبق هو مرشد إلى سُبُل الخير والسعادة كما أنه يُبشِّر المؤمنين بالجنة في الآخرة.

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ هذا إعلام من الله بأن من كان عدوًّا لله بمخالفة أمره عناداً والخروج عن طاعته مكابرة وعدوًّا لملائكة الله بإنكار فضلهم ومنزلتهم عند الله، وعدوًّا لرسول الله بتكذيبهم وعدم اتباع ما جاءوا به من الهدى، وعدوًّا للملكين جبريل وميكائيل خاصة، وإنما خصَّهما الله بالذكر مع اندراجهما تحت عموم الملائكة لقصد التشريف لهما والدلالة على فضلهما ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي إن عداوة كل من ذكرته الآية هو كفر، ومن عاداهم عاداه الله وعاقبه أشد العقاب على كفره.

فألله سبحانه يريد أن يُبين أن اليهود أعداء الحق وأعداء كل من يمثله الحق ويدعو إليه، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكال الذي يزعمون

أنهم يحبونه، ومعاداتهم للرسول محمد كمعاداتهم سائر رسل الله لأن وظيفتهم واحدة.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي ولقد أنزلنا إليك يا محمد آيات القرآن واضحات الدلالة على كونها من عند الله لإعجازها البشر بفصاحتها وبلاغتها، وما تشتمل عليه من العقائد والأحكام الشرعية ومبادئ الأخلاق الكريمة، والعبادات التي تسمو بالروح، فرسول الله محمد الذي أتى بهذا القرآن المعجز لفظاً ومعنى، وهذا يشهد بمصدره الإلهي ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ أي ولا يكفر بهذه الآيات القرآنية البينات إلا الفاسقون وهم المتمردون في الكفر والمعصية الخارجون عن حدود الله وطاعته.

ومن عادة أولئك اليهود أنهم كانوا ينقضون العهود ولا يقومون بالوفاء بها:

﴿أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ والاستفهام في ﴿أَوْكُلَّمَا﴾ للإنكار والتوبيخ ولفظ (كُلَّمَا) لإفادة تكرارهم لنقض العهود.

ونبذ العهد: نقضه وترك العمل به، وإسناد النبذ إلى فريق منهم يؤذن بأن منهم فريقاً لم ينبذه، واليهود يُعاهدون اليوم وينقضون غداً، وكم عاهدوا النبي محمداً مراراً ولم يفوا بما عاهدوه عليه كما فعل يهود بني قريظة ويهود بني النضير مع النبي ﷺ.

واليوم بعد خمسة عشر قرناً يظهر مصداق ما أعلنه القرآن من نقضهم للعهود بأوضح ما يكون، فعشرات المعاهدات التي أبرمت بين العرب واليهود في فلسطين نقضها اليهود الواحدة تلو الأخرى، وهذا يدل على أنهم قوم لا عهد لهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بل أكثر اليهود لا يؤمنون بحرمة عهد ولا بقداسة ميثاق.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الضمير في جاءهم عائد على اليهود والرسول المقصود هنا هو محمد ﷺ. ووصفه بأنه جاء من عند الله تعظيم له والمعنى: ولما جاء اليهود رسول عظيم من عند الله وهو الرسول محمد ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ مصدق لما اشتملت عليه التوراة التي وردت فيها المبشرات بمجيء نبي من العرب تنطبق صفاته على الصفات التي وردت في التوراة ﴿فَبَدَأَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ كتاب الله المراد به التوراة. والمعنى: طرح جانباً فريق من اليهود ما جاء في كتاب التوراة من المبشرات التي تنطبق على النبي محمد ﷺ رافضين لها ومستخفين بها ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي متجاهلين ما ورد في التوراة من هذه المبشرات ومن الدعوة إلى الإيمان بالنبي محمد ﷺ واتّباعه. فاليهود كانوا يعلمون حقيقة نبوة محمد ولكنهم أفسدوا علمهم وجحدوا ما بين أيديهم من الحق وكفروا بنبوة محمد حسداً أن تكون النبوة في غيرهم.



﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

### شرح المفردات

تَتْلُوا: تُحَدِّثُ وتروي.

بَابِلَ: بلدة قديمة كانت بالعراق يُنسب إليها السحر.

فِتْنَةٌ: اختبار وابتلاء.

اشتراه: ابتاعه.

خَلَقَ: نَصِيبٌ مِنَ الْخَيْرِ.

شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ: باعوا به أنفسهم.

لَمَثُوبَةٌ: لَأَجْرٌ وَثَوَابٌ.

### تعاطي اليهود للسحر

من سلوك اليهود المشين نشرهم الفساد في الأرض عن طريق السحر الذي نسبوه إلى النبي سليمان من أجل أن يمنحوه جواً من القبول والتعاطي به. قال الله تعالى في شأنهم:

﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ تتلوا: تحدث وتخبر، وقيل: تفتري، والشياطين: تشمل شياطين الجن والإنس، وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها، والمعنى: إن هؤلاء اليهود نبذوا كتاب التوراة وراء ظهورهم واتبعوا ما كانت تخبره وتحدثه شياطين الإنس على عهد ملك سليمان وفي زمانه من الأكاذيب، ومن ذلك زعمهم أن ملك سليمان قام على أساس السحر، وأنه ارتد في أواخر حياته عن دين الله وعبد الأصنام إرضاء لنسائه الوثنيات ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ رد الله كلام اليهود وكذبهم، ونزه النبي سليمان عن افتراءاتهم وأبعده عن عمل السحر الذي يتعاطاه أولئك الشياطين من الإنس وينسبونه إليه معلناً أن السحر نوع من الكفر.

وقد روي أن شياطين الإنس في عهد سليمان دُونُوا كُتُباً فيها سحر عظيم ثم أذاعوها بين الناس، ثم توارث يهود المدينة المنورة هذه الكتب عن آبائهم وكانوا يشتغلون بما فيها قبل مبعث النبي محمد، ولما بُعث رفضوا كتاب الله الذي جاء به وفضّلوا عليه الاستمرار في مزاولة السحر الذي يحرمه مع أن الديانة اليهودية قامت على إبطال السحر الذي جاء به سحرة فرعون وقررت أن الساحر لا يفلح حيث أتى.

﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السُّحْرَ﴾ أي هؤلاء اليهود الذين تلقوا علم السحر يعلمونه للناس ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ وما: بمعنى الذي، والملكين: قرئ بفتح اللام وكسرهما، فمن قرأها بالكسر جعلهما من غير الملائكة<sup>(١)</sup>، قيل إنهما كانا رجلين وسُمّيا ملكين مع أنهما من البشر لصلاحيتهما وتقواهما واسمهما هاروت وماروت. وليس معنى الإنزال عليهما أنه وحي من

(١) الملك: بكسر اللام تطلق على البشر، أما بفتح اللام فتطلق على الملائكة.



اللَّهُ فَإِنْ كَلِمَةً ﴿أُنْزِلَ﴾ تستعمل في القرآن في مواضع لا صلة بينها وبين وحي الله كما جاء في القرآن ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [الفتح: ٢٦] والمقصود من إنزال السحر على هذين الرجلين المشبهين بالملائكة إلقاؤه في قلوبهما وتعليمهما إياه.

أما على قراءة ﴿مَلَكَيْنِ﴾ بفتح اللام فقد قيل إنهما كانا مَلَكَيْنِ نزلا من السماء وهاروت وماروت اسمان لهما. والسبب في إنزال هذين الملكين أن السحرة كثروا في ذلك الزمان واستنبطوا أبواباً غريبة في السحر وكانوا يدعون النبوة ويتحدّون الناس بها، فبعث الله هذين الملكين لأجل أن يُعلِّمَ الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الذين يدعون النبوة كذباً وليتمكنوا من التفريق بين معجزات الأنبياء والسحر.

وفسرت ﴿وَمَا أُنْزِلَ﴾ بمعنى النفي أي لم ينزل الله على الملكين السحر ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل، فيكون معنياً بـ ﴿الْمَلَكَيْنِ﴾ جبريل وميكائيل لأن سحرة اليهود كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود فكذبهما الله بذلك وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر قط، وبراً سليمان مما اتهموه به من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشيطان، وأن اللذين يعلمانهم ذلك رجالان اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت.

وبابل كانت مدينة بالعراق يسكنها الصابئون الذين يعبدون الكواكب وكان منهم أناس يُزاولون السحر ويدعون الناس إلى الكفر وتقديس الكواكب والشياطين ويسيطرون عليهم بالسحر ليحملوهم على عبادتها.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي إن الملكين هاروت وماروت لا يعلمان أحداً من الناس السحر إلا وينصحانه

بقولهما : إن ما نُعَلِّمُكَ إياه من فنون السحر الغرض منه الابتلاء والاختبار ليطمئن المطيع لله من العاصي ، فحذار أن تستعمله فيما نهيت عنه فتكون من الكافرين ، فتعليم هاروت وماروت للسحر هو تعليم إنذار من السحر لا تعليم دعاء إليه وتعليم لطريق الوقاية منه .

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي إن بعض متعلمي السحر قد استعملوه في إزالة الألفة بين الزوجين ، وإحداث العداوة بينهما فيحصل الفراق بينهما ، وفي إسناد تفريق الزوجين إلى السحرة وجعل السحر سبباً لذلك بيان لمدى ما يصل إليه السحر من الإضرار بالأسرة والمجتمع .

﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي وبالرغم من أن السحر له تأثير في الإضرار بالناس ، فإن الله سبحانه يُخبرنا أن السحرة لا يستطيعون أن يحدثوا بسحرهم ضرراً إلا بإرادته وعلمه وقضائه ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ ويتعلم الناس من السحر الذي يضرهم في دينهم ولا ينفعهم في آخرتهم لأنهم يقصدون بتعلمه الشر والإضرار بالناس .

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ الخلاق: النصيب، أي ولقد علم هؤلاء اليهود الذين اختاروا السحر واستبدلوه بكتاب الله ، أن من يفعل ذلك ليس له حظ من الجنة في الآخرة لأنه ليس له إيمان ولا دين ولا عمل صالح يُثاب عليه ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ شروا<sup>(١)</sup> : باعوا ، وبيع الأنفس مراد به بيع حظوظها من نعيم الجنة في الآخرة مقابل العمل بالسحر الذي يضرهم ولا ينفعهم ، ولو كان عندهم علم وعقل لا امتنعوا عن العمل الذي يفضي بهم إلى عذاب الآخرة .

(١) الاشتراء: من الأضداد يُستعمل في كل من البيع والشراء .

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي لو أن هؤلاء اليهود الذين يعملون بالسحر ويؤثرونه على ما أنزل الله من الهدى، لو أنهم صدّقوا بنبوّة محمد واتبعوه، وصدّقوا بالقرآن الذي فيه هدايتهم، واتّقوا الله بامتنثال أوامره واجتناب نواهيه لكان لهم ثواب وأجر خير لهم من السحر ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي مبلغ ثواب الله وقدر جزائه على طاعته.

ذهب جمهور العلماء إلى أن السحر ثابت وله حقيقة فمن ذلك ما جاء في القرآن من ذكر السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لما أمكن تعليمه ولا أخبر الله أنهم كانوا يعلمونه للناس، فهو علم مكتسب تمارسه بعض النفوس الدنيئة إما بالخداع وتخيل الشيء على غير حقيقته، وقد يكون رقية وكلاماً يتكلم به أو يكتبه أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور، وقد يكون أدوية أو أدخنة أو أطعمة للإضرار بالناس، وهذا الإضرار لا يتحقق إلا بالاستعانة بالشیطان والتقرب إليه بارتكاب القبائح قولاً كالرقى التي فيها ألفاظ الشرك أو عملاً كعبادة الكواكب.

والسحر يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله فمنه ما يُمرض وما يؤثر في الرجل فيمنعه من وطء امرأته، ومنه ما يفرق بين الزوجين أو يلقي البغضاء بينهما.

ذهب الإمام مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يُقتل ولا يستتاب وهو قول الإمام أحمد والشافعي وجملة من الصحابة، والمشهور عن أبي حنيفة أن الساحر يُقتل مطلقاً إذا عُلِمَ أنه ساحر.

## الوقاية من السحر والشرور

إن أهم ما يُتقى به خطر السحر وأنفعه هو التحصن بآيات القرآن الكريم والأدعية الماثورة عن النبي محمد ﷺ:

من ذلك قراءة آية الكرسي، وقد ورد عن النبي ﷺ قوله لأبي هريرة: «إذا أويت إلى فراشك فاقراً آية الكرسي لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك الشيطان حتى تُصبح»<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك قراءة المعوذتين: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ...﴾ إلى آخر السورة و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ...﴾ إلى آخر السورة. وقد رُوي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «كان النبي ﷺ يتعوذ<sup>(٢)</sup> من الجن والإنسان حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا أخذهما وترك ما سواهما»<sup>(٣)</sup>. يقول ابن القيم: إن المعوذتين من السور العظيمة النفع والتي تشتد الحاجة بل الضرورة إليهما، وإنه لا يَسْتَعْنِي عَنْهُمَا أَحَدٌ قَطُّ، وإن لهما تأثيراً في دفع السحر.

ومن ذلك قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة ﴿أَمَّا الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾ إلى آخر السورة، وقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفْتَاهُ»<sup>(٤)</sup> أي كفتاه من كل سوء.

وقراءة سورة الفاتحة ممّا يتحصن به من الشيطان ومن كل شرّ.

ومما يُتقى به السحر الاستعاذة بالله من كل شر، وقد ورد عن النبي ﷺ ما كان يستعيذ به، وما كان يدعو به ربّه، من ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال:

(١) أخرجه البخاري.

(٢) يتعوذ: عاذ، أي لاذّ به ولجأ إليه.

(٣) أخرجه الترمذي.

(٤) متفق عليه.

«كان النبي ﷺ يُعوذُ الحَسَنَ والحُسَيْنَ يقول: «أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَةٍ»<sup>(١)</sup> وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ»<sup>(٢)</sup>»<sup>(٣)</sup>.

وعن عائشة أم المؤمنين: «أن النبي ﷺ كان يُعوذُ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ الْبَأْسَ»<sup>(٤)</sup> وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»<sup>(٥)</sup>.

ومن الأدعية التي وردت عن النبي ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»<sup>(٦)</sup>.

وكذلك وردت عن النبي ﷺ هذه الصيغة: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خُلِقَ»<sup>(٧)</sup>.

## التنجيم

وهناك نوع من السحر يمكن تسميته بعلم التنجيم ويعتمد على مجموعة من الأبراج والكواكب، فلكل برج وضعه الخاص من تدبير الحوادث على الأرض، وقد نهى رسول الله عنه فقال: «مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شَعْبَةً مِنَ السُّحْرِ زَادَ مَا زَادَ»<sup>(٨)</sup> وهذا العلم الذي عدّه رسول الله ﷺ من السحر هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية.

(١) الهامة: ما لها سم كالحية والحشرات.

(٢) عين لامة: العين التي تصيب ما نظرت إليه بسوء.

(٣) أخرجه البخاري وأبو داود.

(٤) البأس: الشدّة، العذاب.

(٥) أخرجه مسلم.

(٦) أخرجه الترمذي وأبو داود.

(٧) أخرجه مسلم.

(٨) أخرجه أبو داود.



وعلم النجوم المنهي عنه هو ما يدّعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان التي يمكن معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها. كما يدّعي أهل التنجيم أن للأبراج روحانيات تؤثر في الحوادث، وجعلوا لها أسماء وقالوا: إن المولود الذي تصادف ولادته برجاً من الأبراج فإن حياته وما فيها من سعادة أو تعاسة تُقرّر بناء على تأثير ذلك البرج في حياة المولود، وقد أطلقوا على هذه الأبراج أسماء: كاسم الحمل، والجوزاء، والأسد، والقوس وغيرها.

وجاء في كتاب (الكون) تأليف كولين رونان ما يلي: «وقد سمى الرومان الكواكب، باستثناء الأرض، على أسماء آلهتهم. والواقع أن أكثر الشعوب القديمة اعتقدت أن الكواكب آلهة لها تأثير في حياة البشر. وخلال مئات السنين كان الناس يعتقدون أن الحظ في الحياة متوقف على موقع الكواكب في المجموعة النجمية عند مولد الشخص، ودراسة النجوم ومدى تأثيرها على مصير الفرد يدعى «التنجيم». . يقوم المُنَجِّمُ بمعرفة مولد الشخص بالضبط ثم يستخرج مواقع الكواكب والنجوم في تلك اللحظة ويستنتج بالتالي مستقبل ذلك الشخص. . ولا يزال هنالك إلى الآن بعض الناس الذين يعتقدون أن الحظوظ يمكن أن تعرف من النجوم. . ولكن الذين درسوا علم الفلك الحديث يعرفون أنه لا صحة للتنجيم على الإطلاق»<sup>(١)</sup>، يقول ابن تيمية: «واعتقاد المعتقد أن نجماً من النجوم السبعة هو المتولي لسعده ونحسه اعتقاد فاسد، وإن المعتقد أنه هو المدبر فهو كافر، وكذلك إذا انضم إلى ذلك دعاؤه والاستعانة به كان كُفراً وشirkاً محضاً. .»<sup>(٢)</sup>.

(١) الموسوعة العلمية الحديثة - الدار الأهلية للنشر والتوزيع.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية - ج ٣٥ - ص ١٧٧.

ويقول الفخر الرازي في تفسيره للقرآن: «لا نزاع بين الأمة في أن المعتقد أن الكواكب هي المدبرة لهذا العالم وهي الخالقة لما فيه من الحوادث والخيرات والشرور فإنه يكون كافراً على الإطلاق وهذا هو النوع الأول من السحر».

ولقد كثر المنجمون في العصر الحاضر وبتعبير آخر (المُشْعُوذُونَ) وألّفوا الكتب في التنجيم مستغلّين سذاجة الناس ممن يغلب عليهم الجهل، ومن العجب أن أي كتاب في التنجيم له من الرواج والمبيعات عشرة أضعاف أي كتاب أدبي!

ولقد حذر الرسول محمد ﷺ من هؤلاء المنجمين الذين يدّعون علم الغيب وأنذر الذين يُصدّقونهم بقوله:

«من أتى عَرَّافاً<sup>(١)</sup> فسأله عن شيء فصدّقه لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة»<sup>(٢)</sup>.  
ويقول الرسول محمد ﷺ أيضاً: «من أتى كاهناً<sup>(٣)</sup> أو عَرَّافاً فَصَدَّقَهُ بما يقول فقد كَفَرَ بما أنزل على محمدٍ»<sup>(٤)</sup>.

(١) عَرَّافاً: العَرَّاف هو المنجم.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) الكاهن عند العرب: هو من يتعاطى التنجيم وعلم الغيب والإخبار عما سيقع.

(٤) أخرجه الإمام أحمد.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا  
 وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ  
 الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ  
 وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾  
 ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ  
 أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ  
 تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ  
 الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ .

### شرح المفردات

راعنا: التفت إلينا وأقبل علينا.  
 أنظرنا: انظر إلينا وأقبل علينا.  
 ما يود: لا يتمنى ولا يحب.  
 ننسخ من آية: نُبطل حكمها ونزيله.  
 ننسها: نتركها ونؤخرها عن النسخ إلى وقت معلوم.  
 ولي: من يلي أمرك ويحفظك.  
 سواء السبيل: طريق الحق المستوي المستقيم.

### مُراعاة الأدب مع رسول الله ﷺ

ثم يوجه القرآن المؤمنين بأن يتخيروا من الكلمات أحسنها، ومن المعاني  
 أرقاها في مخاطبة رسول الله ﷺ، وأن يجتنبوا الكلمات التي يحمل معناها

الأذى لمقامه الكريم، قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾  
خاطب الله أتباع محمد بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليدكرهم بهذا النداء بأن  
الإيمان يقتضي منهم أن يتلقوا أوامر الله بحسن القبول والطاعة. ومن هذه  
الأوامر ما نهاهم عنه ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ وكان المسلمون إذا ألقى عليهم رسول  
الله شيئاً من العلم يقولون: راعينا يا رسول الله، أي راقبنا وتأن بنا حتى نفهم  
كلامك، فنهاهم الله عن التّفوّه بهذه اللفظة لما تحتمل من إساءة للنبي عن طريق  
اليهود.

وكانت لليهود كلمة عبرانية يتسابئون بها فيما بينهم وهي: «راعيانا» ومعناها  
عندهم: اسمع لا سمعت، فلما سمع اليهود بقول المؤمنين لرسول الله  
﴿رَاعِنَا﴾ اتخذوا من هذه اللفظة ذريعة لإهانة رسول الله فجعلوا يخاطبونه بها،  
وقالوا كنا نسبه سراً فالآن نسبه جهراً. وكلمة ﴿رَاعِنَا﴾ قد يريدون بها معنى  
اسم الفاعل من الرعونة التي هي الحمق، فهي الله المؤمنين عن استعمال هذه  
الكلمة ﴿رَاعِنَا﴾ وأمرهم أن يقولوا بدلاً منها ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ أي انتظرنا  
وأمهل علينا يا رسول الله حتى نفهم عنك ونتلقى منك ما تقوله ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي  
واسمعوا أيها المؤمنون سماع قبول وامثال ما يأمركم به رسول الله وما ينهاكم  
عنه بأذانٍ واعيةٍ وأذهانٍ حاضرةٍ ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وللكافرين من  
هؤلاء اليهود عذاب موجه في الآخرة.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا يحب  
الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون بالله من عبدة الأوثان العرب  
﴿أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي أن ينزل عليكم أيها المؤمنون شيء  
من الخير من عند ربكم بغضاً فيكم وحسداً لكم، وأعظم خير ينزله الله على  
المؤمنين هو القرآن الكريم لأنه الهداية العظمى إلى الصراط المستقيم ﴿وَاللَّهُ

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿١٠٤﴾ والاختصاص بالشيء الانفراد به، والرحمة: تشمل النبوة والقرآن والنصر، وهذا كله مما لا يحب الكافرون أن يخص الله به المؤمنين ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ والفضل: هو الخير، أي وإيتاء النبوة لمن يشاء الله من عباده هو الفضل العظيم على من خصه الله به.

### النسخ في القرآن

ثم يردُّ القرآن على بعض ما قاله اليهود عند تحويل القبلة في الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة: إن محمداً يأمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، وإن القرآن من عنده لا من كلام الله، فنزل الوحي الإلهي مبيناً أن النسخ من عنده تعالى لا من عند رسوله محمد ﷺ.

﴿مَا نُنسخ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ النسخ في اللغة: الإزالة والنقل، والمراد بالآية هنا: الجملة القرآنية التي تحتوي على حكم شرعي. ومعنى نسخها: نتركها لا نبدلها ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ أي نأت بما هو خير لكم في المنفعة وأرفق بكم. والمراد بنسخ الآية رفع حكمها مع بقاء تلاوتها، وتارة برفع تلاوتها مع بقاء حكمها، أو رفعهما معاً، وقد يكون النسخ بإبدال آية مكان آية. فما نسخ بحكم أخف فهو في العمل أيسر، وما نسخ بالأشد فهو في الثواب أكثر.

والحكمة في نسخ بعض الأحكام وإبدالها بأحكام أخرى هي اليسر بالناس ومراعاة مصلحتهم، مثال على ذلك الطبيب الذي يُغيّر الأدوية والأدوية تبعاً لاختلاف صحة المريض، فكذاك الأحكام الشرعية قد يتغير بعضها حسب أحوال الأمم والجماعات، والقرآن نسخ جميع الشرائع الإلهية السابقة كالتوراة والإنجيل بأحكام جديدة تناسب جميع الأمم وتصلح لكل زمان ومكان.



﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الاستفهام للتقرير، والخطاب للنبي محمد ﷺ وهو موجه بمعناه إلى أمته، والمعنى: قد علمت أيها المخاطب أن الله قادر على أن يفعل ما يشاء، ومن جملة ذلك أن الله قادر على أن ينسخ ما يشاء من الأحكام وعلى الإتيان بما هو أنفع للناس منها.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الاستفهام أيضاً للتقرير، أي قد علمت أيها المخاطب أن الله له التصرف في السماوات والأرض بالإيجاد والاختراع يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فهو أعلم بمصالح عباده وما فيه النفع لهم من الأحكام التي شرعها لعباده ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وما لكم أيها المؤمنون من مالك يتولى أموركم غير الله، ولا نصير لكم سواه يعينكم على أعدائكم، ومن كان الله وليه ونصيره كفاه الله من كل شر.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ استفهام للإنكار أي أتريدون أيها المسلمون أن تسألوا رسول الله محمداً وتقرحوا عليه أسئلة تتنافى مع الإيمان الحق كما سُئِلَ موسى قبلكم من قومه حيث قالوا له ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وقالوا له ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وهذا رد على ما قاله بعض المرتابين بنبوة محمد ﷺ حيث قالوا له:

ائتينا بكتابٍ غير هذا ينزل عليك من السماء نقرأه، وفجر لنا أنهاراً فعندها نتبعك ونصدقك ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ ومن يستبدل الكفر بدل الإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي فقد حاد وعدل من حيث لا يدري عن الطريق المستقيم الموصل إلى معالم الحق والهدى. وسواء السبيل: وسط الطريق الذي هو بين الغلو والتقصير.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ  
 إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ  
 الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ  
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ  
 مِّنْ خَيْرٍ يَّجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾  
 وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ  
 أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ  
 مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ  
 عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ  
 وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ  
 قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا  
 كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ .

### شرح المفردات

ودَّ: تمنى وأحب.

حتى يأتي الله بأمره: حتى يأتي أمر الله بالإذن في قتالهم.

هوداً: أي يهوداً.

برهانكم: دليلكم.

أسلم وجهه لله: أخلص عبادته لله وخضع له بالطاعة.

### حسد اليهود للمسلمين وأمانيتهم الباطلة

ويتابع القرآن فيذكر بعض نيات اليهود السيئة نحو المسلمين وهي تمنيتهم

ارتدادهم عن دينهم الحق، قال الله تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ وَدَّ:

تمنى وأحبَّ، وأهل الكتاب المراد بهم هنا اليهود، والمعنى: تمنى كثير من اليهود أن يرجعوكم أيها المسلمون من بعد إيمانكم ودخولكم في الإسلام إلى ما كنتم عليه من الكُفر قبل إسلامكم. وفي قوله سبحانه ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ﴾ بيانٌ لقبح سلوك اليهود لأنهم أهل كتاب إلهي، فكيف يرتضون لغيرهم الكفر بدل الإيمان، علماً بأن دينهم يذم الكفر ويدعو إلى الإيمان، والمؤمنون العرب كانوا من قبل أن يؤمنوا بوحدانية الله وبنبوة محمد ﷺ كانوا يعبدون الأصنام، كما أن ما يتمناه اليهود من رجوع المؤمنين العرب عن دينهم متعذر الحصول، لأن الإيمان بالله متى استحوذ على القلوب منع صاحبه من الكفر.

وتمنى اليهود للمؤمنين العرب بالرجوع عن دينهم سببه الحسد كما صرحت الآية ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي إن هؤلاء اليهود لم يؤمروا بذلك، بل إن الحسد رسخ في قلوبهم مع علمهم بنهي الله عنه، والحسد هو تمنى زوال النعمة عن الغير، ودلّ هذا الحسد على أنهم يُوقنون بصحة دين الإسلام، لأن الإنسان لا يحسد إنساناً آخر على دينه إلاّ لأنه يعرف في نفسه صحة هذا الدين، وأنه سبيل السعادة والنجاح، فلو كان الإسلام ديناً باطلاً فكيف يحسدونهم عليه؟ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي من بعد ما اتضح لهم الحق الذي أنتم عليه - أيها المسلمون - وذلك استناداً إلى ما جاء في كتب اليهود الإلهية من البشارات على مجيء نبيٍّ من العرب تنطبق صفاته على صفات النبي محمد ﷺ، وما ظهر على يديه من المعجزات التي أيده الله بها ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ أي فتجاوزوا أيها المسلمون عما كان من اليهود من عداوة وحسد لكم، والعفو ترك العقوبة على الذنب، والصفح: ترك التأنيب عليه ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ حتى يأذن الله لكم بالقتال للذين يُناصبونكم العداة ويضمرون لكم الشرّ، وذلك عندما

يصبح لكم قوة تتمكنون بها من قهر عدوكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن كل شيء في الوجود داخل تحت سلطان الله وقدرته التي لا تقهر.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي أدوا الصلاة كاملة مع الخشوع لله سبحانه وأعطوا زكاة أموالكم للفقراء والمحتاجين بما يسد به عوزهم.

﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هذه الجملة مُرَغَّبَةٌ في فعل الخير الذي يتناول أعمال البر كلها وقال سبحانه: ﴿لَأَنفُسِكُمْ﴾ تنبيهاً على أن ما يُقدّمونه من خير إنما هو لمصلحة أنفسهم. والذي يجدونه عند الله هو ثواب ما يقدمونه من العمل الصالح ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فالله يخبر المؤمنين بأنه بصير بجميع أعمالهم ليحرصوا على طاعته وليحذروا معصيته.

ثم يُبين القرآن نوعاً آخر من أباطيل أهل الكتاب:

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ في هذا الكلام حذف، وأصله: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، ولكن الآية أدت هذا المعنى وسلكت طريق الإيجاز فعبرت عن القولين في جملة واحدة ﴿تِلْكَ أُمَانِيهِمْ﴾ والأمانى: جمع أمنية وهي ما يتمنى، فأمنية اليهود دخول الجنة وحدهم وأمنية النصارى كذلك وأمنيتهن جميعاً ألا يدخلها المسلمون، وما يتمنونه هو أوهام كاذبة لا أساس لها ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: أحضروا حُججكم وأدلتكم على اختصاص دخول الجنة بكم وحدكم إن كنتم صادقين فيما تدّعون. ويؤخذ من الآية بطلان التقليد الأعمى في أمور الدين، وهو قبول قول الغير مجرداً من الدليل.

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ بلى: تأتي جواباً للنفي، فعندما نفى اليهود

والنصارى دخول الجنة عن غيرهم جاء الجواب: بلى، أي كذبتُم في قولكم بل يدخل الجنة من أخلص نفسه وذاته لله فأمن به وأطاعه ونَزَّهَهُ عن الولد وخصَّ الوجه بالذكر لأنه أشرف أعضاء الإنسان وموضع العقل والفكر، كما يَكْنَى بالوجه عن ذات الإنسان ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي عاملٌ للحسنات تاركٌ للسيئات ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فله ثواب عمله عند ربه بدخول الجنة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي من أهوال يوم القيامة ولا من عذاب النار ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما تركوا وراءهم من الدنيا من مالٍ ومقتنياتٍ فقد عَوَّضَهُمُ اللَّهُ بأحسن مما كانوا فيه.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ في هذا النص القرآني يتهم اليهود والنصارى بعضهم بعضاً بالضلال وأنهم ليسوا على شيءٍ صحيحٍ يُعْتَدُّ به من أمور الدين.

وقد رُوِيَ أن وفد نجران النصارى لما قدموا على رسول الله أتاهم أخبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيءٍ من الدين وكفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل، وقالت النصارى لهم نحوه وكفروا بموسى عليه السلام والتوراة ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ يتلون: يقرأون، فاليهود يقرأون التوراة والنصارى يقرأون الإنجيل، أي إنهم أهل العلم بالتوراة والإنجيل، ومن كان تالياً للكتاب السماوي فشأنه أن يعترف بما في كتاب سماوي مثله إذ الكتب السماوية يصدَّق بعضها بعضاً بما تشتمل عليه من الحق ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ والذين لا يعلمون الذين ذكرتهم الآية هم مُشْرِكُو العرب، فإنهم كانوا يقولون للمسلمين: لستم على شيءٍ من الدين أي إن دينكم باطل، والهدف الذي ترمي إليه الآية هو أن إنكار اليهود والنصارى لنبوة محمد لا ينبغي أن يُثير شبهة على عدم صحة نبوته والدين الذي جاء

به ، فسبيلهم في إنكار الإسلام كسبيل المشركين الذين أنكروه عن جهالة به وكان الأخرى بهم أن يؤمنوا به لأنهم أهل علم بكتب الله ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي فالله يقضي ويفصل بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمور الدين فيشيب من كان على حق ويعاقب من كان على باطل .



﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ .

### شرح المفردات

وَمَنْ أَظْلَمُ: استفهام إنكاري بمعنى النفي، أي لا أحد أكثر ظلماً.

خِزْيٌ: ذُلٌّ وهوان.

واسع: من أسماء الله سبحانه، أي إن إنعامه ورحمته وسعت كل شيء.

قانتون: مُنقادون خاضعون.

بديع: الذي يحدث الأشياء على غير مثال سابق.



قضى أمراً: إذا أراد شيئاً.

يُوقِنُونَ: اليقين يطلق على العلم الذي انتفت عنه الشكوك.

### التحذير من العدوان على معابد الله

وبعد أن بيّن القرآن موقف اليهود من النصارى وموقف النصارى من اليهود وموقفيهما من الإسلام بيّن في الآية التالية فداحة الظلم الذي يتمثل في التعرّض لأماكن العبادة بالخراب ومنع الناس من أداء العبادة فيها، قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾

ومن: استفهام يُراد منه النفي، أي لا أحد أظلم، والمساجد: جمع مسجد وهو البناء الخاص لصلاة المسلمين مأخوذ من السجود، وهو وضع الجبهة على الأرض خضوعاً لله وتعظيماً له، وكل موضع طاهر من الأرض يمكن أن يُعبد الله فيه يسمى مسجداً<sup>(١)</sup>. ومعنى الآية: لا أحد أظلم ممن يحول دون ذكر الله في أماكن العبادة ويسعى في خرابها بإلقاء القاذورات فيها أو إغلاقها، أو الحيلولة دون دخول العابدين فيها ﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أي أولئك الممانعون المخربون للمساجد<sup>(٢)</sup> ما كان ينبغي لهم دخولها إلا وفي قلوبهم خوف من الله، ولكن قست قلوبهم وعملوا على منع الناس من العبادة فيها ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي لهؤلاء المخربين للمساجد في الدنيا هوان وذلة، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم لا يوصف لشدة هوله.

هذه الآية نزلت في كفار قريش لما منعوا رسول الله والمسلمين أن يدخلوا المسجد الحرام بمكة وأداء العمرة فيه عام الحديبية.

(١) وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَتَرَابُهَا طَهُوراً».

(٢) يقول القرطبي: والذين يبنون مسجداً إلى جنب مسجد أو قرية يريدون بذلك تفريق أهل المسجد الأول وخرابه واختلاف الكلمة فإن المسجد الثاني يُنقض ويمنع بنيانه.

وقيل: وردت في شأن الرومانيين الذين غزوا بني إسرائيل وخربوا بيت المقدس، وقيل: إن الآية منبئة بأمر سيقع وهو ما كان من إغارة الصليبيين على بيت المقدس وتخريبه.

فالآية التي معنا ناطقة بوجوب احترام كل معبد يُذكر فيه اسم الله تعالى بالصلاة والتسبيح، وتحريم السعي في خراب المعابد، والحكم على الذين يصدون الناس عنها ويسعون في خرابها بكونهم أظلم الناس، وهذا ما يفعله اليهود في عصرنا الحاضر من محاولة تخريب المسجد الأقصى وإحداث الحرائق فيه وتدنيسه من بعض أركان السلطة فيهم، ومنع قسم من فئات المسلمين من الصلاة فيه، بينما الإسلام يدعو إلى احترام كنائس أهل الكتاب وبيعتهم<sup>(١)</sup> والمحافظة عليها من كل سوء.

ولما كانت الآية السابقة قد أفادت أن بعض الظالمين قد يمنعون المصلين من الصلاة في مساجد الله جاءت الآية التالية تفيد بإباحة الصلاة في أي مكان في الأرض غير المساجد، قال الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ المشرق والمغرب: مكان شروق الشمس ومكان غروبها ويُراد منهما جميع الأرض. وجه الله: أي الجهة التي ارتضاها الله وأمر بالتوجه نحوها في الصلاة وهي الكعبة وتسمى القبلة، والمعنى: إن جميع ما في الأرض مُلْكُ الله وحده، ففي أي مكان من الشرق والغرب استقبلتم جهة الكعبة قبلتكم في الصلاة التي أمركم الله بالتوجه نحوها ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ فهناك موضع رضاه وثوابه وجهة رحمته التي يوصل إليها بطاعته.

(١) يَبْعُهُمْ: جمع بَيْعَةٍ وهي مكان العبادة لليهود.

وجاء في تفسير المنار في توضيح ذلك: «إن من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود، ولما كان سبحانه مُنَزَّهاً عن المادة والجهة واستقباله بهذا المعنى مستحيلاً شرع للناس مكاناً مخصوصاً يستقبلونه في عبادتهم إياه وجعل استقبال ذاك المكان كاستقبال وجهه تعالى» ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي إن الله يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود، وهو عليمٌ بأفعالهم لا يغيب عنه منها شيء أينما كانوا.

وفي أسباب نزول هذه الآية ما روي عن بعض الصحابة قولهم: كنا مع رسول الله في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة! فصلى كلُّ رجلٍ منا على حياله ثم أصبحنا فذكرنا ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وروى أن هذه الآية نزلت في قوم غميت عليهم القبلة فلم يعرفوا جهتها فصلُّوا على أنحاء مختلفة، فقال الله عز وجل لهم: لي المشارق والمغارب فأنى وليتم وجوهكم فهناك وجهي وهو قبلتكم، مُخبرهم بذلك أن صلاتهم صحيحة ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وهو سبحانه واسع إنعامه ورحمته لا يضيق على عباده، وهو عليم بنية من يتجه إليه بالعبادة.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ والذين قالوا اتخذ الله ولداً هم اليهود والنصارى والمشركون، فقد ذكر الله عن اليهود أنهم قالوا: عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ، وعن النصارى أنهم قالوا: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وعن المشركين أنهم قالوا: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً لله وتبرئة له مما ينسبون له من الولد ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والله سبحانه لا يصح أن يكون له ولد لأنه مالك السماوات والأرض، وهو سبحانه ليس بحاجة إلى اتخاذ الولد، إذ الولد إنما يرغب فيه الوالد ليحيى ذكره أو ليستعين به على القيام بأعباء الحياة والله تعالى مُنَزَّهٌ عن أمثال هذه الأغراض التي لا تليق إلا بمن كان ضعيفاً كالإنسان. ثم إن الحكمة

من التوالد بقاء النوع الإنساني أو الحيواني ، أما الله سبحانه فهو الواحد في ذاته وصفاته الباقي على الدوام ﴿كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ والقنوت هو الطاعة والخضوع ، أي إن كل ما في السماوات والأرض مطيعون لله خاضعون له لا يستعصي شيء منهم على مشيئته ، فخضوع الكائنات لربها واحتياجها إليه ليس له حدود .

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومُنشئهما على غير مثال سابق ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ إذا أراد الله خلق شيء وإيجاده ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ المراد من هذه الكلمة سرعة نفاذ قدرة الله في تكوين الأشياء بلا فكرة ومعاناة وتجربة ، وبلا مهلة ، من غير امتناع ولا توقف .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي وقال الجهال من المشركين أو المتجاهلون من أهل الكتاب الذين لا يعلمون حقيقة التوحيد والنبوة ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ أي هلاً يُكَلِّمُنَا اللَّهُ بلا واسطة كما يكلم الملائكة ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ أو تأتينا معجزة تكون حجة على صدق نبوتك يا محمد ، قالوا ذلك على وجه العناد والاستكبار ، وهو جحود منهم من أن تكون آيات القرآن والمعجزات التي أيده الله بها دليلاً على صدق نبوته ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا القول من الجحود والمكابرة قاله الذين كفروا من الأمم السابقة ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تشابهت قلوب قومك يا محمد مع قلوب الذين من قبلهم من الأمم السابقة في الكفر والعناد والمكابرة ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي بين الله العلامات التي من أجلها غضب على الأمم السابقة بسبب كفرها وعنادها وتكذيبها لرسله للطالبيين معرفة حقائق الأشياء عن علم ثابت لا يدخله الشك .

ثم خاطب الله رسوله محمداً بقوله : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾

أي إنا أرسلناك يا محمد داعياً إلى دين الإسلام وهو الحق، مبشراً من اتبعك فأطاعك بالسعادة في الدنيا، والنعيم الدائم في الآخرة، ومخوفاً ومحذراً من عصاك فخالفك بالخزي في الدنيا والشقاء فيها، والعذاب المهين في الآخرة.

﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ ولست مسؤولاً يا محمد عما كفر بما جئت به من الحق وكان بكفره من أهل الجحيم، والجحيم اسم من أسماء جهنم، وجهنم هي النار التي يُعَذَّب بها الكفار في الآخرة.



﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْمُهْدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٢١) الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢٢﴾ يٰبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٣﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١٢٤).

### شرح المفردات

مِلَّتَهُمْ: المِلَّة هي الدين.

يتلونه حق تلاوته: يقرأونه حق قراءته فلا يُحَرِّفونه.

على العالمين: أي العالمين في زمانهم.

لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا: لا تحمل نفس أخرى شيئاً من جزاء عملها.

ولا يقبل منها عدل: ولا يقبل منها فداء.

### إصرار أهل الكتاب على ضلالهم

كان النبي محمد ﷺ حريصاً على دخول أهل الكتاب من اليهود والنصارى في ملة الإسلام، وكان يسلك معهم كل الأساليب الحسنة لترغيبهم بالإسلام، ولكن دعوته لهم كانت تقابل بالعناد والجحود والأذى له مما كان يدخل الأسى إلى قلبه، فجاءت الآية التالية تواسي النبي محمداً ﷺ وتبين حقيقة توجهاتهم نحوه، قال الله تعالى:

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ المِلة: اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه وعلى ألسنة رسله. فقد نفى القرآن رضى اليهود والنصارى عن النبي ﷺ على وجه المبالغة، إذ علق رضاهم عنه على أمرٍ مستحيل صدوره، وهو اتباع النبي لميلتهم، وهذه حقيقة تُنبئ عما يدور في نفوسهم، فهم لا يرضون عن أحدٍ حتى يتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ أي قل لهم يا محمد: إِنَّ هُدَى اللَّهِ وهو القرآن الذي أنزله الله عليك هو الهدى الذي يجب اتباعه.

﴿وَلَنْ اتَّبِعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ولئن: مكونة من لام القسم وإن الشرطية. وأهواءهم: آراؤهم المنحرفة عن الحق الصادرة عن شهوات أنفسهم، والمعنى: قسماً لئن اتبعت يا محمد أهواءهم وديانتهم التي دخلها الكثير من التبديل والتغيير بعد الذي جاءك من العلم بحقيقة الإسلام ﴿وَمَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ليس لك من غير الله من يلي أمرك، ولا نصير يدفع عنك عقابه. والخطاب هنا وإن كان للنبي ﷺ إلا أن المراد به أمته فهو تحذيرٌ لها من اتباع أهواء أهل الكتاب.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ والكتاب هنا المراد به التوراة والذين أعطاهم التوراة قد يُراد بهم علماء بني إسرائيل كعبد الله بن سلام



وأصحابه الذين دخلوا في الإسلام. والتلاوة: الاتباع أي هؤلاء يتبعون كتاب الله حق اتباعه فيُحِلُّون حلاله ويُحَرِّمون حرامه، وتأتي التلاوة بمعنى القراءة، أي يقرأون كتاب الله كما أنزله سبحانه، لا يُحَرِّفُونَ الكلم عن مواضعه، ولا يفسرون منه شيئاً على غير تأويله ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي هؤلاء يُصَدِّقُونَ نبوة محمد لأن في التوراة نعتة وصفاته وهي تأمر أهلها بالإيمان به ووجوب طاعته ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي ومن يجحد نبوة محمد فهم الخاسرون في الآخرة إذ يفوتهم ما أعد الله للمؤمنين من نعيم دائم.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ سبق تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم، وإسرائيل هو النبي يعقوب عليه السلام، وهنا كرر ذكر هذه النعم تأكيداً لوجوب شكرها وحثاً لهم على طاعة الله، ومن هذه النعم نجاة آبائهم من ظلم فرعون وقومه، وإنزال المن والسلوى وهم تائهون في الصحراء، وتمكينهم من السكن في البلاد التي دخلوها معززين مكرمين بعد أن كانوا أذلاء مستعبدين في مصر ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ كما أن الله فضلهم على عالم زمانهم حينما اتبعوا رسول الله موسى وصدقوا بالتوراة التي أنزلها الله عليه واتبعوا ما فيها من الهدى.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ واليوم المذكور في الآية هو يوم القيامة، واتقاء يوم القيامة وما فيه من أهوال يكون بأداء الواجبات التي فرضها الله واجتناب المحظورات التي نهى الله عن فعلها، وفي هذا اليوم الذي يُحاسب الله فيه الناس على أعمالهم لا تحمل فيه نفس غير مذنبية عن نفس مذنبية شيئاً من الجزاء والعقاب ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ ولا يقبل من النفس المذنبية فدية للنجاة من عذاب الله إذا كانت من أهل الظلم والعدوان في الدنيا ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ وهذه النفس المذنبية لا ينفعها شفاعاة من أحد ﴿وَلَا هُمْ

يُنْصَرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَلَا يَجِدُونَ نَاصِرًا لَهُمْ يَنْصَرُهُمْ وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ لِأَنَّهُمْ فَرَّطُوا فِي جَنْبِ اللَّهِ وَلَمْ يَرَاعُوا حَقَّوْهُ فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ .



﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِن الثَّمَرَاتِ ۖ مَنْ ءَامَنَ مِنهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ .

### شرح المفردات

- ابتلى إبراهيم ربه: اختبر الله إبراهيم وامتحنه.
- بكلمات: بأوامر ونواهٍ كلفه الله بها.
- فأتمهن: أتى بهن على الوجه الأكمل.
- إماماً: قدوة للناس.
- عهدي: العهد هنا: الإمامة والنبوة.
- البيت: المراد به الكعبة.
- مثابة للناس: مرجعاً لهم للعبادة.
- مقام إبراهيم: هو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عند بناء الكعبة.
- وعهدنا: أي أمرنا أمراً مؤكداً.
- للطائفين: للذين يطوفون حول الكعبة.
- العاكفين: الملازمين للمسجد زمناً ما للعبادة.
- أضطره: ألجته.

## استجابة إبراهيم لأوامر ربه

وبعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة، نِعْمَهُ على بني إسرائيل وكيف كانوا يقابلون النعم بالكفر والعناد، أتبع الكلام عنهم بذكر فضائل النبي إبراهيم عليه السلام ومنزلته عند ربه، قال تعالى:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ الابتلاء: الاختبار والامتحان، أي واذكر يا محمد وقت أن امتحن الله نبيه إبراهيم بأوامر دعاه إلى أدائها ونواه دعاه أن لا يقربها وهذه الأوامر والنواهي هي شرائع الإسلام ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي أتى بهن على الوجه الأكمل، وقام بهن أتم قيام، وقد أثنى الله على إبراهيم بما جاء في القرآن ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي قال الله: إني مُصَيِّرُكَ يا إبراهيم إماماً، وهذا نتيجة لنجاحه في اختبار الله له، والإمام: هو القدوة الذي يؤتم به في أقواله وأفعاله، وإمامة إبراهيم هي النبوة فقد كان نبياً يقتدى به في اتباع دين الله ومكارم الأخلاق ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ هذا القول من إبراهيم عليه السلام يحتمل أن يكون دعاء، أي: واجعل لي يا رب من ذريتي إماماً، ويحتمل أن يكون هذا القول: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ المقصود منه الاستفهام، أي ومن ذريتي ماذا يكون يا رب حالهم، فأجابه الله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فالعهد هنا مراد به: الإمامة أو النبوة، وفي الآية إيجازٌ بديع: إذ المراد إجابة طلب إبراهيم من الإنعام على بعض ذريته بالإمامة أو النبوة، وقد نال النبوة من ذريته كلٌّ من إسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، ويوسف وغيرهم، كما تدل الآية صراحة على أن الظالمين من ذرية إبراهيم ليسوا أهلاً لأن يكونوا أئمة يُقتدى بهم، والظلم يعني: كبائر المعاصي، والخروج عن طاعة الله والتعدي على حقوق الناس. وقد استدل بهذه الآية جماعة من العلماء على أن الإمام يجب أن يكون من أهل

العدل والإحسان مع القوة على القيام بذلك، فأما أهل الفسوق والظلم فليسوا أهلاً للإمامة. ثم انتقل القرآن إلى الكلام عن الكعبة ومزاياها:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ والبيت في الآية: الكعبة، أي واذكروا وقت أن حكمنا وقررنا بأن يصير بيت الله الحرام مرجعاً يرجع إليه الزوّار أفواجاً بعد أفواج فلا يقضون منه وطراً، أو موضع ثواب يثابون عليه. وكونه مثابة للناس أمر معروف في الجاهلية والإسلام وهو يصدق برجوع بعض زائريه إليه وحنين غيرهم وتمنيهم له عند عجزهم عنه ﴿وَأَمْنًا﴾ أي موضع أمن، فالحج إليه يجعل الحاج مطمئناً إلى رحمة الله فإنه مُكَفَّرٌ لكثير من الذنوب، ومن لاذ به كان آمناً من ظالميه، فقد كان العرب في الجاهلية يقتتلون ويغير بعضهم على بعض وأهله آمنون ومن دخله كان آمناً من التشفي والانتقام.

﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ مقام إبراهيم هو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم حين ارتفعت جدران الكعبة فاحتاج إليه ليتيسر له وضع الحجارة في مكانها ليتم البناء، وكان ولده إسماعيل يساعده فيناوله تلك الحجارة، أي اتخذوا من موضع قيام إبراهيم لبناء الكعبة موضعاً للصلاة، وقد ورد في الحديث الشريف أن رسول الله طاف بالبيت سَبْعاً وصلى خلف المقام ركعتين، ومنهم من فسر مقام إبراهيم بمواقف الحج كلها.

﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي﴾ أي أمر الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يُطَهَّرَا بيت الله الحرام وما حوله من كل ما لا يليق بعبادة الله من الأوثان والأنجاس والخبائث كلها ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ جمع طائف وهو الذي يدور حول الشيء، والمراد: المتقربون إلى الله بالطواف حول بيت الله الحرام ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ جمع عاكف، والعاكف على الشيء هو المقيم عليه

الملازم له، ومعناه المقيمون في الحرم بقصد العبادة ﴿وَالرُّكْعُ السُّجُودُ﴾  
الرُّكْعُ: جمع راع، والسجود، جمع ساجد، والركوع والسجود من هيئات  
الصلاة وأركانها، وإنما عبر عن المصلين بالرُّكْع والسجود لأن أبرز معاني  
العبادة والخضوع لله في الصلاة تظهر في الركوع والسجود.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أي واذكروا حين دعا إبراهيم  
رَبَّهُ قائلاً: رَبِّ اجْعَلْ مكة بلداً آمناً، وهذا الدعاء من جوامع الكلم فإن أمن  
البلاد يستتبع سعادة الحياة الدنيا والرخاء فيها، كما يستتبع الأمن إعمار البلاد  
وزيادة ثرواتها، فإذا اختل الأمن ذهب كل ذلك وأصابها الخوف والشقاء  
 وهجرة السكان منها ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ دعا إبراهيم ربه بأن يجود  
على أهل مكة بأنواع الثمرات لأن مكة لم يكن فيها زرع ولا ثمر. وخص  
إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾  
إظهاراً لشرف الإيمان وعلو مكانته ومراعاة لحسن الأدب مع ربه وإيداناً بأنهم  
هم المستحقون لهذا الرزق دون من سواهم من الكافرين. فأجاب الله إبراهيم  
﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتَةُ قَلِيلًا﴾ أي إن الله يرزق الكافر أيضاً في الدنيا كما يرزق  
المؤمن، والمتاع القليل هو متاع الدنيا ووصفه الله بالقلّة لأنه صائر إلى نفاذ  
وانقطاع، ثم عقب الله على ذلك بقوله ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيُشْسَ  
الْمَصِيرُ﴾ أي ثم أدفع ذلك الكافر وأسوقه مرغماً إلى عذاب النار، ويُشْس  
المصير الذي ينتهي أمره إليه.



﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ (١٢٩)﴾ .

### شرح المفردات

يرفع إبراهيم القواعد من البيت: القواعد: الأسس، جمع قاعدة، ورفعها: البناء عليها.  
والبيت: هو الكعبة.

وأرنا مناسكنا: عَلَّمْنَا شرائع ديننا وأعمال حَجُّنا.  
يُزَكِّيهِمْ: يُطَهِّرُهُمْ من الشرك والمعاصي.

### دعاء إبراهيم وإسماعيل

ويُتابع القرآن فيذكر بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة ودعاءهما بأن يتقبل الله عملهما هذا مع الدعاء بأن يرسل الله إلى العرب رسولا منهم لهدايتهم:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ والقواعد: جمع قاعدة وهي الأساس الذي يُقام عليه البناء، ورفع القواعد هو إعلاء البناء عليها، والبيت هو الكعبة، وقد روي أن أول من بنى الكعبة آدم عليه السلام ثم اندرست معالمها على طول الزمن وبقي أساسها فأوحى الله إلى الملك جبريل أن يُرشد إبراهيم إلى مكانها وأمره بالبناء على أساسها، فشرع إبراهيم بالبناء مع ابنه إسماعيل وهما يدعوان الله ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي ربنا تقبل منا بناء هذا البيت إنك وحدك السميع لأقوالنا، العليم بخفايا قلوبنا، ومن



كان سميع الدعاء عليمًا بالنيّات الصالحة يتفضل باستجابة الدعاء للمخلصين في طاعته، ومن فوائد هذا الدعاء تعليم المؤمنين الاقتداء بإبراهيم وإسماعيل في القيام بالطاعات الشاقة وهم يضرعون إلى الله ويرجون منه قبولها ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ وقولهما ﴿رَبَّنَا﴾ هو دعاء، أي يا ربنا اجعلنا مُسْتَسْلِمَيْنِ لأمرِكَ خاضِعَيْنِ لطاعتِكَ مذعْنَيْنِ لأمرِكَ لا نُشْرِكُ بعبادتك أَحَدًا ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ واجعل يا ربنا من ذريتنا أمةً مؤمنةً بك، مُطِيعَةً أوامرك ونواهيك، ومن ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: العرب، ومنهم بعث الله رسوله محمداً إلى الناس كافة، ومن ذرية إبراهيم بنو إسرائيل فقد بعث الله فيهم أنبياء ورسلاً ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ وأرنا: من رؤية القلب، أو عَلَّمْنَا، والمناسك: هي العبادات كلها ومنها معالم الحج، وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: لما فرغ إبراهيم من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء فبعث الله إليه جبريل فعلمه مناسك الحج ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي وَفَّقْنَا يا ربَّ للتوبة أو تقبّلها منا، والتوبة من الإنسان الندم على ما فعل من ذنب والإقلاع عنه والعزم على عدم العود إليه ورد المظالم إلى أهلها، والتّوّاب: من صيغ المبالغة، أي إنه سبحانه كثير القبول لتوبة عباده المنيبين إليه، وقبول توبتهم يقتضي عدم مؤاخذتهم بما فعلوه من خطيئات سابقة، واختلف العلماء في معنى طلبهم قبول توبتهم وهم أنبياء معصومون عن الخطايا، فقالت جماعة: طلب التوبة المقصود منه التثبيت والدوام على الطاعة، وقيل إنه ليس أحدٌ من خلق الله إلا ويمكن أن يكون بينه وبين الله من طاعة له يجب أن تكون أحسن مما هي، كما أن في هذا الدعاء تعليمًا للناس بأن يدعوا بهذا الدعاء بعد توبتهم.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ ضمير ﴿فيهم﴾ راجع إلى ذريتهما

والمقصود بهم هنا العرب من ذرية إسماعيل، وقد أجاب الله هذا الدعاء فبعث في ذرية إبراهيم وإسماعيل رسولا من أنفسهم وهو محمد ﷺ يعرفون نسبه وسيرته الفاضلة ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط الله المستقيم، وقد كان رسول الله محمد ﷺ يقول عن نفسه: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشاره عيسى بي»<sup>(١)</sup> وبشرى عيسى هي التي ذكرها الله على لسان عيسى بقوله ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ وتلاوة الشيء قراءته، والآيات هي آيات كتابك الذي توحيه إليه، وقد يُراد بالآيات دلائل توحيد الله وتنزيهه عن النقص، والإيمان بالنبوة والبعث بعد الممات ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وقد استجاب الله دعاءهما فأنزل الله على رسوله محمد القرآن الذي علّمه لقومه كما علّمهم الحكمة وهي المعرفة بالدين والفهم لشرعة الله، ومن الحكمة ما كان ينطق به الرسول محمد من المواعظ والإرشادات وهي التي تُعرف بالأحاديث الشريفة التي دوّنت في عدة مجلدات ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهّره من دنس الشرك والمعاصي وينميهم بالخير ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إنك يا رب القوي الغالب الذي لا يعجزه شيء، وإنك يا رب الحكيم في أفعالك فلا يدخل في تدبيرك خلل ولا زلل.

(١) أخرجه الإمام أحمد.

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ  
 اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ  
 لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ  
 بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا  
 وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ  
 إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ  
 ءَابَاؤُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ  
 ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا  
 تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

### شرح المفردات

يرغب: يزهّد وينصرف.  
 مِلَّةُ إبراهيم: شريعة إبراهيم.  
 إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ: امتنها واستخفّ بها، والسَّفَهُ: خِفَّةٌ في العقل.  
 اصْطَفَيْنَاهُ: اخترناه للرسالة الإلهية.  
 إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ: أي أخلص لربك بالعبادة واخضع له بالطاعة.  
 شُهَدَاءَ: جمع شهيد بمعنى شاهد أي حاضر.  
 أُمَّة: جماعة.  
 خَلَتْ: مضت.

### وصية إبراهيم ويعقوب لأبنائهما

ثم يبين القرآن بأن ملة إبراهيم قامت على توحيد الله وإخلاص الطاعة له  
 وأن من ينصرف عنها يكون من جملة الجاهلين بحقائق دين الله:

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ مَنْ: استفهامية قُصِدَ بها الإنكار والتقريع. ورجب في الشيء إذا أراده، ورجب عنه إذا كرهه وانصرفت نفسه عنه ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي لا يكره ملة إبراهيم وينصرف عنها إلى الشرك بالله إلا من امتهن نفسه واستخفت بها. والجملة القرآنية واردة مورد التوبيخ للكافرين الذين أحدثوا الشرك بالله ونسبوا إلى الله الولد، فهؤلاء بفعلهم هذا يؤكدون على خفة عقولهم وجهلهم وعدم التمييز بين النافع والضار حين أعرضوا عن دين إبراهيم دين التوحيد، ودين الخضوع والاستسلام لله وحده.

﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي ولقد اختار الله إبراهيم في الدنيا في الزمن الذي عاش فيه واختصه من بين سائر الخلق بالرسالة الإلهية والحكمة وهداية الناس ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وإنه في الحياة الآخرة بعد الحياة الدنيا من جملة عباد الله الصالحين الذين أدوا الأمانة التي كُلفوا بها.

ومن اصطفاه الله في الدنيا بالرسالة الإلهية وكان مشهوداً له في الآخرة بالصلاح والاستقامة كان جديراً بأن تُتبع ملته ويُقتدى بهديه، وذلك هو إبراهيم عليه السلام.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ أي قال الله لإبراهيم أخلص لي العبادة واخضع لي بالطاعة ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال إبراهيم مجيباً ربّه: خضعت لك بالطاعة وأخلصت لك العبادة فإنك المالك لجميع خلقك ومدبرها دون غيرك ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي ووصى إبراهيم بنيه بالإسلام ووصى يعقوب بمثل ذلك ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ هذا حكاية لما قال إبراهيم ويعقوب في وصيتهما لأبنائهما بأن الله اختار لكم هذا الدين الذي عهد إليكم فيه واجتباها لكم ودعاكم إلى الالتزام به ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

فلا تُفارقوا هذا الدين واثبتوا عليه في حياتكم حتى يدرككم الموت وأنتم متلبسون بالإسلام.

﴿أَمْ<sup>(١)</sup> كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ جاءت هذه الآية للإنكار على أهل الكتاب افتراءهم على يعقوب وزعمهم أنه كان على ما هم عليه من التدين، فردّ الله عليهم بقوله: بل لم تكونوا حاضرين وقت أن احتضر يعقوب وأشرف على الموت وأوصى بنيه باتباع ملة إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ إذ قال لهم: أي شيء تعبدون من بعد وفاتي؟ فأجاب أبناء يعقوب أباهم: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي قالوا: نعبد معبودك الذي تعبد به وهو الله معبود آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق حال كونه إلهاً واحداً نخلص له العبادة فلا نشرك به شيئاً ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ونحن خاضعون له بالعبودية والطاعة.

والملفت للنظر أن الآية جعلت إسماعيل بمنزلة الأب ليعقوب مع أنه عمه، والعرب تجعل الأعمام بمنزلة الآباء فلذلك دخل إسماعيل في جملة الآباء تجوّزاً.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ تلك: إشارة إلى إبراهيم وأبنائه الأنبياء، والأمة: الجماعة يجمعهم أمر واحد من نحو الدين أو الموطن أو اللغة، ومعنى خلت: مضت وانقرضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ والكسب: التحصيل والعمل لما فيه نفع. والمعنى: تلك أمة مضت لها جزاء ما كسبت من عمل ولكم جزاء ما كسبتم. والآية ترمي إلى تحذير المخاطبين من أن يتركوا طاعة الله اتكالاً على انتسابهم للآباء ولو كانوا أنبياء ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا

(١) أم: المنقطعة تتضمن معنى: بل، وجاءت بصيغة الاستفهام لتفيد الإنكار والتوبيخ.

يَعْمَلُونَ﴾ أَي وَلَا تُسْأَلُونَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَخَاطِبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانَ يَعْمَلُ  
أَسْلَافُكُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ أَوْ سَيِّئٍ، فَلَا تَنْفَعُكُمْ أَعْمَالُهُمُ الصَّالِحَةُ  
وَأَنْتُمْ عَلَى نَقِيضِهَا وَلَا تُؤَاخِذُونَ بِسَيِّئَاتِهِمْ.



﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا  
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا  
أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ  
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ  
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا  
وَلَنْ نُّوَلِّوهُمُ فَأِمَّا هُمْ فِي شِقَاقٍ نَسْتَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ  
﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ  
﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ  
أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ  
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ  
أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا  
اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ  
وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

### شرح المفردات

هُودًا: يهوداً.

حنيفاً: مائلاً عن الضلال إلى الحق، والمخلص دينه لله وحده.

الأسباط: جمع سبط وهو ولد الولد، وكان ليعقوب اثنا عشر ولداً أطلق على ذرية كل واحد منهم سبط.



في شقاق: خلاف أو معاداة.

فسيكفيكم الله: فسيكفيك الله يا محمد أمرهم ويقيك شرهم.

صبغة الله: دين الله.

أتجادلوننا: أتجادلوننا وتخاصموننا في الله.

خلت: مضت.

### الإسلام يدعو إلى الإيمان بجميع رسل الله

ويتابع القرآن فيذكر ادعاءات اليهود والنصارى بأنهم وحدهم الذين يتبعون الحق وأن غيرهم على ضلال:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ فهذا النص القرآني يبين أن كلاً من اليهود والنصارى يدعو المسلمين إلى اتباع دينهم. فاليهود قالوا للمسلمين: اتبعوا دين اليهود تهتدوا، والنصارى قالوا للمسلمين كُونُوا نَصَارَى تَهْتَدُوا أي تُصَيِّبُوا طريق الحق ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ قل يا محمد لهؤلاء: بل نتبع دين إبراهيم حنيفاً أي مائلاً عن كل دين باطل إلى دين الحق. وقيل: الحنفُ الاستقامة، فَسُمِّيَ دِينُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً لاستقامته ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تنبيه إلى أن اليهود والنصارى أشركوا، لأن بعض اليهود قالوا: عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ، والنصارى قالوا: المسيحُ ابْنُ اللَّهِ وذلك إشراكٌ بالله.

وبعد أن جاء الردُّ على أهل الكتاب الذين ادعوا أنهم وحدهم على هدى من الله خاطب الله المسلمين بقوله:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ والإيمان بالله تصديق جازم بوجوده ووحدانيته وأنه لا شريك له، وتصديق بما اختص به من صفات الكمال، وأنه لا يشبه أحداً من خلقه ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ وقولوا - أيها المسلمون - صدَّقنا بالقرآن الذي أنزله الله على نبينا محمد، لنؤمن به ولنعمل بأحكامه ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾

وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ ﴿١٣٥﴾ والمراد بما أنزل إلى هؤلاء: الصحف التي أنزلها الله إلى إبراهيم عليه السلام المُشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٨ - ١٩]، وهذه الصحف الإلهية مع أنها نزلت على إبراهيم فإن الأنبياء الثلاثة الذين ذكرتهم الآية بعد إبراهيم مأمورون باتباعها. والأسباط: هم أولاد يعقوب الاثنا عشر، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ أي وقولوا: صدّقنا بالتوراة التي أعطاه الله لموسى وصدّقنا بالإنجيل الذي أعطاه الله لعيسى ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي وصدّقنا بكل ما أعطى الله أنبياءه كافة من الوحي الإلهي ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي لا نفرّق بين جماعة النبيين فنؤمن ببعضهم ونكذب البعض الآخر كما فعل اليهود إذ كفروا بعيسى ومحمد، وكما فعل النصارى إذ كفروا بمحمد، بل نؤمن بهم جميعاً لأنهم رسل من عند الله ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ونحن خاضعون لله بالطاعة ومنقادون لأمره ونهيه.

فما جاء به رسول الله محمد يطابق ما جاء به الأنبياء من قبله في أصول الدين كتوحيد الله وعبادته وحده، والإيمان بالبعث وما فيه من حساب وثواب وعقاب والحض على مكارم الأخلاق، أما الشرائع فتختلف بين أمة وأخرى حسب اختلاف الزمن والوضع الاجتماعي، وقد صرح الله بذلك في القرآن: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

والإيمان بهؤلاء الرسل الذين مرّ ذكرهم لا يستدعي من المسلمين اتباع شرائعهم، فإن شرائعهم قد دخلها تحريف وتبديل بطول الزمن وما تعاقب عليهم من نكبات، ولكن نؤمن بأن كل شريعة من تلك الشرائع كانت حقاً في زمانها. ثم جاء الإسلام وهو آخر الأديان بشريعة كاملة تنسخ ما قبلها من الشرائع

وتوافق أحوال الأمم وتطورها، وأنها وحدها المقبولة عند الله كما جاء في القرآن: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ثم يوجه الله الخطاب إلى أمة محمد ﷺ بقوله: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ أي فإن آمن أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم كما فعلتم فقد اهتدوا ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ والشقاق: المخالفة والمعاداة، أي وإن رفضوا مثل هذا الإيمان وأعرضوا عنه فقد وقعوا في الخلاف والمعاداة بينهم، وفعلهم هذا يدل على أن غرضهم ليس طلب الدين والانقياد للحق ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ يكفي: من الكفاية بمعنى الوقاية، وهذا وعد من الله بأنه سيكفي نبيه محمداً مكرهم وينصره عليهم. وقد أنجز الله وعده حيث نصره الله على هؤلاء اليهود الذين أمعنوا في عداوته وحاولوا الغدر به، فقتل البعض منهم وأجلى البعض الآخر، وتم الاستيلاء على أموالهم وديارهم، وهذا إخبار بالغيب قد تحقق ومعجزة للقرآن تثبت أنه وحي إلهي إذ لا يعلم الغيب إلا الله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي إن الله سميع لما ينطقون به، عليم بجميع ما يضمرون لك يا محمد ولأصحابك المؤمنين.

ثم يبين القرآن أن هداية الإسلام هي الهداية الحقة:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ الصبغة هي إدخال لون على شيء بحيث يظهر عليه ذاك اللون دون غيره، وصبغة الله هي دين الله وهو الإسلام، وسمي الإسلام صبغة عن طريق الاستعارة والمجاز من حيث إنه يظهر أثره على صاحبه كظهور أثر الصبغ في الثوب، فهو يتغلغل في قلب الإنسان ويؤثر فيه لأنه دين الفطرة الإنسانية، كما أنه يظهره من الآثام والشرور لما فيه من مبادئ سامية، وأصل

ذلك أن النصارى يغمسون أطفالهم في ماء يقال له المعمودية<sup>(١)</sup> وذلك علامة على الميثاق بين الله وبينهم ويزعمون أن ذلك صبغة لهم، فَرَدَّ اللَّهُ عليهم بقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي دين الإسلام هو الصبغة التي تطهر من الآثام دون سواء ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ استفهام ومعناه النفي. أي لا شيء أحسن من صبغة الله لأنه سبحانه يصبغ عبادة بالإيمان بما بيّن من دلائل وجوده ووحدانيته ويطهرهم من الشرك والآثام ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ والعبادة هي الخضوع لله تعالى وطاعته والعمل الذي يُتقرب به إليه، وإنما يكون العمل عبادة يستحق صاحبه ثواب الله إذا صحبه إخلاصٌ منه لله تعالى.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ قل يا محمد لليهود والنصارى الذين قالوا لك ولأصحابك: كونوا هُوداً أو نصارى تهتدوا، وزعموا أن دينهم خير من دينك، قل لهم: أَتُجَادِلُونَنَا فِي اللَّهِ ودينه ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ والحال أن الله هو خالقنا والمنعم علينا، كما أنه خالقكم والمنعم عليكم فنحن وإياكم سواء بالنسبة إلى الله، فلا وجه للادعاء بأن الله خاصّ بكم وأن الله مميّزكم عن سائر البشر ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي لنا أعمالنا الحسنة ولكم أعمالكم السيئة التي ينشأ عنها ثواب أو عقاب فكما أننا نتساوى في كوننا عباداً لله تعالى كذلك نتساوى في استحقاق الجزاء من الله على الأعمال الصادرة منا ﴿وَنَحْنُ

(١) لما بلغ يوحنا المعمدان الثلاثين من عمره أخذ يدعو الناس للتوبة ويعمدهم بالماء كرمز لتطهير القلوب بالتوبة، ومن الإنجازات ليوحنا أن عيسى الناصري تعمد في ماء نهر الأردن على يد هذا النبي كأى واحد آخر. ومن الحقائق المعروفة أن الصابئين الذين ورد ذكرهم في القرآن كانوا من أتباع يوحنا وقد مارسوا المعمودية وكانوا يعيشون حياة تقشف. والتهجئة الصحيحة لاسمهم تكون (صباغي أو صباثي) بمعنى الصباغين أو المعمدانين، والقرآن يورد اسمهم الصابئين مع همزة بدل الغين. والمُعَمِّد «صباغ» يغطس أو يغمس المعتنق الجديد للمسيحية أو المولود حديثاً بالماء.

لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٥﴾ ونحن مخلصون لله في العبادة لم نُشرك به شيئاً، والإخلاص لله هو أن يقصد الإنسان بعمله وجه الله.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ أم تزعمون أن هؤلاء الأنبياء وأبناءهم كانوا يهوداً أو كانوا نصارى، فإن هذا الزعم خطأ كبير، لأن اليهودية والنصرانية حَدَثَا بعد هؤلاء الأنبياء الذين ورد ذكرهم في الآية ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، أي قل لهم يا محمد أنتم أعلم بدينهم أم الله أعلم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا أحد أشدُّ ظُلماً ممن سَتَرَ وأخفى شهادة عنده من الله بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا مسلمين وأنهم لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وكنتموا أمر محمد ﷺ ونُبُوتَه وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا وعيدٌ شديدٌ من الله لهم على مزاعمهم الباطلة وكتمانهم الحق، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية من أعمالهم.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ خَلَتْ: مضت، أُمَّة: مِلَّة أو جماعة، والمعنى: تلك مِلَّة مضت لسبيلها لها ما عملت من خير وعليها ما اكتسبت من شر وأنتم يا معشر اليهود والنصارى لكم مثل ذلك، وإنكم لا تُسألون عما فعل أسلافكم من أعمال. هذه الآية وردت سابقاً وأعيدت هنا بعينها مُبالغةً في التحذير من الافتخار بالآباء والالتكال على صلاحهم فكل إنسان مجزيٌ بعمله.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ  
 قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾  
 وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ  
 الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا  
 لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً  
 إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ  
 بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ .

### شرح المفردات

السُّفَهَاءُ: جمع سفیه، من السَّفَه وهو الخِفَّة الناشئة من نقصان العقل.  
 ما ولَّاهم: أي شيء صرفهم.  
 صراط مستقيم: طريق قويم لا عوج فيه والمراد به هنا طريق الحق.  
 أُمَّة وسطاً: أمة عدلاً خياراً، معتدلين في الدين.  
 شُهَدَاء: جمع شهيد وهو الشاهد.  
 ينقلب على عَقْبَيْهِ: يرتد عن دينه.

### الإسلام دين وسط بين الأديان

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن مسألة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى  
 الكعبة وما أثير حولها من شبهات وطعن واستهزاء من اليهود والمشركين العرب  
 والمنافقين.

والقبلة هي الجهة التي يستقبلها الإنسان في صلاته، وقبلة كل شيء  
 للإنسان ما قابل وجهه.



وقد ثبت أن الصلاة فُرضت في مكة وكانت قبلتهم في الصلاة آنذاك إلى بيت القدس ، ثم لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة استمروا على ذلك ستة عشر شهراً أو سبعة عشر، وكان ذلك بأمر من الله ووحيه، ثم نسخ الله حكم التوجه إلى بيت المقدس في الصلاة، وأمر بالتوجه إلى الكعبة وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾  
والسُّفَهَاءُ: جمع سفيه وهو الخفيف العقل، والمعنى: سيقول ضِعَافُ العقول من اليهود والمشركين والمنافقين على وجه الإنكار: إذا حولتم وجوهكم أيها المسلمون عن استقبال بيت المقدس في الصلاة، ما صَرَفَهُمْ عن استقبال القبلة التي كانوا عليها؟ هذه الآية تدلّ على أنه سيقع حادث في أمر القبلة وأن السُّفَهَاءَ سيتخذونه وسيلة إلى الطعن في حكمة التشريع الإسلامي، وقد أخبر الله بما سيقوله السُّفَهَاءُ قبل وقوعه ليكون وقعه خفيفاً على قلوب المسلمين عند حدوثه لأن مفاجأة المكروه يكون أشدَّ إيلاًماً للنفس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّ هذه الآية إخبار بالغيب مما سيقع، ومما حدث فعلاً، مما يدل على أن القرآن وحيُّ إلهي ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وإذا كان لله المشرق والمغرب فله الأرض كلها، فكل مكان منها مشرق عند قوم ومغرب عند آخرين، وإذا كانت الأرض كلها لله، فله سبحانه أن يختار منها ما يشاء ليكون قبلة للمسلمين يتجهون إليها في الصلاة ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يرشد الله سبحانه من يشاء من عباده إلى طريق قويم يختاره له ويخصّه به .

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي عدلاً خياراً، والخيار خلاف الشر.

والمعنى: وكما هديناكم أيها المسلمون إلى صراطٍ مستقيمٍ بالتوجه في صلاتكم إلى الكعبة التي ترضونها كذلك جعلناكم خياراً وعدولاً. وقد وصف الله الأُمَّة

الإسلامية بأنها ﴿أُمَّةٌ وَسَطَاءٌ﴾ فليسوا أهل غُلُوٍّ كَغُلُوِّ النصارى الذين قالوا إنّ المسيح ابن الله ولا هم أهل تقصير كاليهود الذين بدّلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم.

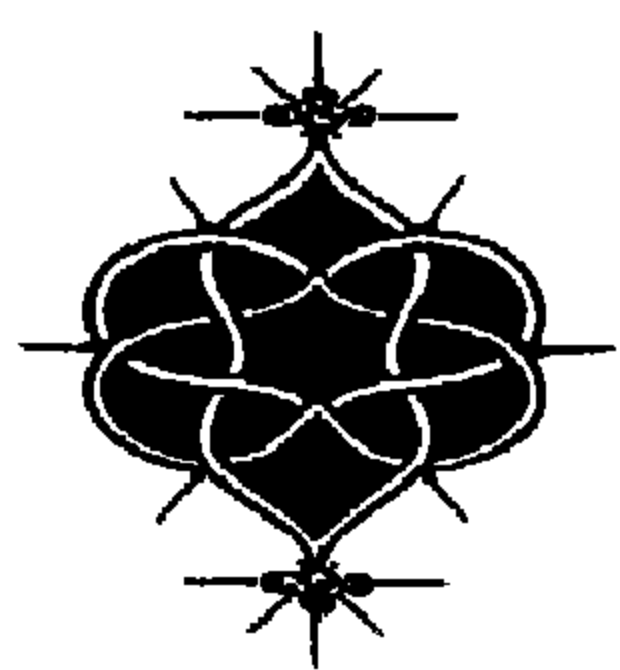
والإسلام وَسَطٌ بين مطالب الروح ومطالب الجسد فهناك أناس يُسرفون في المادة ويُهملون القيمَ الروحية، أما الإسلام فيدعو المؤمنين إلى أن يعيشوا مادية الحياة بحدود القيم الروحية، والعَدْلُ بين مطالب الروح والجسد.

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي تشهدون يوم القيامة بأنّ الرسل قد بَلَّغُوا أُمَّتَهُمْ ما أمرهم الله بتبليغه إليهم ونصحوهم ولم تعد لهم حجة على الله بعد مجيء الرسل، ومستند هذه الشهادة ما قَصَّه القرآن على المسلمين من أحوال هذه الأمم. وقد تكون هذه الشهادة في الدنيا، أي لتكونوا أيها المسلمون شُهَدَاءَ على الناس بما يصدر منهم من غُلُوٍّ وتقصير فتبَلِّغُوهم ما عَلَّمْتُمْ من الوحي الإلهي كما نقله الرسول محمد إليكم ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ وشهادة الرسول محمد على أُمَّتِهِ بأنه قد بَلَّغَهُمْ رسالة ربه وشهادته عليهم بإيمانهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أي وما جعلنا قبلتك الأولى في الصلاة يا محمد وهي بيت المقدس ثم حَوَّلْنَاكَ عنها إلى الكعبة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ الانقلاب على العقب: الارتداد عن الإسلام، والمعنى: ما شرعنا التوجه إلى بيت المقدس في الصلاة إلا لَنَمْتَحِنَ الناس ونعلم حيثئذٍ من يتبع الرسول محمداً ويأتمر بأوامره متميزاً ممن لم يدخل الإيمان إلى قلبه وممن ينصرف عن اتباعه، فإن اتباع الرسول من علامات الإيمان.

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ لكبيرة: أي شاقّة صعبة والمعنى: وإن كان تحويل قبلة الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة شاقاً، ثقل الوقع على النفوس لأن ذلك مخالف للعادة، لأن من ألف شيئاً ثم انتقل عنه صعب عليه الانتقال لغيره ولكن الأمر يسير على من هداهم الله.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ هذا النص من الآية هو جواب لما تردد بين المسلمين من أقوال حيث قال البعض: ما مصير من مات من إخواننا قبل تحويل القبلة إلى الكعبة؟ وكانت قبلتهم في الصلاة بيت المقدس ظانين أن صلاتهم آنذاك غير مقبولة عند الله فبيّن الله أن ظنهم في غير محله وأنه سبحانه لا يضيع ثواب صلاتهم، وعبر الله عن الصلاة في الآية بالإيمان على سبيل الاستعارة لأنها أعظم الإيمان، وهي لا تصدر إلا عن إيمان ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي إن الله يشمل برأفته ورحمته عباده المؤمنين الطائعين له، فلهذا لا يضيع ثواب أعمالهم.



﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلِئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ .

### شرح المفردات

تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ : تَرَدَّدَ وَجْهَكَ وَتَطَلُّعَكَ إِلَى السَّمَاءِ .  
 فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا : نُمَكِّنُكَ وَنُحَوِّلُكَ إِلَى قِبْلَةٍ تَهْوَاهَا وَتَحِبُّهَا .  
 الْمَسْجِدَ الْحَرَامِ : يَطْلُقُ عَلَى الْمَصَلَّى الْعَامِ ، فَيَتَنَاوَلُ الْكَعْبَةَ وَمَا أُحِيطَ بِهَا .  
 شَطْرَهُ : نَحْوَهُ .  
 بِكُلِّ آيَةٍ : بِكُلِّ حُجَّةٍ وَبِرْهَانٍ .

### تحويل القبلة في الصلاة نحو الكعبة

لم يختلف المسلمون أن النبي ﷺ كان يُصَلِّي بِمَكَّةَ وهو يتوجه إلى بيت المقدس . وبعد الهجرة إلى المدينة المنورة ، استمر على ذلك ستة عشر شهراً أو سبعة عشر ، وكان النبي ﷺ يتشوق لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة لأنها قبلة جَدِّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فكان يدعو اللَّهَ أَنْ يجعل قبلته نحو الكعبة وينظر إلى السماء رَجَاءً أَنْ ينزل الملك جبريل عليه بالوحي الذي سأل به رَبَّهُ .  
 والتوجه في الصلاة نحو الكعبة أدعى إلى إيمان العرب ، والعرب هم

المعوّل عليهم في ظهور الإسلام وانتشاره، فاستجاب الله دعاء النبي ﷺ وأنزل عليه قوله:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أي قد رأيناك يا محمداً كيف كنت تتطلع إلى السماء في ضراعة ورجاء عسى أن ينزل الوحي عليك بتغيير قبلة بيت المقدس إلى الكعبة فاستجبنا لرجائك، فلنضربنك عن بيت المقدس إلى الكعبة التي تهواها وتشتهيها ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ<sup>(١)</sup> شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فاصرف وجهك يا محمد في الصلاة ناحية المسجد الحرام حيث وجود الكعبة فيه، ووصف المسجد بالحرام لأن القتال فيه مُحَرَّمٌ، والمسجد الحرام يُطلق على المصلّى العام فيتناول الكعبة وما أُحيط بها من نحو الحِجْر ومقام إبراهيم، ويُطلق على الكعبة نفسها.

والتعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب هو مراعاة الجهة، والمُشاهد للكعبة يجب عليه أن يستقبل عَيْنُهَا، والغائب عنها يكفيه استقبال جهتها، ويجتهد في تعرّف الجهة ما استطاع. وَرَوَى البيهقي أن النبي ﷺ قال: «الْبَيْتُ قِبْلَةُ الْمَسْجِدِ، وَالْمَسْجِدُ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الْحَرَمِ، وَالْحَرَمُ<sup>(٢)</sup> قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ فِي مَشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا مِنْ أُمَّتِي».

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي وفي أي مكانٍ وُجدتم - أيها المسلمون - فتوجهوا في الصلاة نحو المسجد الحرام ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الذين أُوتوا الكتاب: هم علماء اليهود والنصارى، وقيل هم اليهود خاصة لأنهم هم الذين طَعَنُوا في تحويل القبلة، والضمير في (أنه) عائد إلى تحويل القبلة إلى الكعبة. فَعُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ

(١) قَوْلٌ وَجْهَكَ: أي جملة بدنك، والوجه يذكر ويراد به نفس الشيء.

(٢) الْحَرَمُ: مكة وما حولها.

يعلمون أن الكعبة هي قبله الأنبياء وأن استقبالها في الصلاة هو الحق من ربهم، وأن محمداً الذي أخبر بتحويل القبلة إلى الكعبة قد قامت الدلائل عندهم على أنه رسول الله فما شأنهم بإثارة الفتنة في ذلك ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ والله سبحانه لا يخفى عليه ما يدبره أهل الكتاب من الكيد للإسلام وما يصدر عنهم من آثام وسيحاسبهم عليه حساباً عسيراً يوم القيامة.

﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ أي ولئن جئت يا محمد أهل الكتاب بكل حجة وبرهان يدل على مشروعية تحويل القبلة إلى الكعبة ما صدقوا بذلك ولا اتبعوا قبلتك. والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود سكان المدينة المنورة وأمثالهم ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ ولست أنت يا محمد بمتبع قبلتهم وهي بيت المقدس بعدما جاءك الوحي من ربك بأن تكون قبلتك هي الكعبة ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ وما أولئك اليهود بتابعين قبله النصارى وهي المشرق، ولا أولئك النصارى بتابعين قبله اليهود وهي بيت المقدس لتمسك كل فريق بقبلته، فما شأنهم يعيبون على المسلمين انفرادهم عنهم في القبلة ﴿وَلَيْنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ والأهواء: جمع هوى وهو ما تميل إليه النفس، وهوى النفس إنما يستعمل في الأكثر فيما لا خير فيه. والمعنى: إن فرض واتبعت أهواء اليهود وأتمست رضاهم فرجعت إلى قبلتهم بيت المقدس من بعد ما جاءك الوحي من ربك بأن تكون قبلتك في الصلاة هي الكعبة ﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي إذا كان ذلك الاتباع قد وقع، فبسببه تكون من الظالمين.

والخطاب في الآية في ظاهره للنبي محمد ﷺ ولكن المقصود به أمته، فهو تحذير لهم من اتباع آراء أهل الكتاب المنبعثة عن هوى النفس، والآية أخرجت الوعيد والتحذير في صورة الخطاب للنبي محمد مع أنه عليه الصلاة والسلام



معصومٌ عن اتباع الهوى ومخالفة أمر الله، فكأن الآية تقول: حذارِ أيها المسلمون من اتباع أهواء أهل الكتاب، فلو اتبع محمد أهواءهم مع أنه أفضل الخليقة وأعلاهم منزلةً عند الله، لكان جزاؤه جزاء الظالمين، فكيف إذا وقع ذلك منكم؟



﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِتَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ .

### شرح المفردات

الْمُتَمَرِّينَ : الشاكين .

وِجْهَةٌ : جهة وناحية .

مُوَلِّيًا : مُتَّجِه إليها .

فاستبقوا الخيرات : بادروا وتسابقوا إلى فعل الخيرات .

شَطْرَ : نحو .

### التأكيد على صحة نبوة محمد ﷺ

ثم يُبين القرآن بأن عُلماء اليهود والنصارى يَعلمون أن محمداً رسول الله حقاً، ولكنهم يكتُمون ذلك عن قومهم ويُصِرُّون على رفض رسالته مُكابرةً وعناداً منهم، قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي إن علماء اليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل يعرفون أن محمداً هو رسول الله ولا يعترفونهم شكاً في صدقه كما لا يشكون في معرفة أبنائهم.

﴿وَإِنْ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وإن فريقاً من علماء أهل الكتاب ليخفون الحق ولا يُعلنونه في شأن نبوة محمد ﷺ، فالإشارة به كانت موجودة بوضوح في التوراة والإنجيل ويعرفونها حقاً، ولكنهم يخفونها عن قومهم وهم يعلمون أن محمداً هو نبيٌّ وإن كتمانهم ذلك هو إثم. أسند الله هذا الكتمان إلى فريقٍ منهم إذ لم يكونوا كلهم كذلك، فإن من علماء بني إسرائيل من اعترف بالحق وأعلن إيمانه كعبد الله بن سلام وغيره.

إنَّ كتمان الحق هو السمة البارزة عند عُلماء اليهود والنصارى الذين يعلنون إنكارهم لنبوة محمد ﷺ، ولكنهم في قرارة أنفسهم يعترفون بذلك لأن الدلائل والحجج على صدق نبوة محمد هي من الكثرة والتنوع والوضوح بحيث لا ينكرها إلا من ينكر عقله، ولكنهم يكتُمون ذلك خوفاً من معاداة قومهم لهم، ومن حرمانهم مما هم عليه من جاهٍ وثراءٍ، وهم بذلك قد آثروا الدنيا على الآخرة.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي ما جئت به يا محمد من الدين فهو الحق من ربك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الامتراء: هو الشك، والخطاب هنا موجه للنبي محمد ﷺ والمراد أمته، إذ لا يُتصوّر من النبي ﷺ شك فيما أنزل الله عليه من الوحي، وقد كان من أتباع النبي محمد ﷺ من هم حديثو عهدٍ بكفرٍ يُخشى عليهم أن يُفتنوا بما يُروّجه اليهود من الشبهات في شأن ما ينزل على النبي من

الوحي ، وفي شأن القبلة التي أصبحت نحو الكعبة ، لذا أمرهم الله بأن لا يكونوا من الشاكّين في ذلك .

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي ولكل ملة قِبلة يتجهون إليها في صلاتهم فقبلة المسلمين الكعبة ، وقبلة اليهود بيت المقدس ، وقبلة النصارى المشرق ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي بادروا إلى المُسارعة في السبق إلى فعل الخير النافع لكم في الدنيا والآخرة ، وأن تسبقوا سواكم إليه ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ أي أين ما كنتم فوق الأرض أو في بطنها يأت بكم الله للجزاء يوم القيامة على أعمالكم ، فَيُثِيبُ الْمُحْسِنَ على إحسانه ، ويُعَاقِبُ الْمُسِيءَ على إساءته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته سبحانه ليس لها حدّ وهي تشمل كل شيء .

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي ومن أي مكان خرجت يا محمد في سَفَرٍ ، وأينما كُنت في جميع المواطن من نواحي الأرض فتوجه في صلاتك أنت والمسلمين نحو المسجد الحرام ﴿وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ﴾ وإن التوجه نحو المسجد الحرام هو الحق من عند ربك الذي أمرك بالتوجه إليه ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وما الله بغافلٍ عن أعمالكم ولكن مُحْصِيهَا لَكُمْ حتى يُجَازِيَكُمْ عليها يوم القيامة .

ثم يُكرّر الله الطلب من النبي ﷺ والمؤمنين بالتوجه في الصلاة نحو المسجد الحرام لما في هذا التوجه من شأنٍ خطيرٍ وأمرٍ مهم ، قال تعالى : ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ في هذا النص تشريع للاتجاه في الصلاة نحو المسجد الحرام في الأسفار وفي كل الحالات ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وهنا تشريع للاتجاه إلى المسجد الحرام في الصلاة لجميع المقيمين في بقاع الأرض المختلفة .

ثم عَلَّلَ اللَّهُ الأمرَ باتجاه المسلمين إلى الكعبة في كل مكان يصلُّون فيه:

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ الحُجَّةُ: هي البرهان والوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، والناس في الآية المراد بهم اليهود والمشركون، والحجة التي كانت لأهل الكتاب في شأن النبي ﷺ وأصحابه عندما كانوا يتوجهون بصلاتهم نحو بيت المقدس هي قولهم: يُخالفنا محمد في ديننا ويتبع قبلتنا، وحجة المشركين هي قولهم: إن محمداً بتركه التوجه إلى الكعبة ترك دين إبراهيم، فقطع الله عليهم حجتهم جميعاً بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وهم المعاندون من فريقَي اليهود والمشركين، فهؤلاء لا يميزون الرشد من الضلال وهم الذين أثاروا الفتنة عند تحويل القبلة ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ فلا تخافوا ما يُثيرون من الجدَل والطعن في توجُّهكم نحو الكعبة، وخافوا الله فيما يأمركم به من الطاعات فأتوا بها على وجهها وحافظوا على التوجه في صلاتكم إلى الكعبة ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا بِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنْ الطَّاعَاتِ فَأْتُوا بِهَا عَلَى وَجْهِهَا وَحَافِظُوا عَلَى التَّوَجُّهِ فِي صَلَاتِكُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ﴾ ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا بِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنْ الطَّاعَاتِ فَأْتُوا بِهَا عَلَى وَجْهِهَا وَحَافِظُوا عَلَى التَّوَجُّهِ فِي صَلَاتِكُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ﴾ هنا بشارة للمسلمين بفتح مكة وإزالة الأصنام والأوثان من بيت الله الحرام وما يستتبع ذلك من نشر الإسلام في ربوع الأرض، ويلاحظ أن مجيء النعمة بعد الأمر بالخشية فيه إشارة إلى أن النعمة تكون جزاء على خشية الله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي أمركم الله بذلك رجاء امتثالكم أمره فيحصل اهتداؤكم إلى الحق وتفوزوا بسعادة الدارين.

لقد أمر الله رسوله محمداً بالتوجه في الصلاة إلى المسجد الحرام ثلاث مرات:

الأمر الأول: هو مقرون بإكرام النبي والمؤمنين بالتوجه إلى القبلة التي كانوا يحبونها، قال تعالى ﴿فَلَنُؤَلِّسَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

الأمر الثاني: هو تبيان أن التوجه إلى قبلة المسجد الحرام هو الحق من ربهم: قال تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

الأمر الثالث: هو التوجه في الصلاة نحو الكعبة في جميع الأماكن مع قطع حجج الطاعنين بها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.



﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُوا فِي آذَانِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٢﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

### شرح المفردات

وَيُزَكِّيكُمْ: يطهركم من الشرك والمعاصي.

الكتاب: أي القرآن.

والحكمة: السنة النبوية.

الصبر: ضبط النفس وقوة الاحتمال.  
وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ: البلاء هو الاختبار.  
صلوات من ربهم: مغفرة ورحمة من ربهم.

### منزلة الذاكرين لله والصابرين عند البلاء

ثم يُبين القرآن نعمة الله على العرب حيث أرسل إليهم رسولا منهم لهدايتهم، قال الله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ﴾ هذا الشطر من الآية متصل بما قبله، والمعنى: ولأُتِمَّ نعمتي عليكم أيها المسلمون في جعل الكعبة قبلة لكم كنعمتي عليكم بإرسال رسول منكم هو محمد ﷺ، وفي إرسال الرسول منكم نعمة تستوجب الشكر لربكم، لأنكم تعرفون سيرته العطرة وصدقه وأمانته مما يحملكم على المسارعة إلى التصديق بنبوته واتباعه ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ والآيات: هي دلائل توحيد الله والنبوة والبعث، ويصحح أن يُراد من الآيات آيات القرآن، وتلاوتها: قراءتها.

والبصير بأساليب البيان العربي يدرك حين يتلو القرآن فصاحته، وسمو معانيه، وإرشاداته القيّمة بما يشهد أن مصدره من عند الله لا من تأليف بشر، علماً أن الذي يتلو عليهم القرآن هو أمّي لم يتعلم القراءة والكتابة وهو محمد ﷺ مما يشهد بصِدْق نبوته ورسالته من عند الله. كما أن من وظيفة ذلك الرسول ﴿وَيُزَكِّيْكُمْ﴾ أي يطهركم من الشُّرك والأخلاق الذميمة ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الكتاب هنا: المراد به القرآن، أي يعلمكم ما يخفى عليكم من معاني القرآن وأحكامه كما يعلمكم الحكمة وهي ما يصدر عن هذا الرسول ﷺ من الأقوال والأفعال والمواظظ التي فيها خير المسلمين وصلاحهم ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أي ويعلمكم العقائد السليمة والعبادات الخالصة لله والأخلاق القويمة والأحكام العادلة التي لم تكونوا تعلمونها من قبل.



﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ ذكر الشيء: التلَفُّظ باسمه، ويطلق بمعنى استحضاره في الذُّهن. ولا يكفي في ذكر الله أن يُجري الإنسان اسماً من أسمائه على لسانه، بل عليه أن يستحضر عظمتَه وجلال شأنه مما يستدعي منه التسبيح والتحميد لله جلّ شأنه. ويكون ذكر الله في القلب: وهو التفكير في الدلائل الدالة على وحدانيته وبدائع خلقه التي تشهد بقدرته وحكمته. كما يكون ذكر الله بالجوارح وذلك بالامتثال لما أمر من الطاعات، فكل عمل بطاعة الله هو ذِكرٌ له سبحانه.

وقد قيل في تفسير جملة ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ أقوالٌ شتى منها:

- اذكروني بالطاعة: أذكركم بالثواب والمغفرة.
- لا يذكر الله مؤمنٌ إلا ذكره الله برحمته.
- اذكروني بقلوبكم: أذكركم بتحقيق مطلبكم.
- اذكروني في الرِّخاء بالطاعة والدعاء: أذكركم في البلاء والشدة بالعطيّة والنِّعماء.

وعلى هذا يفهم من ذكر الله للمؤمن حفظه من كل سوء يُراد به ثم الإنعام عليه بالعِزة والرِّخاء في الدنيا والسعادة في الآخرة.

ومرتبة ذكر الله مرتبة عالية لا يُوازيها شيء، ففي حديثٍ قدسيٍّ عن النبي ﷺ يقول الله تعالى: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم»<sup>(١)</sup>.

﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ شكر الإنسان لله ثناؤه عليه بِذِكرِ إحسانه ونعمِهِ عليه

(١) أخرجه الشيخان والترمذي.

بقلب مفعم بالحب له، وَمَنْ ذَكَرَ أَنْ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ هُوَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، لم يلبث أن يصرف ما أنعم الله به عليه من العقل والجوارح فيما يُرضيه من الطاعات ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ والكُفر جحود نِعَمِ اللَّهِ وإحسانه. كما يستعمل الكفر بمعنى عدم الإيمان. فَاللَّهُ يطلب من المؤمنين أن يشكروا نِعَمَهُ عليهم ومنها إرساله رسولا منهم وهو محمد ﷺ الذي أرشدهم إلى الإسلام وهداهم إلى الدين الذي شرعه لهم وأن لا يجحدوا إحسانه إليهم فيسلبهم نِعَمَهُ التي أنعمها عليهم.

ولمّا كانت المصائب قد تؤدي ببعض النفوس إلى الكفر والاعتراض على المشيئة الإلهية لذلك دعا الله المؤمنين إلى مواجهة المصائب والصمود أمامها بالصبر والصلاة، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ والصبر يحصل بريضة النفس على تحمّل المكاره والمصائب وتوطئتها على احتمال المشاق وتجنب الجزع. والمعنى: يا من آمتم بالله استعينوا على إقامة شعائر دينكم والدفاع عنه وعلى فعل الطاعات وترك المعاصي، وعلى تحمّل المصائب، استعينوا على كل ذلك بالصبر الجميل، وبالصلاة المقترنة بالخشوع والإخلاص لله سبحانه، ففي الصلاة يستحضر المؤمن جلال الله وعظمته ويقدسه ويثني عليه ويطلب منه المعونة والهداية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥ - ٦] ولا شك أن ذلك يُضفي عليه طمأنينة وقوة في النفس ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي إن الله معهم بالمعونة والتأييد، ومن كان الله معه لم يخش الأحوال.

تأمل ما ذكره الله سبحانه بأنه مع الصابرين، فبذلك يطلب الله منك - أيها المؤمن - أن تُواجه الحياة ومشكلاتها في مَعِيَّةِ اللَّهِ التي خصّها للصابرين فأنت

لو واجهت مشكلاتك في معية من تثق بقوته تواجه الأمور بشجاعة، فما بالك إذا كنت في معية الله الذي بيده ملكوت كل شيء، وكل ما في الكون خاضع لإرادته؟!!

ثم يُبين الله منزلة الشهداء وما خصهم به من كرامة:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ أي لا تقولوا للشهداء إنهم أموات ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بل هم أحياء في عالم غير عالمكم ولكن لا تشعرون بحياتهم إذ ليست في عالم الحس الذي يدرك بالمشاعر بل هي حياة غيبية تمتاز بها أرواح الشهداء على سائر أرواح الناس، وهذه المزية أنهم في حياة سارة ونعيم مقيم عند ربهم، وجمهور العلماء قالوا: إنهم في الجنة. وقد جاء في الحديث الشريف: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل...»<sup>(١)</sup> كما جاء في القرآن بأن الشهداء هم في حياة كريمة مصحوبة بالرزق: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ البلاء: هو الاختبار والامتحان، أي ولنختبرنكم بشيء من الخوف ينالكم من عدوكم وبشيء من الجوع - بسبب القحط - ينالكم فيه مجاعة وشدة ﴿وَنَقْصِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ ولنختبرنكم أيضاً بقلّة الكسب للمال أو الخسارة في التجارة، وبنقص الأنفس سواء بالموت الطبيعي أو عن طريق القتل، وبنقص من الثمرات الذي ينشأ عن الآفات الطبيعية أو أحوال الطقس. فالبلاء هو المعيار الذي يكشف عن خبايا

(١) أخرجه مسلم.

النفوس ودرجة إيمانها وصدقها مع ربّها ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ﴾ وبشّر يا محمد الصابرين على بلائي لهم المستسلمين لقضائي بما يسرّهم من المغفرة والرحمة، هذه البشارة موجهة إلى الذين يتلقون المصيبة بسكينة وتسليم لقضاء الله القائلين عند المصيبة ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ هنا يثني الله على الذين يقولون هذه الكلمات عند حلول المصيبة بهم، ويستشعرون مضمونها فهي عزاء لهم عندما تلم المصيبة بهم، وعصمة لهم من الوقوع في الزلل عندما يمتحنهم الله بالبلايا، وما أبلغ هذه الكلمات فإنها جامعة بين الإقرار بالعبودية لله والاعتراف بالبعث بعد الموت. ومعنى ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إِنَّا: أصلها إِنْنَا حذف منها نون للتخفيف، أي إِننا ملك لله، فنفسنا وأموالنا وأهلونا هي ملك لله يتصرف فيها سبحانه كما يشاء، وما في أيدينا جعله الله وديعة<sup>(١)</sup> إن شاء أبقاه وإن شاء استردّه، فلا يجدر بنا أن نجزع عندما يسترد الله ما هو ملك له بل نصبر ونُسَلِّم الأمر إليه ونرضى بقضائه.

﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ وإِننا في خاتمة المطاف صائرون إلى الله يوم القيامة فيجازينا على امثالنا له لما دعانا إليه من الصبر عند المصيبة ويوفينا أجورنا كاملة.

هذه الكلمات التي نقولها عند حلول المصائب يستفاد منها جملة أمور:  
منها: التسليم لقضاء الله وقدره.

ومنها: أنها تواسي قلب المصاب وتقلل من حزنه.

ومنها: تهيئة النفس لتلقي المصيبة بالصبر الجميل.

(١) وما أصدق قول الشاعر:

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بُدَّ يوماً أن تُردَّ الودائع

ومنها: اشتغال المصاب بمعاني هذه الكلمات بدل لجوئه إلى كلام لا يليق بهذا المقام فيعرضه للإثم ويحرمه الأجر من الله.

ولا يتنافى مع الصبر ما يكون من الحزن الشديد لدى المصاب عند حلول المصيبة، وإنما الذي ينافيه ويؤاخذ الإنسان عليه هو الجزع المفضي إلى الاعتراض على حكم الله فيما أنزل به من بأساء أو ضراء، أو تكون المصيبة مهلكة لصاحبها فلا يصمد أمامها لضعف إيمانه بقضاء الله وقدره، أو أن يغفل عما حرّمه الإسلام من النياحة على الميت والندب والصراخ ولطم الخدود وغير ذلك.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي أولئك الذين امتثلوا أمر الله وقالوا عند المصيبة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ عليهم صلوات من ربهم والصلوات: جمع صلاة، وصلوات الله على عباده: هي الغفران لهم والثناء الحسن عليهم وتشريفه إياهم في الدنيا والآخرة، وجاءت الصلوات بصيغة الجمع لكثرة ما يترتب عليها من أنواع الخيرات، وأضاف إلى ذلك ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ورحمته تعالى تظهر بإزالة آثار المصيبة، أو تعويض المصابين بما ينعم الله عليهم من النعم، ورحمة الله لعباده هي أثن شيء في الوجود كما جاء في القرآن: ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢] ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ أي مهتدون إلى ما ينبغي عمله في أوقات المصائب إذ لا يستحوذ الجزع على نفوسهم، ولا يذهب البلاء بالأمل في قلوبهم فيكونون هم المهتدون للرشد والصواب.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ .

### شرح المفردات

الصَّفَا والمَرْوَةُ: هضبتان ملحقتان حالياً بالمسجد الحرام يسعى بينهما من يقصد الحج أو العمرة.  
 من شعائر الله: من أعلام دينه وامتعباداته.  
 حج البيت: أي قصد الكعبة لأداء المناسك في موسم الحج.  
 اعتمر: زار الكعبة لنسك العمرة، والعمرة لا تختص بزمان.  
 فلا جناح عليه: فلا إثم عليه.  
 تطوَّع خيراً: زاد خيراً على ما طلب منه.  
 البينات: الحجج الواضحات.  
 الهدى: ما يهدي إلى الحق والرشاد.  
 يلعنهم الله: يطردهم من رحمته.  
 ولا هم يُنظَرُونَ: أي لا يؤجل عذابهم ولا يؤخر.

### الصَّفَا والمروة من معالم الحج

ويتابع القرآن فيوضح بعض الأمور المتعلقة بالحج والعمرة وهي السعي بين الصفا والمروة قال الله تعالى:



﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ هما هضبتان مطلتان على المسجد الحرام ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من معالمه ومواضع عباداته ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ فمن قصد بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج وأداء عبادة الله من إحرام وطواف حول بيت الله الحرام وسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة والقيام بسائر مناسك الحج استجابة لأمر الله ﴿أَوْ اعْتَمَرَ﴾ والاعتماد كالعمرة لغةً وهي زيارة البيت الحرام لأداء عبادة الله من إحرام وطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فلا إثم على من يسعى بين الصفا والمروة، ومعنى يَطَّوَّفُ فقد فسَّرَتْهُ السُّنَّةُ النبوية بالدوران حول الكعبة سبعة أشواط، وبالنسبة إلى الصفا والمروة فالمقصود منهما هو السعي بينهما سبعة أشواط.

ولكن ما هو الأمر الداعي لأن يقال عن السعي بين الصفا والمروة بأنه لا حَرَجَ على من يقوم بذلك؟

الجواب على ذلك هو أن العرب في الجاهلية أَدْخَلُوا على شعائر الله في الحج التي ورثوها عن إبراهيم عليه السلام مظاهر الوثنية، فقد وضعوا على الصفا صنماً يسمى أسافاً، ووضعوا على المروة صنماً يسمى نائلة، فكانوا يسعون بينهما تعظيماً للصنمين وَيَتَمَسَّحُونَ بهما، فلما جاء الإسلام وأزيلت الأصنام تَحَرَّجَ المسلمون وامتنعوا عن السعي بين الصفا والمروة ظانين أن السعي بينهما هو إثم يلحقهما إذا قاموا بذلك، فبيّن القرآن أن لا إثم من السعي بينهما، وأنهما من شعائر الله وامتعبداته في الحج والعمرة.

والسعي بين الصفا والمروة هو اقتداء بهاجر زوجة إبراهيم عليه السلام حين نفذ منها الماء الذي تركه زوجها فعطشت وعطش ابنها إسماعيل فانطلقت تفتش له عن ماء فوجدت الصفا أقرب مرتفع يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ ولكنها لم تر أحداً فهبطت من الصفا ثم سعت

سعي الإنسان المرهق حتى وصلت إلى المروة وصعدت عليها ونظرت فلم ترَ أحداً ثم أخذت تهرول وتسعى بين الصفا والمروة سبع مرات وهي تدعو الله إلى أن أتبع الله ماء زمزم وأجاب دعاءها .

فالسعي بين الصفا والمروة شرعه الإسلام<sup>(١)</sup> لما فيه من اللجوء إلى الله في كشف الضر لأن في ذلك الموضع كشف الله الضر عن هاجر وولدها، كما أن في ذلك إشعاراً للمؤمنين بأن الله يبتليهم بأنواع المحن إلا أنه يغيثهم برحمته عندما يلجأون إليه ويدعونه بتضرع لكشف البلاء عنهم .

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ والتطوع هو ما يأتي به الإنسان من الطاعة غير المفروضة عليه وتسمى النوافل، أي ومن أتى بالحج والعمرة مرة أخرى فزاد على الواجب ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ فإن الله يشكر عمله بمزيد من الثواب، وهو عليم بكل شيء فلا يخفى عليه تطوعه .

### التحذير من كتمان شرائع الله

ويتابع القرآن فيبين مبلغ الإثم العظيم لمن يكتمون ما أنزل الله من الشرائع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ هذا النص من القرآن نزل في أخبار اليهود ورهبان النصارى وفي كل من كتم شيئاً من أحكام الدين .

والكتمان ترك إظهار الشيء مع مسيس الحاجة إليه وحصول الداعي إلى إظهاره . وكتم ما أنزل الله يشمل إخفاء نصوصه وعدم ذكرها للناس كما يشمل

(١) اختلف العلماء في وجوب السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة، فقال الشافعي وابن حنبل: هو ركن، وهو المشهور من مذهب مالك، وقال أبو حنيفة وأصحابه: إنه واجب يجبر تركه بدم (أي ذبح شاة).

إزالة النصّ ووضع آخر مكانه أو تحريفه بالتأويل الفاسد عن معناه الصحيح، وقد فعل أهل الكتاب ولا سيما اليهود كل ذلك، فقد كانوا يعرفون مما بين أيديهم من التوراة أن نبوة محمد هي حق، ولكنهم كتموا هذه المعرفة حسداً لمحمد على ما آتاه الله من فضله، فهم كتموا ما أنزل الله ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ وهي الحجج الواضحة الدالة على نبوة محمد ﷺ، وكذلك كتموا آية الرّجم للمحصن التي وردت في التوراة، كما كتموا ﴿وَالْهُدَى﴾ أي ما في التوراة مما يهدي إلى الحق والرشاد بضروب من التأويل غير الصحيح حتى أفسدوا الدين وانحرفوا بالناس عن هديه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ والكتاب هنا لا يُعنى به كتاب إلهي معيّن بل يراد منه جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله كالتوراة والإنجيل والقرآن، ودلّ قوله تعالى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾ على أن معصيتهم بالكتمان متناهية في الفظاعة وأنه لا يقدم على ذلك إلا من بلغ الغاية في السوء.

﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ أي أولئك الكاتمون للعلم الذي بيّنه الله في الكتاب يطردهم الله من رحمته ويُسخط عليهم الخلق فيزدرونهم وينبذونهم ويدعون عليهم باللعنة.

ثم إن العبرة في الآية أن حكمها عام وإن كان سبب نزولها خاصاً، فكل من يكتُم آيات الله وهدايته عن الناس فهو مستحق لهذه اللعنة.

والقرآن الكريم لم يكتفِ بالوعيد على من يكتُم شرع الله وهدايته بل أمرَ بِنَشْرِ هُداياه للناس وتبيانه وعدم كتمانِه، وهذا هو العهد الذي أخذه الله على أهل الكتاب بقوله بما جاء في القرآن ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ثم يُبيّن القرآن مصير من يتوبون ويرجعون عن الكتمان بقوله:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي نَدِمُوا على ما كتموه من هدى الله ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ بإظهار ما كتموه وتصحيح ما حَرَّفوه أو أساءوا فيه الفتوى ﴿وَبَيَّنُوا﴾ للناس حقيقة ما كتموه من كتاب الله ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي إن الله يقبل توبتهم المقرونة بإصلاح أعمالهم، وقبول التوبة من الله لهم يتضمن المغفرة لما سلف من ذنوبهم ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ والتواب والرحيم صيغتان من صيغ المبالغة، أي من شأنه المبالغة في قبول التوبة وسعة الرحمة فهو الجدير بأن يتوب على عباده ويرحمهم إذا تابوا وبيَّنوا للناس ما كتموه من شرع الله ودينه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي إن الذين جحدوا نبوة محمد وكذبوا بالهدى الذي جاء به من عند ربه، وَأَصْرُوا على كفرهم حتى فارقوا الحياة ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ واللعن من الله للكافر إبعاده من رحمته، واللعن من الملائكة ومن الناس للكفار الدعاء عليهم بالإبعاد من رحمة الله، وكذلك الكفار يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الخلود: البقاء إلى غير نهاية، والظاهر أن الضمير في قوله «فيها» عائد إلى اللعنة المذكورة في الجملة، والخلود في اللعنة يقتضي الخلود في النار ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ ولا يخفف عنهم العذاب في جهنم ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ الإنظار: الإمهال والتأخير، أي ولا يُمهَّلون عن العذاب كما يُمهَّلون في الدنيا ولا يؤخَّر عذابهم بل يلاقيهم العذاب حال مفارقتهم الحياة.



﴿وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي  
الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ  
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ  
وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ .

### شرح المفردات

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ: صيغتان للمبالغة في الرحمة، وتختص الأولى بالله، ويجوز إطلاق الثانية على غيره.

واختلاف الليل والنهار: تعاقبهما أو اختلافهما بالزيادة والنقصان.

الْفُلْكَ: اسم يطلق على سفينة أو أكثر.

بَثَّ فِيهَا: نَشَرَ فِيهَا.

من كل دَابَّةٍ: من كل نوع من الدواب، والدَّابَّة ما يدب ويمشي على الأرض من الحيوان.

وتصريف الرياح: تقليبها جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً.

وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ: المنقاد لله يوجهه كيف يشاء.

لآيات: دلائل على قدرته تعالى.

### **البرهان على وحدانية الله**

ثم ينتقل القرآن إلى إثبات وحدانية الله والدلائل والبراهين العقلية عليها وذلك بتوجيه الأنظار إلى هذا الكون الذي يشهد كل ما فيه على وجود الله ووحدانيته وعظمته، قال الله تعالى:

﴿وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ والإله في كلام العرب هو المعبود مطلقاً والمراد به في الآية المعبود بحق بدليل الإخبار عنه بأنه واحد. ومعنى الآية: وإلهكم الذي

يستحق العبادة هو إله واحد، فمن عَبَدَ سواه أو عَبَدَ شيئاً معه فعبادته باطلة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذه الجملة من الآية نافية عن الله الشريك صراحة ومثبتة له الألوهية الحقّة، أي إن الله وحده هو الإله وليس شيءٌ مما سواه إلهاً ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ فهو سُبْحانه شمل الكائنات برحمته، وعمّت رحمته في الدنيا المؤمن والكافر، واختصت رحمته في الآخرة أهل الإيمان والصالح.

ولما بيّن القرآن بأن الله هو إله واحد عَقَّبَ على ذلك بذكر بعض المظاهر الطبيعية التي أبدعها الله في هذا الكون التي تشهد بعظمته وعظيم صنعه، وقد ذكرت الآية التالية سبعة من هذه المظاهر الطبيعية نذكرها فيما يلي:

**أولاً: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** هذه السماوات التي خُلِقَتْ على هذا الشكل وما تحتويه من بلايين النجوم المشتعلة والكواكب وغيرها التي يحفظها الله جميعاً بقانون الجاذبية ويمنعها من أن تتصادم أو يرتطم بعضها بكوكبنا الأرضي فتسفه وتدمره.

وهذه الكرة الأرضية التي نعيش عليها وما عليها من نبات وحيوان وسهول وجبالٍ وِبَحَارٍ، كل ذلك يسير على سنن كونية ثابتة ونواميس خاصة في منتهى الحكمة، ألا يعطينا كل ذلك دليلاً على وجود قدرة إلهية حكيمة أبدعت هذا الكون؟

**ثانياً: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾** أي تعاقبهما واختلافهما بالزيادة والنقصان، واختلاف الليل والنهار يَنشَأَن من دَوْران الأرض على محورها كما أنها لا تدور في مكانٍ واحدٍ، إذ إنها تدور أيضاً حول الشمس وهذان الأمران يعطينا نهاراً وليلاً مختلفي الطول.

ألا يدلّ اختلاف الليل والنهار على وجود قُدرةٍ إلهيةٍ أبدعته على هذا الشكل ليكون سبباً لحياة الكائنات؟



**ثالثاً: ﴿وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾** هذا النصُّ القرآني فيه جملة أمور تشهد على وجود الله ووحدانيته، فهو سبحانه خلق المواد التي تنشأ منها السفن، وألهم الإنسان إلى كيفية صنعها، وهو سبحانه الذي سخَّر البحار وجعل مياهها بتلك الكثافة بحيث تطفو عليها السفن التي ترتاد البحار حاملة المسافرين وأنواع البضائع من بلد إلى بلد مُحَقِّقة المنافع للناس، هذا فضلاً عن أن الله جعل البحار مصدراً لقوت الملايين من البشر بما تحتويه من أنواع السمك.

**رابعاً: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾** هذا النص له ارتباط بما ذكر من قبل باختلاف الليل والنهار الذي ينشأ عن دوران الأرض حول محورها وحول الشمس والذي له تأثير على تحرّكات الرياح، والرياح تنقل بخار الماء من المحيطات إلى داخل القارات حيث يتكاثف ويتحول إلى مطر، والمطر مصدر الماء العذب الذي تشربه الكائنات الحية وترتوي به الأرض التي تنبت صنوف النباتات، ولولا الماء العذب لانعدمت الحياة على الأرض، وصدق الله إذ قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] ألا يدل كل ذلك على وجود قدرة إلهية حكيمة؟

**خامساً: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾** بَثَّ: فَرَّقَ وَبَسَطَ. والدَّابَّةُ: تجمع الحيوان كله وتشمل الطير أيضاً. تأمل هذه الحيوانات التي تبلغ الملايين على وجه الأرض، فمنها ما يؤكل ومنها المفترس، وتأمل كل واحدة منها في طريقة معيشتها والحصول على قوتها، والدفاع عن نفسها، واختلاف أحجامها وألوانها وتناسلها مما يستلزم الكتابة عن أسرار هذه الكائنات المجلدات الكثيرة، أما تشهد هذه الدواب بوجود خالق لها في نهاية القدرة والعلم والحكمة؟

سادساً: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ وتصريفها: تقليبها في الجهات المختلفة ونقلها من مكان إلى مكان، ففي بعض البلدان يتغير هبوب الرياح مرّات كثيرة في اليوم الواحد، وفي بعض الأمكنة تهب الرياح باستمرار من جهة واحدة طيلة أسابيع أو أشهر، وفي زمن السفن الشراعية كانت الرياح ذات أهمية للتجارة حيث كان البحارة يجعلون رحلاتهم في موسم هبوب الرياح في الاتجاه الذي يقصدونه.

وهناك الرياح الموسمية، وهناك الرياح الحارة التي مصدر هبوبها من الصحارى، وهناك رياح تهبّ من الجبال أياً ما بطولها في كل مرة وتسبب تغيرات مفاجئة في الطقس، وقد تتحرك الرياح أحياناً في عواصف عنيفة تسبب أضراراً جسيمة... ألا يدل كل ذلك على قدرة الله العظيمة المحركة لتلك الرياح؟!

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ المسخّر: من التسخير وهو التّذليل، وتسخير السحاب: بَعْثُهُ من مكان إلى مكان آخر. والسحاب يتألف من الأبخرة المتصاعدة من المحيطات والبحيرات والأنهر والمستنقعات، حيث يتراكم على شكل غيوم ثم تسوقها الرياح إلى البلاد التي يريد الله إحياءها حيث تتجمع وتتحوّل إلى مطر عندما تصادف طبقة باردة، أو غير ذلك من العوامل الطبيعية.

وقد كشف القرآن عن هذا المعنى في موضع آخر حيث قال سبحانه ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الروم: ٤٨].

ويختتم الله الكلام عن هذه المظاهر الكونية بقوله ﴿لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي إن كل ما ذكر من هذه المظاهر الطبيعية والكائنات الحية لدلائل واضحة

على وحدانية الله للذين يفكرون بعقولهم ويدركون الحكمة منها ، ويستدلون بما فيها من الإتقان والنظام العام الذي يسودها على قدرة مبدعها وحكمته وفضله ورحمته لخلقه ، كما تدل على أنه وحده الجدير بالعبادة .

فالإسلام - خلافاً لكثير من الأديان - يدعو الإنسان إلى استعمال عقله في الوصول إلى الإيمان بوحداية الله عن طريق التفكير في خلق السماوات والأرض وما على الأرض من كائنات حية تشهد بعظيم قدرته وحكمته .



﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُم مِّنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّمَا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

### شرح المفردات

أنداداً: جمع ند، وهو المثل والنظير.

الذين اتبعوا: هم الرؤساء والقادة.

الذين اتبعوا: هم الأتباع من الرعية.

تقطعت بهم الأسباب: انقطعت الروابط بينهم.

كَرَّة: رَجْعَة وَعَوْدَة إِلَى الدُّنْيَا.

حَسَرَات: جَمْع حَسْرَة وَهِيَ أَشَدُّ دَرَجَاتِ النَّدَامَةِ.

وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ: لَا تَسِيرُوا وَتَتَقَادُوا تَبْعاً لَوْسَاوَسِ الشَّيْطَانِ.

الْفَحْشَاءُ: مَا اشْتَدَّ قُبْحُهُ مِنَ الذُّنُوبِ.

### الشِّرْكُ يُؤَدِّي إِلَى عَذَابِ اللَّهِ

وبعد أن ذكر القرآن جانباً من المظاهر الكونية الدالة على وجود الله ووحدانيته، وصف في الآية التالية حال المشركين ومصيرهم يوم القيامة، قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً﴾ والأنداد: جمع ند، وهو المثل والنظير، قد يُرادُ بالأنداد الأوثان التي اتخذها المشركون آلهة، وقيل: هم الرؤساء الذين يطيعونهم في معصية الله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي فمحبة المشركين للأصنام كمحبة المؤمنين لله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ والذين صدّقوا بوحدانية الله هم أشدّ حُبّاً له من حبّ أولئك المشركين لأوثانهم ورؤسائهم لأن حب المؤمنين لله متولد عن يقين واقتناع، بينما حب المشركين لمعبوداتهم متولد عن طريق الظنون والأوهام.

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ ولو يرى أولئك الذين كفروا وظلموا أنفسهم بالشرك بالله عذاب الله ويُعَايِنُونَهُ لَرَأَوْا مَا لَا يَوْصِفُ مِنَ الْهَوْلِ، وَأَنَّ الْقُدْرَةَ وَالسُّلْطَانَ لِلَّهِ جَمِيعاً دُونَ سِوَاهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْآلِهَةِ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ وَأَنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ لِمَن أَشْرَكَ بِهِ.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ وتبرأ: من التبرؤ وهو التخلص والتنصل، والذين اتَّبَعُوا هم أئمة الكفر ورؤساؤهم الذين يُحَرِّمُونَ وَيُحَلِّلُونَ غير

ما أمر الله، والذين اتبعوا: أتباعهم الذين يتلقون أقوالهم بالتقليد والطاعة ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾<sup>(١)</sup> أي تنصل الرؤساء من المرؤوسين وقت أن عاينوا العذاب وانقطعت الروابط والصلات التي كانت تجمعهم في الدنيا من عقيدة أو قرابة أو مصلحة أو أعمال.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أي تمنى الأتباع لو أن لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرأوا من هؤلاء الرؤساء الذين أضلّوهم عن سبيل الله ﴿كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ أي كما تبرأ الرؤساء من الأتباع في هذا اليوم العصيب ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي كما أراهم الله العذاب المعدّ لهم يريهم الله أعمالهم الفاسدة المدونة في الصحائف فيتيقنون من الجزاء عليها فيتحسرون، والحسرة أعلى درجات الندامة والهَمّ على ما فات ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ وهم باقون في عذاب النار خالدين فيها أبداً.

### الانتفاع من الأرض والحذر من الشيطان

ثم يُخاطب الله الناس جميعاً للانتفاع بما في الأرض من المآكل الطيبة التي تفضل بها عليهم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الحلال: ما أذن الله في تناوله من المآكل والمشارب خلاف ما حرّمه، وأن لا يكون الحصول عليه من مالٍ حرام. والطيب: هو المستلذ المستطاب غير الضار بالأبدان والعقول، هذه الآية نزلت في حق كل من حرّم على نفسه شيئاً لم يُحرّمه الله. فالمشركون

(١) الأسباب: جمع سبب، وهو في الأصل الحبل الذي يُشدّ به الشيء أو يصل بين أمرين برباط بينهما، والمراد: الصلات التي تربطهم بعضهم ببعض، وتقطّعت: مبالغة في القطع أي، أن هذه الصلات التي كانت تربط بينهم قطعت من كل ناحية بحيث لا يمكن وصلها.

العرب حَرَّمُوا الأكل من بعض لحوم الإبل ، وقد ذكر القرآن في سورة المائدة بعض هذه اللحوم من الإبل ، والآية وإن نزلت في هؤلاء المشركين العرب فإنها تشمل كل من كان على شاكلتهم كجماعة السيخ في الهند الذين يحرمون أكل لحم البقر بسبب عبادتهم لها .

فآية تخاطب الناس جميعاً بأن يأكلوا مما في الأرض من حيوانها ونباتها وثمارها ما كان حلالاً لا حُرْمَةً فيه ، طَيِّباً لا تعافه النفس ولا تتضرر منه الأبدان بشرط أن يكسبوها بطريق مشروع . ثم يضيف الله على ذلك قوله : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ خطوات الشيطان : أعماله ، وقيل : خطاياه ، أي ولا تتبعوا آثار الشيطان وأعماله وهي وساوسه التي يقذفها في صدور الناس لينقلهم من طاعة الله إلى معصيته ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي إن الشيطان عدو لكم - أيها الناس - ظاهر العداوة بحيث لا تخفى عليكم عداوته .

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ إن الشيطان يأمركم بالمعاصي التي تسوؤكم وتحزنكم في الدنيا وتسوء عاقبتكم في الآخرة ، كما يأمركم بما يشتد قبحه من الذنوب ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والقول على الله بغير علم هو أن يقول الإنسان : إن لله شريكاً أو يقول حَرَّمَ الله هذا ، أو أحلَّ الله هذا ، متعمداً الكذب على الله ، أو أن يُحَرَّمَ ويُحَلَّلَ عن جهالة كشأن من يحل شرب الخمر وأكل الربا وغيرهما من المنكرات ، مدّعياً بأن الله لم يحرم ذلك أو يستند إلى أدلة باطلة .





﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ۖ أُولَٰئِكَ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمُّ بَكُمْ عُمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ .

### شرح المفردات

ما أَلْفَيْنَا: ما وَجَدْنَا.

ينعق: يصيح بالغنم ويزجرها.

بُكُمْ: الأبكم هو الأخرس.

أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ: الإهلال: رفع الصوت، أي ما ذُبِحَ مذكوراً عليه غير اسم الله.

بَاغٍ: ظالم لغيره.

عَادٍ: أي لا يتجاوز الأكل من المحرمات ما يدفع عنه الجوع الشديد.

لَا يُزَكِّيهِمْ: لَا يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ الذُّنُوبِ.

شِقَاقٍ بَعِيدٍ: خلاف ونزاع بعيد عن الحق.

## ذمُّ التقليد الأعمى

كان أكثر العرب في الجاهلية يعبدون الأصنام ويشركونها في عبادة الله، فجاء الإسلام يستنهض العقل البشري من جموده على العقائد الباطلة، ويدعوه إلى التحرر منها، من ذلك دعوته العرب المشركين إلى الإسلام بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وإذا قيل للمشركين اتبعوا شريعة الإسلام المتمثلة بالقرآن المنزل من عند الله، كان جوابهم ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي نتبع ما وجدنا عليه آبائنا من الدين. هذا هو لسان حال أكثر أتباع الأديان في العالم، وهذا هو الجواب الذي يُتوقع منهم عندما تدعوهم إلى الإسلام، ولكن الله يرُدُّ عليهم مُسَفِّهاً عقولهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الهمزة في ﴿أَوَلَوْ﴾ للإنكار والتعجب، أي: أيتبعونهم ولو كان آبائهم لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون للصواب؟! .

هذه الآية فيها دعوة لتحرير العقل من الجمود على العقائد الموروثة الباطلة، وحثٌ للعقل على الانطلاق في مجاله الفكري لتقصي الحقائق في شأن العقيدة الدينية ليكون الإيمان قائماً على الاقتناع والبرهان والدليل، ولهذا يقول ابن عطية في تفسيره للقرآن: أجمعت الأمة على إبطال التقليد في العقائد.

فالتقليد في الباطل مذموم، أما التقليد لأهل العلم الأمناء فهو فرضٌ على العامي من أمر دينه لأنه ليس عنده من المؤهلات باستنباط الأحكام من أصولها عملاً بقوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فما دعا إليه الإسلام من التحرر من التقليد الأعمى للآباء بدون استعمال العقل والوقوف على الدليل هو منهج فكري يتفق مع أرقى ما توصل إليه العقل الإنساني في التحري عن الحقائق للوصول إلى الصواب الذي ترتاح إليه

النفس، ثم تأتي الآية التالية وفيها تمثيل لحال هؤلاء الكفار المقلدين آباءهم بهذه الصورة المزرية:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾  
يَنْعِقُ: يصيح، وهذا الصياح نوعان: منه الدُّعاء، وهو الصياح بالبهايم لتأتي، ومنه النداء وهو الصياح بها لتذهب. وقيل: الدُّعاء للقريب، والنداء للبعيد.

هنا صورة في منتهى الروعة حيث صورت الكفار بقطيع من الغنم والماشية وصوّرت من يدعوهم إلى الهدى كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تعي أو تفهم ما يتفوه به ذلك الراعي.

ثم يُصوّر الله حال الكافرين بقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمِيٌّ﴾ أي صُمٌّ عن سماع الحق، بُكْمٌ لا يتكلمون به لجهلهم إياه، عُمِيٌّ عن طريق الهدى ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهم لا عقل لهم كسبي كي يدركوا شيئاً من المعرفة لفقدهم الحواس الثلاث السمع والنطق والنظر التي هي وسائل للعلم والثقافة والقراءة، وبدون الانتفاع بهذه الحواس الثلاث لا يستطيع الإنسان أن يتلقّى شيئاً من العلم.

### الطعام حاله وحرامه

ثم يُخاطب الله المؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ والطيبات التي أمر الله المؤمنين بالأكل منها هي المستلذات من الأطعمة الحلال التي من الله بها عليهم ورزقهم منها ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ والشكر لله هو الاعتراف بنعمه والثناء عليه، وهذا يستدعي الامتثال لما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن كنتم أيها المؤمنون تخصّون ربكم وحده بالعبادة.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾ أي حرّم الله عليكم الأكل من الأنعام

الميتة التي تموت من غير ذَبْحٍ، والميتة لا تموت غالباً إلا لمرض أو تَسَمُّم أو انحلال أنسجتها بسبب الهرم، وهذا ما يجعل لحمها مُضِراً يتسمم الأكل منه.

كما حَرَّمَ عليكم ﴿وَالدَّمَ﴾ والمراد ما يسيل من الحيوان الحي كثيراً كان أم قليلاً، وهو ما يسمى (الدم المسفوح) والدَّم ضارٌّ بالصحة إذا استعمل غذاء، فالتحليل أثبت أن الدم يحوي كمية كبيرة من «حمض البوليك» وهو مادة تضر بالصحة إذا استعمل غذاء، وقد يكون في الدم جراثيم وفيروسات تحتوي على بعض الأمراض المعدية فيكون في ذلك الضرر لمن يتناوله.

وحرَّمَ الله أيضاً ﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ لأنه يُؤوي في جسمه عدداً كبيراً من أنواع الطفيليات كما أن الخنزير يُصاب بأمراضٍ شتى تنتقل إلى الإنسان إذا ما أكل من لحمه وتصيبه بأمراضٍ خطيرةٍ يمكن أن تُودي بحياته. ومن أخطر الطفيليات الشائعة في لحم الخنزير (الترخينة) وهي نوع من الديدان السلوكية المدورة تنتقل إلى الإنسان إذا أكل من لحمه وتسبب له أمراضاً خطيرة على صحته. كما أن لحم الخنزير يحتوي على دُهْنٍ أَكْثَرَ من ضعفي اللحوم العادية مما يزيد «الكولسترول» في الجسم ويسبب تصلباً في الشرايين وأمراض القلب.

وحرَّمَ الله على المؤمنين ﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾ والإِهْلَال: رفع الصوت، والإِهْلَال بالذبيحة لغير الله أن يذكر غير اسم الله عند ذَبْحها كما يفعل المشركون، فهم إذا ذبحوا رفعوا أصواتهم بقولهم: «باسم اللآت، أو العُزَّى، أو مَنَاة» وهي أسماء أصنام كانوا يعبدونها، فالحكمة من تحريم هذه اللحوم أن فيها تشبيهاً بالوثنيين ومشاركةً لهم في عقائدهم، والإسلام يريد أن يحمي أهله من كل مظاهر الوثنية.

﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ أي فمن ألجأته الضرورة إلى الأكل من تلك المحرمات،

والمضطر هو الجائع جوعاً مُهلكاً ولا يجد ما يأكله غير تلك المحرمات، ومثله من كان معتقلاً من عدوّ أكرهه على أكل لحم الخنزير ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي غير طالب للمحرّم وهو يجد غيره، أو على جهة الاستئثار به على مضطر آخر بأن ينفرد بتناوله فيهلك الآخر ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا متجاوز سدّ الجوع ولكن يأكل قدر ما يمسك به نفسه من الهلاك ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي من أكل ذلك على تلك الصفة فلا تبعة عليه ولا حرج ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إنه سبحانه غفور لمن أكل من المحرمات عند الضرورة وهو رحيم لمن أطاعه.

ثم يأتي الكلام عن أخبار اليهود الذين كتموا عن الناس أمر نبوة محمد مع أنهم يجدون نعته وصفاته مكتوبة عندهم في التوراة، وقد كانوا يكتُمون ما هو مكتوب خشية أن يدخل أهل ملتهم في الإسلام فتضيع مكاسبهم وما هم عليه من جاهٍ ورفاهية ولذيد الأطعمة، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وكتمان ما أنزل الله في كتابه من الأحكام هو أن يخفيه الأخبار عند السؤال عنه، أو يفسرونه على ما يوافق هَوَاهُم لأنه قد كان فيهم من يعرف الآيات الدالة على نبوة محمد فكانوا يذكرون لها تأويلات باطلة ويصرفونها عن معانيها الصحيحة ﴿وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال، أي يستبدلون ما يجب عليهم من بيان ما في التوراة من الحق بالكتمان لقاء مبلغ زهيد من عرض الدنيا وشهواتها، وسمى الله هذا الثمن بالقليل لأنه ينتفع به مدة قليلة.

﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أي أولئك الذين يكتُمون ما أنزل الله لمكاسبهم الدنيوية سيعاقبون يوم القيامة بإرغامهم على أكل النار من جمراتها المشتعلة بحيث تمتلئ بها بطونهم، إنه عذابٌ يفوق الوصف ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لا يكلمهم كلام رحمة ولا كلاماً يسرهم بل

يكلّمهم بالتوبيخ ، وهذا كناية عن حلول غضب الله عليهم وعدم الرضا عنهم ﴿وَلَا يَزْكِيهِمْ﴾ أي لا يُثني عليهم خيراً ولا يُطهرهم من دنس الذنوب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم عذاب موجه يوم القيامة .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أي أولئك اختاروا الضلالة على الهدى واختاروا العذاب على المغفرة ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ فما أجراًهم على العمل الذي يُقربهم إلى عذاب النار مع أنه لا يمكن الصبر عليها .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ الكتاب: المراد به جنس الكتب الإلهية التي أنزلها الله ، والمعنى: أي ذلك العذاب المترتب على الكتمان بسبب أن الله نزل الكتب الإلهية متلبسة بالحق ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ والذين اختلفوا هم أهل الكتاب بأن آمنوا ببعض كتب الله وكفروا ببعضها . وقيل المراد بالكتاب: القرآن فقد اختلف المشركون فيه فقال بعضهم: هو شجر ، وبعضهم: هو سحر ، وبعضهم: هو أساطير الأولين ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي إن الذين اختلفوا في كتب الله هم في خلاف ونزاع بعيد عن الحق .



﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ  
ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ  
عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ  
وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ  
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ  
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

### شرح المفردات

البرّ: التوسّع في فعل الخير وطاعة الله.

قِبَلَ: جهة.

وَأَتَى الْمَالَ: أعطى المال.

ابن السبيل: المسافر الذي انقطع عن بلده وليس له مال.

وفي الرّقاب: تحرير نفس من الرّق.

البأساء: الشدة والفقر.

الضّرّاء: من الضّر، وهو المرض ومصائب البدن، وقيل: النقص في الأموال والأنفس.

حين البأس: وقت شدة القتال مع الأعداء.

### البرُّ المطلوب من المؤمن

مرّ معنا في الآيات السابقة أن قبلة المسلمين في الصلاة كانت نحو بيت المقدس وهي قبلة اليهود، ثم أمر الله بعد ذلك المسلمين بأن يُحوّلوا قبلتهم نحو الكعبة بمكة المكرمة، وهذا ما أثار لغطاً وجدلاً عند اليهود وأكثروا الخوض فيه، فنَبّه الله في الآية التالية إلى أن الجدَل في مثل هذا الأمر خارج عن دائرة البر والخير إذ لا تفاضل للجهات عند الله لأنها كلها ملكه، وإنما التفاضل يكون بالإيمان وفيما يفعله الإنسان من وجوه الخير، قال الله تعالى:



﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ البرُّ: هو التوسع في فعل الخير ولكل طاعة وقربة إلى الله. وتولية الوجوه قِبَلَ الشيء: التوجه إلى جهة ذلك الشيء. والمعنى: ليس البر التوجه إلى جهة المشرق والمغرب، بل البر أعظم من ذلك وهو ما ذكرته الآية والتي تركز على ثلاثة أمور: أولاً: صحة العقيدة. ثانياً: الإحسان إلى الجماعة المحتاجة، ثالثاً: تهذيب النفس والعمل بمكارم الأخلاق.

### صحة العقيدة

وتتمثل بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ فهذا النص القرآني يُبين أن مظاهر البر تتمثل بالإيمان بتلك الأمور الخمسة:

١ - الإيمان بالله: هو الخضوع والإذعان والعبادة له وحده والتصديق بالصفات الواجبة له سبحانه من الوجدانية والبقاء والقدرة والعلم والحكمة وغيرها من صفات الكمال التي اختص بها، وأنه وحده سبحانه هو المُدَبِّرُ لأمور الخلائق يرزقها بفضله، كما أنه هو القاهر فوق عباده ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

والإيمان الصحيح يستتبع صدور الأعمال الصالحة من المؤمن واتقاء الشرور، فلذلك نرى الكثير من الآيات في القرآن التي ذَكَرَ الله فيها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أضاف إليهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

والإيمان بالله ينير لنا ظلمات الحياة، ففي ساعة اليأس يتذكر المؤمن أن هناك ملاذاً يلجأ إليه وأن ربه قادرٌ على معونته، فليس هناك ما يدعو إلى اليأس والجزع فتطمئن نفسه وتصغر أمامها المصاعب والأهوال، وقد جاء في القرآن

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

٢ - الإيمان باليوم الآخر: وهو التصديق بالبعث وبما يقع بعده من حساب على الأعمال وثواب وعقاب، فالإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالعدالة الإلهية، وأن الخير لا يعدم جزاءه ولو بدا أنه في الأرض لا يلقي الجزاء وأن الظالم لن يفلت من ظلمه لأن الله أعدَّ له عذاباً أليماً، كما أن الإيمان باليوم الآخر يخفف على المؤمن مصائب الدنيا اعتقاداً منه بما أعدَّ الله للصابرين من حُسن الجزاء.

٣ - الإيمان بالملائكة: وهي أجسام نورانية قادرة على التشكل في صور مختلفة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، وإنهم سفراء الله إلى أنبيائه ورسله يبلغونهم وحي الله وإن منهم الذي يقبض أرواح العباد عند استيفاء أجلها، وإن منهم من يُدَوِّنُونَ أعمال العباد الحسنة أو السيئة ليجازوا عليها يوم القيامة. كما أن لهم وظائف شتى وَكَّلَهُمُ اللَّهُ بِهَا، وقد أمرنا الله تعالى بالإيمان بهم وهو إيمان بالغيب الذي لا يُرى ولا يُحسُّ، فحقُّ علينا أن نُؤْمِنَ بوجودهم.

٤ - الإيمان بالكتاب: الكتاب: للجنس أي التصديق بجنس الكتب الإلهية لأنها تحتوي على ما بلغه الله للرسل من الشرائع إلى أممهم، ولهذا يجب على المسلم أن يصدق بالقرآن وبما سبقه من الكتب التي أنزلها على رسله، ومن هذه الكتب بالإضافة إلى القرآن المنزل على محمد ﷺ: التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، والإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، والزبور المنزل على داود عليه السلام، وضحف إبراهيم عليه السلام، والقرآن ذكر أن أتباع الديانات السابقة نسوا حظاً مما ذكروا به وطراً على كتبهم التحريف والتبديل

بسبب طول الزمان عليها وضياع أصولها، فجاء الإسلام مصححاً لما طرأ عليها من بدع وتحريف وتبديل وبيان الحقيقة لما اختلفوا فيه من الدين.

٥ - الإيمان بالنبين: وهو التصديق بأنهم رجال اصطفاهم الله لتلقي هدايته وكُتبه وتبليغها للناس بأمانة وصدق، والنبيون والرسل الذين يجب الإيمان بهم هم كل من ثبتت نبوتهم عن طريق القرآن أو الحديث الصحيح المروي عن النبي محمد ﷺ وكل من أنكر نبوة نبي ثبتت نبوته فقد كفر. والإيمان بالأنبياء يستتبع التخلق بأخلاقهم والاهتداء بهديهم، وقد ذكر الله بعض الأنبياء في القرآن وعقب على ذلك بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

### الإحسان إلى الجماعة المحتاجة

ويتمثل ذلك بما ذكرته الآية: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾.

ومعنى ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي وأعطى الإنسان المال وهو محب له حريص على جمعه للمحتاجين من عباد الله وهم:

١ - ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾: أي من البر أن يُعطي الإنسان المال المحبوب إليه إلى الفقراء من ذوي قرابته لأنهم أحق ببذل المال لهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى الرَّحِمِ<sup>(١)</sup> اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ<sup>(٢)</sup>».

(١) الرحم: هم ذوو القربى.

(٢) أخرجه النسائي والترمذي وابن ماجه.

٢ - ﴿وَالْيَتَامَى﴾ : جمع يتيم وهو من فقد أباه قبل أن يبلغ سن البلوغ، واليتامى أحق بالإحسان بعد ذوي القرابة لعجزهم عن كسب ما يسد حاجاتهم، وإذا أهمل اليتامى كانوا أعضاء فاسدين في المجتمع فينشأوا وفي أنفسهم عُقد نفسية فيكون منهم اللصوص وقطاع الطرق.

٣ - ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ : جمع مسكين وهو من لا شيء له من المال أو له شيء لا يكفي حاجاته، فإعطاء المساكين ما يسد حاجاتهم هو من البر الذي رغب الله فيه.

٤ - ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ : وهو المُسافر المنقطع عن ماله ولا يمكنه الاستقرار للرجوع إلى بلده فيعطى من المال ما يسد حاجته، وفي هذا تنبيه على أن المسلمين وإن اختلفت أوطانهم ينبغي أن يكونوا في التعاطف والتعاون كالأُسرة الواحدة.

٥ - ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ : جمع سائل وهو طالب الصدقة بدافع الحاجة، فمن البر التصدق عليه إلا إذا تبين أنه غير محتاج فإنه لا يُعطى من المال لأنه يتخذ من التسوّل مهنة له.

٦ - ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي تحرير الأرقاء من العبودية وذلك بشرائهم ثم عتقهم أو بإعطائهم المال ليدفعوه إلى أسيادهم الذين كاتبوهم على قدر معلوم من المال يؤدونه لهم نظير عتقهم وتحريرهم من الرق، والإسلام أول دين في الأرض دعا إلى تحرير الرقيق.

وإعطاء المال لمن تقدم ذكرهم من المحتاجين هو غير الزكاة، فالزكاة محدودة النوع والمقدار بينما في الآية يُعتبر بذل المال من باب الصدقات التي يُثاب عليها المؤمن، وهي غير محددة، يتراوح ثوابها حسب ما يبذله المتصدق عن طيب نفسه.

## التهديب النفسي والعمل بمكارم الأخلاق

ويتمثل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ وإليكم ما في تلك الأمور من توجيهات طيبة:

١ - ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي من أعمال البر أداء الصلاة بأركانها وشروطها، ففي الصلاة تَوَجُّهُ إلى اللَّهِ سبحانه ومناجاته والثناء عليه، والاعتراف بأنه هو المعبود وحده، وهو المستعان، ومن شأن ذلك أن يخرس في قلب المؤمن مراقبة اللَّهِ والخشية من عصيانه فتصدر أعماله وفق أوامر اللَّهِ.

٢ - ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ ومن أعمال البرِ إعطاء الزكاة المفروضة لمستحقيها، والزكاة من معانيها في اللغة: الطهارة فهي طهارة لنفوس الأغنياء من البخل والأنانية والطمع، وطهارة لنفوس الفقراء من الحسد والبغض للأغنياء. والزكاة يجب إعطاؤها للمحتاجين عن كل ما يملكه الشخص ملكاً تاماً من أموال عينيه وبضائع تجارية وزراعة ومواشي شرط أن تكون زائدة عن حوائجه الضرورية، وأن يملك نصيباً من المال، وأن تمضي سنة على ما يقتنيه. وقد بينَ اللَّهُ مصارفها بقوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠]. هذه لمحة عن الزكاة التي تحتاج إلى شرح وتفصيل يُرجع إليها في الكتب المختصة في هذا الموضوع.

٣ - ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ والوفاء بالعهد من أعمال البرِّ، وهو يشمل العهد مع اللَّهِ ومع الناس. فالعهد مع اللَّهِ هو ما أخذه اللَّهُ على عباده بالقيام بحدوده والعمل بطاعته؛ أما العهد مع الناس فيشمل ما يكون بينهم من عقود ومواثيق فيجب الوفاء بها وهي من أعمال البرِّ التي دعا إليها.

والالتزام بالمواعيد هو من الوفاء بالعهد وهو من أجل الصفات التي يتحلّى بها الإنسان والتي بها ينتظم حسن العلاقات بين الناس .

٤ - ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ والصبر من أنواع البرّ وهو ملاك الأخلاق الإنسانية، وقد عدت الآية الأحوال الشديدة التي تحتاج إلى الصبر وهي: الصبر في البأساء، والبأساء: الفقر والشدة، والضراء: ما ينال الجسم من مَرَضٍ عارضٍ أو مرضٍ خطير أو فقد عضو من أعضائه، والصبر حين البأس: هو حين القتال وحين تدور رحى الحرب. هذه الأحوال هي أشد الأمور التي يحتاج فيها الإنسان إلى الصبر، وقد وعد القرآن الصابرين بالثواب الجزيل يوم القيامة حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ثم ختم الله آية البر التي جمعت صفات الكمال البشريّ وأفعال الخير بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ هنا تنويه بشأن الذين تحلّوا بهذه الصفات التي ذكرتها الآية حيث وصفهم الله بالصدق، فهم الذين صدقوا في إيمانهم وحقّقوا أقوالهم بأفعالهم، كما وصفهم الله بالتقوى، فهم الذين اتقوا عقاب الله بتجنب معاصيه، واتقوا عقاب الله بأداء فرائضه.

وهكذا نرى آية البرّ على إيجازها صورت جميع مكارم الأخلاق وأرفع الخصال البشرية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ بِالحَرْ  
وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى زَمَنَ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ  
بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ  
أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ  
يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ .

### شرح المفردات

القِصَاصُ : إنزال العقوبة بالجاني بمثل جانيته .  
فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ : أي إذا صفح وليّ القتل عن القاتل تجب الدية .  
فَاتَّبَاعُ بِالمعروف : أي فلتكن مُطالبة وليّ القتل بالدية بالمعروف بحيث لا تُرهِق القاتل .  
وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ : وعلى القاتل أن يؤدي الدية إلى أهل القتل من غير مماطلة ولا بخسٍ  
لحقهم .

### عقوبة القاتل عن عَمْدٍ

لا تخلو المجتمعات الإنسانية من مُنحرفين ضالّين يعتدون على النفس  
بالقتل عَمْدًا ، لذا كان من الحكمة الإلهية وجوب تأديبهم والاقتصاص منهم .  
وقد كان للعرب قبل الإسلام عادات من بينها قتل القاتل ولكنهم كانوا  
يسرفون في ذلك ولا يتوخّون العدل فكانوا كثيراً ما يعاقبون البريء بدلاً من  
القاتل عن طريق قتل أحد أقربائه ثأراً لقتيلهم ، وكانوا يهملون دم الوضيع إذا  
قتله الشريف .

لذا جاء الإسلام بتشريع العادل في عقوبة القتل عن عَمْدٍ ، قال الله تعالى :  
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ كُتِبَ عليكم : أي  
فُرضَ عليكم ، والقِصاص : العقوبة بالمِثْلِ من قَتْلٍ أو جَرْحٍ . والقتلى : جمع



قتيل ، وإنما يُفَرَضُ الْقِصَاصُ عند القتل الواقع على وجه العمد والعُدوان وحيث يُطالب به أولياء القتيل - وقد صدرت الآية بخطاب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ للحض على إنفاذ حكم القصاص ، لأن من شأن الإيمان الصادق أن يحمل المؤمنين على تنفيذ شريعة الله التي فيها الخير لهم .

ثم فَصَّلَتِ الْآيَةُ حُكْمَ الْقِصَاصِ فِي الْقَتْلِ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ أي الحُرُّ الْقَاتِلُ يُقْتَلُ فِي مُقَابِلِ الْحُرِّ الَّذِي قَتَلَهُ ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ وَالْعَبْدُ يُقْتَلُ فِي مُقَابِلِ الْعَبْدِ الَّذِي قَتَلَهُ ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ وَالْأُنْثَى تُقْتَلُ فِي مُقَابِلِ الْأُنْثَى .

هذا بيان لمعنى المساواة في القتل المشار إليه بلفظ القصاص ومفاده أن يُقْتَلَ الْقَاتِلُ بِالَّذِي قَتَلَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ . كما أَنَّ النِّصَّ الْقِرَآئِيَّ يُبْطَلُ مَا كَانَ جَارِيًّا عِنْدَ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ حَيْثُ إِنْ الْقَبِيلَةُ الْقَوِيَّةُ إِذَا قَتَلَتْ مِنْهَا الْقَبِيلَةَ الضَّعِيفَةَ شَخْصًا لَا تَرْضَى إِلَّا أَنْ تُقْتَلَ مُقَابِلَهُ أَشْخَاصًا مِنَ الْقَبِيلَةِ الضَّعِيفَةِ .

ثم إِنْ الْآيَةُ ذَكَرَتْ حُكْمَ الْقِصَاصِ فِي النَّوعِ الْوَاحِدِ وَلَمْ تَتَعَرَّضْ لِلْحُكْمِ مَا إِذَا اخْتَلَفَ الْقَاتِلُ وَالْقَتِيلُ نَوْعًا ، كَمَا إِذَا قَتَلَ حُرٌّ عَبْدًا ، أَوْ قَتَلَ رَجُلٌ امْرَأَةً أَوْ الْعَكْسَ ، وَلَكِنْ نَرَى فِي نَصِّ الْقُرْآنِ الدَّعْوَةَ إِلَى التَّسَاوِي فِي النُّفُوسِ أَيِ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ الْقِصَاصِ الَّذِي فَرَضَهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] .

وَمِنَ الْقَوَاعِدِ الْجَارِيَةِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ شَرَعَ مَا قَبْلَهُمْ يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ إِذَا لَمْ يَرُدَّ فِي شَرْعِهِمْ مَا يَنْسَخُهُ ، وَلِهَذَا جَرَى الْعَمَلُ مِنْذُ زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَا بَعْدَهُ عَلَى قَتْلِ الرَّجُلِ بِالْمَرْأَةِ وَالْمَرْأَةِ بِالرَّجُلِ .

وهنا يأتي سؤال : أَيُقْتَلُ الْمُسْلِمُ بِالْكَافِرِ إِذَا قَتَلَهُ؟ قَالَ جَمْهُورُ الْعُلَمَاءِ :

إنه لا يقتل مسلم بكافر لقول النبي ﷺ: «لا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»<sup>(١)</sup> أما الإمام أبو حنيفة وأصحابه فيرون أن المسلم يُقتل إذا قُتِلَ ذَمِيًّا وهما متساويان في الحرمة التي تستوجب القصاص لأن كلاهما صار من أهل دار الإسلام، والذي يحقق ذلك أن المسلم تقطع يده بسرقة مال الذمّي، وهذا يدل على أن مال الذمّي مساوٍ لمال المسلم وحرمة دم الذمّي أعظم من حرمة ماله.

والإسلام لم يحتم إنزال العقوبة بالقاتل عن عمد بل ترك الأمر لوليّ القتل الذي جعل له الحق بأن يطلب من الحاكم الاقتصاص منه بأن يُقتل أو العفو عنه مع أخذ الدية، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ عَفِيَ: من العفو وهو إسقاط العقوبة عنه والذي عَفِيَ لَهُ هو القاتل. و ﴿أَخِيهِ﴾ الذي عفا هو وليّ المقتول. والمراد بلفظ ﴿شَيْءٍ﴾ القصاص. ومعنى هذه الجملة التي صيغت عن طريق الإيجاز: أَنَّ وَلِيَّ الْمَقْتُولِ إِذَا أَسْقَطَ الْقِصَاصَ عَنِ الْقَاتِلِ يَكُونُ مِنْ شَأْنِهِ طَلَبُ الدِّيَةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ لِوَلِيِّ الْمَقْتُولِ بِأَنْ يَتَّبِعَ عَفْوَهُ بِالْمَعْرُوفِ فَلَا يَثْقُلُ عَلَيْهِ بِالْدِّيَةِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ أَدَاءَهَا وَلَا يَحْرَجُهُ فِي الطَّلَبِ ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ وصية للقاتل بأن يؤدي الدية بإحسان فلا يماطل في دفعها ولا يبخس فيها ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فهو امتنان من الله سبحانه على عباده بما في هذا التشريع الذي تضمن فتح باب العفو والاكتفاء بالدية فإنها تخفيف على القاتل وتعود بالنفع لأولياء القتل ﴿فَمَنْ اعْتَدَى بِغَدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هنا تحذير لمن يرجع بعاطفة الغضب إلى قصد الانتقام فيقتل الجاني الذي سبق أن عفا عنه مقابل الدية، فهذا المعتدي له عذاب في الدنيا بالاقتصاص منه وعذاب بالآخرة بما أعد الله له من عقاب.

(١) أخرجه البخاري.

ويُلاحِظُ أنَّ الإسلامَ، في القِصاصِ للقتلى، جعل الحق لأولياء المقتول وهم ورثته، ولا فرق بين ذَكَرٍ وَأُنْثَى، فهؤلاء الورثة لهم أن يطلبوا من الحاكم تنفيذ حكم الشرع بقتل الجاني شفاءً لغيظ نفوسهم، لأنه إذا لم يُجِبْهُمْ القاضي إلى طلبهم ولم يُقْتَصَّ لهم من القاتل أدّى ذلك إلى الأخذ بالثأر وتسلسل جرائم القتل كما أن لأولياء القتيل العفو عن الجاني، ولكن هناك عقوبة تعزيرية بدلاً من القِصاص وهي تكون بالقدر الذي يراه القاضي صالحاً لتأديب الجاني ودفع ضرره: مِنْ حَبْسٍ أَوْ نَفْيٍ أَوْ قَتْلِ إِذَا كَانَ يُهَدِّدُ السَّلَامَةَ الْعَامَةَ.

وهناك أحكام أخرى للقتل عن عَمْدٍ نذكر بعضها فيما يلي:

- يُقْتَصَّ من الجماعة بقتل الواحد، فإن رأى أولياء القتيل - أي ورثته - قتل الجناة قُتِلُوا جميعاً، ولهم الحق أن يعفوا عن بعض الجناة والاقتصاص من الآخرين.

- الْوَالِدُ لَا يُقْتَلُ بِقَتْلِهِ وَلَدُهُ، فالأب هو سبب وجود الابن فلا يكون الولد سبباً لإفناؤه.

- القتل الخطأ لا قِصاص فيه وعقوبته تحرير رقبة مؤمنة من الرق ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بتنازلهم عنها.

- إذا عفا بعض أولياء القتيل عن الجاني وخالف البعض الآخر سقط القصاص عن الجاني وعاد الأمر إلى الدية.

ثم يتبع الله آية القِصاص بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ هذه الآية ترتقي إلى أعظم مراتب البلاغة، فإنها على إيجازها تشتمل على المعاني الآتية:

١ - سُمِّيت العقوبة قِصاصاً لأنَّ القِصاص يتضمن المساواة بين الجريمة والعقوبة وفي هذا منتهى العدالة.

٢ - أعلنت الآية أن القصاص فيه حياة الجماعة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ لأن من يعلم أنه سَيُقْتَصُّ منه إذا قَتَلَ، يمتنع عن القتل فيتسبب بذلك في حياة نفسه وحياة من يُريد قتله، كما أن سافك الدماء إذا اقتُصَّ منه ارتدع من كان يهَمُّ بالقتل فلم يقتل، فكان القصاص سبباً للحياة. وإذا لم يكن هناك قصاصٌ أَهْدَرَتِ الدماء وأصبح الأمر لذي الغلبة والقوة وسرى في المجتمع الأخذ بالتأثر.

٣ - أشارت الآية إلى أن غاية القصاص وحكمته تدركها العقول السليمة وهذا ما ذكرته الآية ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الألباب: جمع لب وهو العقل الخالص من شوائب الأوهام.

٤ - ختمت الآية بقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي فرضنا عليكم القصاص للقاتل لتتقوا الجريمة خوفاً من العقوبة.



﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨٢﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٣﴾

### شرح المفردات

حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ: ظهرت أماراته من العلل والأمراض الخطيرة.  
تَرَكَ خَيْرًا: ترك مالا.

الوصية: هي ما يُوصي به إنسانٌ من مالٍ أو غيره ليُضَرَفَ بعد موته لشخص أو جهة معينة .  
 فمن بَدَّلَهُ: فمن غَيَّر الوَصِيَّةَ بالزيادة أو النقصان أو أنكرها .  
 إثمُهُ: الإثم ارتكاب الذنب .  
 جَنَفًا: الجَنَفُ هو الجور والميل عن الحق .

### الْوَصِيَّةُ بِالْعَدْلِ

ويُتَابَع القرآن فيدعو إلى الوصية للوالدين والأقربين وأن تكون الوصية بالحق والعدل ليعمَّ نفعها ويحصل الخير منها ، قال اللَّهُ تعالى :  
 ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ كُتِبَ عليكم : بمعنى وجب عليكم ، وحضور الموت حدوث أسبابه وظهور علامات على أن الموت صار قريباً بسبب العلل والهزم البالغ والأمراض الخطيرة ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ والخير: المال ، ومقام الأمر بالوصية فيه يُشعر بأن المراد بالخير: المال الكثير ، وجمهور العلماء يرى أن الوصية مشروعة في المال قليله أو كثيره ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي وجب عليه أن يُوصي بجانب منه لوالديه : أبيه وأمه وأقاربه ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي إنَّ الوصية يجب أن تكون بالعدل الذي هو متعارف بين الناس وأن لا تتجاوز ثلث المال ، وأن لا تكون الوصية للأغنياء ويحرم منها الفقراء ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وهذه الوصية هي واجبة ثابتة ينفذها المتقون لله .

وقد كانت الوصية في بدء الإسلام فريضة للوالدين والأقربين على من له مال ، وسبب ذلك أن العرب قبل الإسلام كانوا يوصون للأبعدين طلباً للفخر والجاه ويتركون الأقربين فقراء فأوجب اللَّهُ تعالى الوصية للأقربين وفي طليعتهم الوالدين ، وجمهور المفسرين والفقهاء يرون أن هذه الآية منسوخة بآيات الميراث في سورة النساء التي خصت الوالدين والأقارب ممن يرثون بنصيب من

ميراث المتوفى ودليلهم في ذلك: أن النبي ﷺ خطبهم قائلاً: «إِنَّ اللَّهَ قد قسم لكل إنسان نصيبه من الميراث فلا تجوز لوارث وصية»<sup>(١)</sup>.

والقائلون بنسخ وجوب الوصية للوارث قالوا: إن النسخ مقتصر على الذين يرثون ولكنها مستحبة فيمن لا يرثون كأن يكون الوالدان كافرين أو يكون الأقارب ممن لا يرثون<sup>(٢)</sup>.

كما ذهب جمهور العلماء إلى أن الوصية يكون حدّها الأعلى: الثلث من مال المتوفى، فإذا زادت عن الثلث بطل ما زاد عن الثلث. وفي الصحيحين «أن سعد بن أبي وقاص قال: يا رسول الله إن لي مالاً ولا يرثني إلا ابنة لي أفأوصي بثُلثي مالي؟ قال: لا، قال: فبالشطر<sup>(٣)</sup>؟ قال: لا، قال: فالثلث؟ قال: الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفون الناس».

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه.

(٢) وبعض فقهاء السلف قالوا بوجوب الوصية للوالدين أو الأقارب الذين لا يرثون، وهذه الوصية الواجبة أصبحت علماً يقصد بها إعطاء الحفيد المحجوب بالميراث حصة من مال جدّه لا على سبيل الإرث وإنما على سبيل الوصية الواجبة، فلو كان للأب ابنان توفي أحدهما في حياته وله أولاد ثم توفي الأب فإن ميراثه كله للابن الحي ولا شيء لأولاد الابن المتوفى لأنهم محجوبون بالابن الذي هو أقرب درجة.

ولكن الذين شرعوا الوصية الواجبة خصصوا لهذا الحفيد حصة من مال جدّه لا على سبيل الإرث وإنما على سبيل الوصية الواجبة، ولهذا أخذ بالوصية الواجبة القانون الصادر في مصر سنة ١٩٤٦ والقانون الصادر في سوريا سنة ١٩٥٣، وقال المشرعون: إنه يفرض لهذا الحفيد المحجوب بالميراث حصة من مال جدّه بمثل حصة أبيه الإرثية لو كان حياً شرط أن لا تزيد عن الثلث الباقي من التركة سواء كان هذا الفرع واحداً أو متعدداً وسواء أوصى الميت أو لم يوص، أو أجاز الورثة أو لم يجيزوا. نقلاً باختصار عن كتاب «الميراث على المذاهب الأربعة» للعلامة القاضي الشيخ حسين غزال.

(٣) الشطر: النصف.

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ فمن غَيَّرَ الوصية الواقعة بالعدل بالزيادة في الموصى له أو النقص من حصته من بعد ما سمعها وتحقق منها من الوصي ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ أي إنما الذنب يقع على الذين يُبَدِّلُونَ الوصية، ومن يُتوقع منهم تبديل الوصية هم الأوصياء المكلفون بتنفيذ الوصية وكذلك الشهود ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إن الله سميع لما أوصى به الموصي، عليم بما يقع فيها من تبديل وتغيير.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ الخوف: المُراد به هنا العلم عن طريق المجاز، والفرق بين الجنف والإثم: أن الجنف هو الميل على جهة الخطأ من حيث لا يدري أنه يجور<sup>(١)</sup>، والإثم هو الذنب الذي يفعله الإنسان عن قصد. والمعنى: أي من علم في وصية الموصي ميلاً عن الحق خطأ أو إثماً مقصوداً بأن حرم من وصيته من يستحق من أقربائه أو قدم عليه من هو أبعد نسباً أو أوصى إلى غني من أقربائه وترك فقراءهم، أو أوصى لبني ابنه ليكون المال لأبيهم ﴿فَأُصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي من علم ذلك فسعى في إصلاح الوصية وطلب من الموصي تبديل وصيته، أو سعى إلى إصلاح الوصية بعد وفاة الموصي بتبديل ما هو جائز إلى ما هو حق فأصلح ما وقع بين الورثة من خلاف فلا إثم عليه، بل يكون له ثواب الإصلاح ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إنه سبحانه واسع المغفرة والرحمة لمن قصد الإصلاح في الوصية.

وكان قتادة وهو من أئمة المفسرين يقول: من أوصى بجور أو حيف<sup>(٢)</sup> في وصيته فردّها وليّ المتوفى أو إمام من أئمة المسلمين إلى كتاب الله وإلى العدل، فذاك له (أي جائز ومطلوب).

(١) الجور: الظلم.

(٢) الحيف: الظلم.



ويقول ابن عباس: إذا اخطأ الميت في وصيته أو حاف<sup>(١)</sup> فيها، فليس على الأولياء حرج أن يردُّوا خطأه إلى الصواب.

هذا وقد حذر الرسول محمد ﷺ من الإضرار في الوصية فقال: «إن الرجل لعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيُضَارَّان في الوصية فتجب لهما النار»<sup>(٢)</sup>.

وهنا تظهر عظمة التشريع الإسلامي بتوجيهه أولي الأمر أن يعملوا على جعل الوصية في حدود العدل والحق، ليس فيها جنوح إلى الظلم فتَمْنَحُ أشخاصاً غير مستحقين وتَحْرُمُ آخرين أحقَّ منهم بالوصية، بالإضافة إلى ذلك بأن تكون الوصية في حدود الثلث من المورث لغير الورثة حتى لا يُحرَمَ الورثة من نصيبهم الذي بيَّنه القرآن.

ويزداد إعجابنا بعظمة التشريع الإسلامي عندما نقرأ أن بعض الأشخاص في الدول الغربية يوصون بأموالهم كلها للكلاب والقطط ويحرمون الورثة مما يستحقون من مال، أو يخصّون فرداً بعيداً عن العائلة بأموالهم كلها، والغريب أن مثل هذه الوصية تنفَّذ على هذا الوجه الموصى به حسب قوانينهم المدنية.



(١) حاف: ظلم وجار.

(٢) أخرجه الترمذي وأبو داود.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى  
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ  
 كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى  
 الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ  
 لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ  
 الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى  
 وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ  
 عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا  
 يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا  
 هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

### شرح المفردات

كما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ : كما فُرضَ عَلَى الْأُمَمِ التي سبقتكم .

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ : لتتقوا المعاصي بصيامكم .

فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ : أي تصوموا الأيام التي أفطرتموها .

يُطِيقُونَهُ : يحتملونه بمشقة كبيرة كما في كبير السن .

فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا : فمن زاد على القدر المذكور في الفدية .

هُدًى لِّلنَّاسِ : هادياً ومرشداً من الضلالة .

يَبَيِّنَاتٍ : آيات واضحة .

الْفُرْقَانِ : الفارق بين الحق والباطل .

فَمَنْ شَهِدَ : حضر أو علم به .

وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ : ولتكمّلوا عدد أيام شهر رمضان صياماً أداء وقضاء .

## فريضة الصيام وأحكامها

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن الصوم وأحكامه الذي فرضه الله على المؤمنين قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾  
يُخاطب الله المؤمنين من أمة محمد بأنه قد فرض عليهم الصيام كما كان مفروضاً في الأمم السابقة، وإن اختلف الصيام بين أمة وأمة في الكيفية والمدة.  
والصيام شرعاً في الإسلام: الإمساك عن الطعام والشراب والامتناع عن المباشرة الزوجية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس طيلة شهر رمضان مع النية امثالاً لأمر الله.

وقد شرع الله الصيام في الإسلام لما فيه من الخير والفضائل للإنسان والمجتمع، كما بيّن رسول الله محمد ﷺ بأن الصيام من أركان الإسلام الخمسة حيث قال: «بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت<sup>(١)</sup> من استطاع إليه سبيلاً»<sup>(٢)</sup>.

ثم بيّن الله الغاية من الصوم بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لعلّ: بمعنى الإعداد والتهيئة، أي إن الصوم يهيئ النفوس ويُعدّها للتقوى، والتقوى هي وقاية النفس من كل ما يعرضها لغضب الله وعذابه، ويكون ذلك بالامتنال لأوامر الله واجتناب نواهيه.

وإعداد الصيام نفوس الصائمين لتقوى الله يظهر من وجوه كثيرة أهمها

(١) البيت: هو بيت الله الحرام.

(٢) متفق عليه.

وأعظمها شأنًا: أن أمر الصيام موكول إلى نفس الصائم لا رقيب عليه إلا الله، فإذا ترك الصائم شهواته من الطعام وغيره التي تُعرض له أثناء الصوم امتثالاً لأمر الله شعوراً منه بأن الله تعالى يعلم أحواله فلا جرّم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة طيلة شهر رمضان ملكة مراقبة الله تعالى وخشيته والحياء منه بأن يراه حيث نهاه، هذه المراقبة أيضاً تؤهله لكل أعمال الخير وتبعده عن الشر، ولهذا يقول رسول الله محمد ﷺ: «إنما الصوم جُنة (أي وقاية) فإذا كان أحدكم صائماً فلا يَرْفُث<sup>(١)</sup> ولا يَجْهَل<sup>(٢)</sup>، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، إني صائم»<sup>(٣)</sup>.

والصيام يربّي في الصائم الوازع الإنساني الداخلي الذي يحفزه نحو الخير والعطف على المساكين، فإنّ الصائم إذا ذاق أَلَمَ الجوع في شهر رمضان ذكر ما يُقاسيه المساكين من آلام الجوع في سائر الأيام فيتسارع إليه شعور الرحمة بهم والعطف عليهم.

كما أن الصوم يقوّي الإرادة، فالذي يصبر على آلام الجوع والعطش ويكبح نفسه عن الشهوات الجنسية وقت الصيام احتساباً لأمر الله لا شك أنه يحصل له من جرّاء ذلك قوة في الإرادة تجعله مالكاً لزام نفسه وليس أسيراً ومستعبداً لأهوائه ورغباته الضاربة.

وأخيراً نقول: إن في الصيام شفاءً لكثير من العِلل والأمراض الناشئة عن الإسراف في الطعام وهذه حقيقة اعترف بها الأطباء.

(١) فلا يرفث: المراد بالرفث هنا الكلام الفاحش.

(٢) ولا يجهل: ولا يفعل شيئاً من أفعال أهل الجهل والسفه في المخاصمة.

(٣) أخرجه البخاري.

وبعد هذه المقدمة نتابع ما ذكره الله عن الصوم بقوله:

﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾ والمراد بهذه الأيام المعدودات التي يجب فيها الصوم شهر رمضان. والتعبير عن شهر رمضان بأنه أيام معدودات لتقليل مدته وتيسيره على الصائمين، وكأن الله سبحانه يقول: فرضناه شهراً تُعدُّ أيامه ولم نفرضه أكثر من ذلك رحمةً بكم.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي من كان من المسلمين في مرض أو سفر فقد أباح الله له أن يمتنع عن الصيام ويفطر مدة المرض أو السفر، والمرض المبيح للإفطار هو الذي يحدث ألماً وضرراً للصائم أو يزيد المرض شدةً أو يطيل مدته؛ والذي يقرر الضرر من صيام المريض الطبيب المسلم المختص. كما يُباح للمسافر<sup>(١)</sup> الإفطار في شهر رمضان. ثم يقول الله سبحانه ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ العدة: العدد من الأيام، أي فعلى المسافر والمريض قضاء الأيام التي أفطرا فيها، وهذه الأيام التي يُقضى بها تبتدئ من وقت القدرة على الصوم كما ذهب الإمام أحمد، وأوجب الشافعي أن تكون في السنة التي يكون فيها رمضان.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ والطاقة: اسم للقدرة على عمل الشيء مع الشدة والمشقة، ولا تقول العرب: أطاق الشيء، إلا إذا كانت قدرته عليه في غاية الضعف بحيث يتحمل به مشقة شديدة.

(١) يُباح الفطر للمسافر بشرط أن يكون السفر مسافة تبيح قصر الصلاة وهي مسافة سفر يوم وليلة بسير الإبل، هكذا كان في زمن نزول القرآن، وقدّر العلماء المسافة بثمانين كيلومتراً ومايتان. وفي عصرنا الحاضر تُقطع هذه المسافة في فترة قليلة من الوقت بواسطة السيارات والطائرات، وعلى هذا، فالمسافر الذي لا يقاسي مشقة شديدة في سفره، فالأفضل له أن يصوم، كما قال مالك والشافعي في بعض ما روي عنهما: الصوم أفضل لمن قوي عليه.

وإن الآية نزلت في الشيخ الكبير الهرم والمرأة الكبيرة الهرمة اللذين لا يستطيعان الصوم، فعليهما إطعام مسكين عن كل يوم أفطرا فيه ولا قضاء عليهما، أما المرضع والحامل فلهما أن تُفطرا وتقضيا الأيام التي أفطرتا فيها في شهر رمضان بعد نهاية الحمل أو الانتهاء من الرضاعة ولكن ليس عليهما فدية<sup>(١)</sup>.

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ أي فمن تطوع خيراً بأن زاد على القدر المفروض في الفدية أو أطعم أكثر من مسكين فتطوَّعه سيكون خيراً له وأجره عند الله ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وأن تصوموا خير لكم من الفطر إن كنتم تعلمون ما في الصوم من فضيلة وخير وفائدة.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي إن الله شرف شهر رمضان بإنزال القرآن فيه وكان ذلك في ليلة القدر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] أي ابتداء إنزال القرآن في تلك الليلة - وهناك معنى آخر كما روي عن ابن عباس والحسن رضي الله عنهما أن القرآن أنزل في تلك الليلة إلى سماء الدنيا جملةً، ثم أنزل مُفَرَّقاً في ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أي إن القرآن أنزل لهداية الناس من الضلال ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ وهو يشتمل على آيات وواضحات ترشد إلى الحق وتبين الحلال والحرام وتفرق بين الحق والباطل.

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن شهد: أي حضر أو علم، والمعنى: فمن حضر منكم دخول الشهر أو حلوله بأن كان مقيماً وليس عنده

(١) هذا ما ذهب إليه أبو حنيفة وأصحابه، وقال الشافعي وأحمد: يفطران ويطعمان عن كل يوم مسكيناً ويقضيان الأيام التي أفطرا فيها.

عذر يمنع من الصوم، أو علم منكم بحلول شهر رمضان - والمراد بالشهر في الآية: الهلال، فقد كانت العرب تعبر عن الهلال بالشهر، فعلى كل من رأى هلال رمضان وثبتت عنده رؤية غيره له عليه أن يبدأ صومه، ويثبت شهر رمضان بأحد أمرين:

**الأول:** أن يرى الهلال فعلياً إذا كانت السماء صافية.

**الثاني:** إذا كانت السماء غائمة ويمتنع معها رؤية الهلال فيجب إكمال شهر شعبان ثلاثين يوماً لقول النبي ﷺ: «صُومُوا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فَإِنْ غُمَّ<sup>(١)</sup> عليكم، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين»<sup>(٢)</sup>.

﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ تكررّت هذه الجملة في الدعوة إلى الصوم وذلك لأهميّة تلك الرخصة التي شرعها الله للتخفيف من مشقة الصيام على المريض والمسافر، والحكمة من هذه الرخصة بينها الله بقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ أي يريد الله لكم ما فيه السهولة واليسر للتخفيف عنكم من عناء الصوم حيث أباح الفطر لكم عند السفر أو المرض ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ولا يريد الله أن يرهقكم بالصوم عند المرض والسفر لرأفته وسعة رحمته بكم ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ ولتكمّلوا صيام عدد أيام شهر رمضان فلا تنقصوا من عدده يوماً أو أكثر فإن صيامه كله مفروض عليكم ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم﴾ والمراد بهذا التكبير هو تعظيم الله على ما هداكم إليه من صيام هذا الشهر المبارك بأن تقولوا: (الله أكبر) وهي جملة تدلّ على أن الله أعظم من كل عظيم، وإثبات العظمة له وحده يستلزم نقصان من

(١) غُمَّ: خفي.

(٢) متفق عليه.



عداه الذي لا يستحق الألوهية، لذلك كان من السنّة النبوية أن يُكَبَّر المسلمون عند الخروج إلى صلاة عيد الفطر، ويُكَبَّر الإمام في صلاة العيد ويكَبَّر المسلمون معه كما يكَبَّر الإمام في خطبة العيد، وينقطع التكبير عند انقضاء صلاة العيد ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا الله على ما أنعم عليه من الهداية والتوفيق لصيام هذا الشهر المبارك الذي فيه النفع لكم في الدنيا والثواب في الآخرة.

**فضيلة الصيام:** يقول الرسول محمد ﷺ: «إن في الجنة باباً يُقال له الرِّيَّان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم، يُقال: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحدٌ غيرهم، فإذا دخلوا أُغْلِقَ فلم يدخل منه أحدٌ»<sup>(١)</sup>.

ويقول الرسول محمد ﷺ أيضاً: «مَنْ قام لَيْلَةَ الْقَدْرِ إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه»<sup>(٢)</sup>.



(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ۖ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۚ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرِبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

### شرح المفردات

يَرْشُدُونَ: يهتدون إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.  
الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ: المراد به المباشرة الزوجية.  
تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ: تخونون أنفسكم.  
بَشِّرُوهُمْ: المراد بالمباشرة الجماع.  
وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ: واطلبوا ما أحل الله لكم منهن.  
عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ: الاعتكاف ملازمة المسجد والمكوث فيه للعبادة.  
تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرِبُوهَا: تلك ما حرَّمه الله ونهى عنه فلا تقربوا ما نهى عنه.

### الدُّعَاءُ مِنَ الْعِبَادَةِ

ويُتَابَعُ الْقُرْآنُ الْكَلَامُ عَنِ الصِّيَامِ وَمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ الْأَحْكَامِ مُسْتَهْلًا ذَلِكَ بِالْحَضِّ عَلَى الدُّعَاءِ لِأَنَّ الدُّعَاءَ مُسْتَجَابٌ مِنَ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ورد في أسباب نزول هذه الآية: أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرَبُ رَبِّنَا فَنَنَاجِيهِ أَمْ بَعِيدٌ فَنَنَادِيهِ؟ فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ...﴾<sup>(١)</sup> الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ والمراد بالعباد هنا المؤمنون الذين يشعرون بحق العبودية لله ويرتضونها طيبة نفوسهم بها، ومعنى ﴿فَأِنِّي قَرِيبٌ﴾ والمراد بالقرب: الإحاطة والعلم لا القرب المكاني لأنه محال على اللَّهِ إِذْ يَقْتَضِي أَنَّهُ جَسْمٌ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَتَنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَلِذَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤٠] أَي يَعْلَمُ فِي أَيِّ مَكَانٍ كُنْتُمْ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَرِيبٌ مِنْ عِبَادِهِ قَرَبٌ إِجَابَةٌ وَرِضَا وَرَحْمَةٌ.

وتأمل كيف أن الجواب على سؤال الأعرابي لم يأت بلفظ (قُلْ) أي قل لهم يا محمد كما وقع في الجواب على أسئلتهم الواردة في آيات أخرى بل تولى اللَّهُ الجواب بنفسه إشعاراً بشدة قربهِ من عباده.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي إِنْ أَلَّه يُجِيبُ دَعْوَةَ الَّذِي يَدْعُوهُ إِذَا صَدَرَ هَذَا الدَّعَاءُ عَنْ إِيْمَانٍ وَخُشُوعٍ وَعَنْ طَيْبِ مَأْكَلٍ، وَبِمَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَرَدَتْ بَيْنَ آيَاتِ الصِّيَامِ فَإِنَّهَا تُشْعِرُ بِأَنَّ اسْتِجَابَةَ الدَّعَاءِ مَرْجُوءَةٌ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ أَكْثَرَ مِنْ أَيَّامٍ غَيْرِهِ وَبِذَا يَكُونُ اسْتِحْبَابُ الدَّعَاءِ عِنْدَ انْتِهَاءِ كُلِّ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الصَّائِمُ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُ»<sup>(٢)</sup> كَمَا رُوِيَ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلُهُ: «ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يَفْطُرَ، وَالدَّعْوَةُ

(١) رواه الطبري في التفسير.

(٢) أخرجه الترمذي.

المظلوم»<sup>(١)</sup> هذا مع العلم أن استجابة الدعاء تابعة لمشیئة الله كما جاء في القرآن: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

وجاء في القرآن أيضاً في الدعوة إلى الدعاء: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ففي هذه الآية وصف الله الدعاء بأنه عبادة يستحق من يستكبر عنها غضب الله، ورُوي عن النبي ﷺ قوله: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ»<sup>(٢)</sup>.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي فليجيبوني فيما أدعوهم إليه من طاعتي ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ وليصدقوا أنني أجزل لهم الثواب والكرامة في الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ليهتدوا إلى ما فيه رشدهم وصلاح أمرهم الذي هو وسيلة لسعادتهم في الدنيا والآخرة.

﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ الرفث: كناية عن الجماع. أي أحلَّ الله لكم - أيها المؤمنون - مباشرة نساءكم في أي وقت من ليالي شهر رمضان. وقد رُوي في أسباب نزول الآية: أنه كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء أو ناموا قبلها حُرِّمَ عليهم النساء والطعام إلى الليلة التالية، وكان ذلك في بدء الإسلام، ثم إن أناساً من المسلمين باشروا نساءهم بعد أن ناموا فشكوا ذلك إلى رسول الله، فأنزل الله تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ..﴾ الآية، ويشمل ذلك أيضاً الأكل والشرب إلى الفجر تيسيراً على المسلمين.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ هذا الشطر من الآية شبه كلاً من

(١) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه .

(٢) أخرجه الترمذي .

الزوجين باللباس لأن كلاً منهما يستر الآخر فحاجة كل منهما إلى صاحبه كحاجته إلى الملبس، فإذا كان الملبس لستر عورات الجسم ولحفظه من أذى البرد وللتجمل والزينة فإن كلاً من الزوجين يحفظ شرف صاحبه ويصون عرضه ويوفر له راحته وصحته. هذا وإن هذا التعبير يُوحى بشدة القرب بين الزوجين، فهما كالثوب الملاصق للإنسان، مما يوحي بسكون كل منهما إلى الآخر وهذا ما ذكره القرآن بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تختانون: من الخيانة، وقد عبّر الله بهذا اللفظ عما وقعوا فيه من المعصية وذلك بالجماع والأكل بعد النوم أو بعد صلاة العشاء، وكل من عصى الله فقد خان نفسه، لأن الخيانة عبارة عن عدم الوفاء لما يجب عليهم الإتيان به ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فقبل توبتكم ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ وعفا عما اقترفتموه من ذنب ومحا عنكم أثره.

﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ والمباشرة كناية عن الجماع، أي الآن أبحنا لكم المُعاشرة الزوجية، وسمي الجماع مُباشرةً من البَشَرَة لتلاصق بشرتي الرجل والمرأة.

﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي واطلبوا من وراء هذه المُباشرة مع زوجاتكم ما كتبه الله لكم من الذرية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي وتمتعوا بما أباحه الله لكم من الأكل والشرب في ليالي رمضان ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ والخيط الأبيض هو خيط الفجر يشق السماء بنور كالخط ثم ينتشر ذلك الخط شيئاً فشيئاً حتى يختفي الظلام ويكون النهار،

والخيط الأسود ما يكون حول ذلك الخيط الأبيض من ظلام، وهذان الخطان يبدوان في الفجر، وقد شبه القرآن بياض النهار بخيط أبيض وسواد الليل بخيط أسود ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أي ثم ابدأوا صومكم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ ولا تقربوا نساءكم في حال اعتكافكم في المساجد، والاعتكاف شرعاً: لزوم المسجد والمكث فيه لطاعة الله والتقرب إليه. والاعتكاف سنة ولا يجوز في غير المسجد، ويجوز الاعتكاف بغير صوم والأفضل أن يصوم معه، وكان رسول الله ﷺ يعتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، وأقلّ الاعتكاف عند مالك وأبي حنيفة يوم وليلة، والجماع في حال الاعتكاف يُبطله.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ والحد في اللغة: هو الحاجز بين الشيئين المتقابلين ليمنع من دخول أحدهما في الآخر، وسُميت أحكام الله حدوداً لأنها تحجز بين الحق والباطل، والآية واردة مورد النهي عن مخالفة تلك الأحكام، ودلّ على النهي عن مخالفتها بالنهي عن قربها مبالغة في التحذير من مخالفتها، لأن النهي عن الاقتراب من الشيء أبلغ من النهي من مزاولته ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي كما بيّن الله هذه الحدود يبيّن جميع الأحكام لتتقوا مجاوزتها ومخالفتها، وآيات الله: هي العلامات الهادية للحق.

وهكذا نرى آيات الصيام قد ختمت بالتقوى ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ كما بدأت في مطلع آيات الصوم بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وذلك لبيان تأثير الصوم في اتقاء المعاصي، ومدى أهميته في القربى من الله تعالى.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ  
لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨٨﴾  
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ  
بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا  
الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٨٩﴾

### شرح المفردات

وتُدْلُوا بها إلى الحُكَّام: ولا تلقوا بأموالكم إلى الحُكَّام.  
بالإِثْم: بالذنب، وقد يحصل بشهادة الزور أو الأيمان الكاذبة أو الرشوة.  
الْأَهْلَةُ: جمع هلال، وهو القمر في بدء الشهر القمري.  
مَوَاقِيتُ للناس والحج: معالم زمنية يؤقت بها الناس شؤونهم الدنيوية ويعرفون بها وقت  
حجهم.  
الْبِرُّ: جُملة أعمال الخير التي تقرب الإنسان من ربه.

### التحذير من أكل أموال الناس بالباطل

لَمَّا كَانَ الصوم يؤدي إلى تقوى اللَّهِ انتقل القرآن إلى الكلام عن المال  
الذي قد يؤدي الحرص على جمعه إلى الظلم والطمع في مال الغير بغير حق،  
وهذا يُنافي صفة التقوى التي أمرنا اللَّهُ بها، لذا حذر اللَّهُ المؤمنين في الآية  
التالية من فتنه المال بقوله:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي لا يأخذ بعضكم مال بعض  
ويستولي عليه بغير حق. وعبر عن أخذ المال بالأكَل، لأن الأكل أهم وسائل  
الحياة وفيه تُصرف الأموال غالباً. واختار القرآن لفظ ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ بدل لفظ  
أموال الغير للإشعار بوحدة الأمة وتكافلها، فمال الآحاد هو مال الأمة فيجب



المحافظة عليه، فالإنسان إذا استحل مال غيره يدفع غيره إلى استحلال ماله، وأخذ المال بغير حق يعرض كل مال للضياع والذهاب، وأكل أموال الناس بالباطل يشمل: الربا والقمار والغش والسرقة والغصب وغير ذلك من طرق الاستيلاء على أموال الناس ظلماً وعدواناً ﴿وَتَذْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ ولا تلقوا بالأموال إلى الحكام رشوة لهم ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ لتأخذوا عن طريق حكمهم قطعة من أموال غيركم متلبسين بالإثم كاليمين الكاذبة أو شهادة الزور ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مع علمكم أن فعلكم هذا هو إثم وباطل، فالآية بيّنت أن الاستعانة بالحكّام على أكل المال بالباطل أمر محرّم لأن حكم القاضي لا يغير الحق في نفسه ولا يحلّه للمحكوم له إذا كان فيه ظلم وجور للغير.

ولقد حذر رسول الله ﷺ من الذين يأخذون أموال الناس بالباطل عن طريق الحُكّام بالأكاذيب والحجج المقنعة التي تؤثر على حكم القاضي فقال: «ألا إنما أنا بشرٌ؛ وإنكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطعُ له قطعةً من النار»<sup>(١)</sup>.

### الأهلة هي مواقيت للناس

سبق أن بيّنت الآيات السابقة ذكر فريضة الصوم في شهر رمضان وأن البدء بالصوم يكون برؤية الهلال، ولعلّ ذلك أثار في بعض النفوس الرغبة في أن يسألوا رسول الله ﷺ عن حقيقة الهلال، وقد روي أن بعض المسلمين قالوا لرسول الله: ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوي

(١) متفق عليه.

ويستدير ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما بدا، لا يكون على حالة واحدة؟! فنزلت الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾<sup>(١)</sup>.

والأهلة: جمع هلال وهو القمر يتراءى في أول الشهر القمري، وإنما قال الله ﴿عَنِ الْأَهْلِ﴾ مع أنهم سألوا عن الهلال وهو واحد، ولكن لما كانت حالة الهلال التي سألوا عنها تتكرر كل شهر جاء الجواب بالجمع.

والقمر ليس له نور ذاتي بل يضيء بانعكاس نور الشمس عليه، وهو يبدو لنا بتغيير شكله في الفضاء، ويدور حول الأرض فيبدو هلالاً أول الشهر، وفي الليل التالي يتسع الهلال ويستمر ذلك ليلة بعد ليلة، واختلف اللغويون إلى متى يسمى القمر هلالاً، فقال بعضهم: يسمى هلالاً لليلتين من أول الشهر أو في ثلاث.

وبعد سؤلهم عن الأهلة يأتي الجواب بقوله تعالى: ﴿قُلْ<sup>(٢)</sup> هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ والمواقيت: جمع ميقات وهو الوقت، والمعنى: قل يا محمد للذين يسألونك عن الأهلة، قل لهم: بأنها معالم زمنية يؤقت بها الناس شئونهم ويعرفون بها وقت حجهم، وهذا لفت لأنظارهم إلى أن الواجب أن يسألوا عن فوائدها في الدين والمعاملات لا عن أشكالها. كما أن الإجابة عن سؤلهم كانت في صورة يستطيع العقل أن يفهمها في زمن نزول القرآن، أما الناحية العلمية فتركها للأزمة القادمة بما يكشفه علم الفلك عن السبب في اختلاف شكله من يوم إلى يوم.

(١) ذكره القرطبي في التفسير.

(٢) قل: هذه اللفظة وردت في عشرات المواضع من القرآن وكانت جواباً لكثير من الأسئلة التي سئل رسول الله عنها وكان الجواب يأتي بعدها بأفصح عبارة وأبلغ حكم تقنع المتردد وتفحم الكافر، هذه اللفظة (قل) تنبئ بأن القرآن ليس من تأليف محمد كما يدعي بعض أتباع الأديان، بل القرآن هو وحي من عند الله، فلو كان القرآن من تأليف محمد كما يدعون لما كان بحاجة إلى أن يستهل الجواب بلفظة (قل) والتي هي خلاف جميع أساليب الكتاب والأدباء والعلماء.

ولقد خَصَّ الإسلام مواقيت بعض العبادات برؤية الهلال كالصوم، وتُعرف هذه المواقيت بالأشهر القمرية لأنها تعرف برؤيتها، وهي لا تخفى على أحد بخلاف الأشهر الشمسية التي لا يتيسر ضبطها إلا لِقَلَّةٍ من العارفين بدقائق علم الفلك وبالأخص في زمن نزول القرآن.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ هذا الشرط من الآية نهى لجماعة بعض المسلمين عن عادة كانوا يفعلونها قبل الإسلام وهي أنهم كانوا إذا عادوا من حجهم أو أحرَمُوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم بل كانوا يدخلون من نقب ينقبونه من ظهور بيوتهم، فجاء رجل من الأنصار فدخل إلى بيته من بابه فكأنه عيّر بذلك، فأنزل الله قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ والبرُّ: هو الصدق والصلاح والتوسع في فعل الخير، والمعنى: ليس من الخير والصلاح ما كنتم تفعلونه قبل الإسلام من دخولكم البيوت من ظهورها بعد إخراجكم وحججكم، ولكن البرُّ يكون في تقوى الله بامتنال أوامره واجتناب نواهيه.

وجملة ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ كناية عن أن إتيان البيوت من ظهورها يعني العدول عن الطريق الصحيح الذي يجب سلوكه بينما إتيان البيوت من أبوابها يعني التمسك بالأساليب القويمة التي توصل إلى الخير والصلاح. وهناك مثلٌ مشهورٌ اقتبس من الآية، وهو أن من أرشد غيره إلى الوجه الصواب يقول له: ينبغي أن تأتي الأمر من بابه.

ويختتم الله الآية بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي افعلوا ما أمركم الله به واجتنبوا ما نهاكم عنه لتكونوا من الفائزين بالحياة الطيبة في الدنيا والنعيم الخالد في الآخرة.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَفْتُمُوهُمْ وَآخِرُجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

### شرح المفردات

وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ: قاتلوا لإعلاء كلمة الله، وإغراز دينه، وإقامة شرائعه.  
 ثَفَفْتُمُوهُمْ: وجدتموهم وظفرتهم بهم.  
 وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ: أي إن فتنتهم للمؤمنين بإيذائهم وإلجائهم إلى مفارقة وطنهم للتأثير في عقيدتهم أشد جرماً من القتل.  
 وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ: وتخلص العبادة لله فلا يُعبد أحد سواه.  
 الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ: أي إن انتهك المشركون الشهر الحرام وقَاتَلُوكُمْ فيه فبادلوهم بالمِثْلِ.  
 الْحُرُمَات: جمع حُرْمَةٍ، وهي ما مُنِع من انتهاكه.  
 قِصَاصٌ: أي العقاب على الجريمة بمثلها.

## القتال للدفاع عن النفس

كان المسجد الحرام في مكة منذ عهد إبراهيم عليه السلام قبلة العرب ومقصدهم يحجّون إليه في الأشهر الحُرُم<sup>(١)</sup> التي يَحْرُمُ فيها القتال، وكان المرء إذا التقى بأشد الناس عداوة له لم يجرؤ أن يُجرّد سيفاً في وجهه أو يسفك دماً، وظلت هذه الحرمة باقية بعد الإسلام وقد طهره من مظاهر الشرك بالله التي أدخلها المشركون عليه، وشرع للمسلمين مناسك الحج التي كان يؤديها إبراهيم عليه السلام.

وكانت قريش قد آلت على نفسها منذ أن هاجر النبي ﷺ من مكة أن يصدّوه ومن آمن معه عن المسجد الحرام ويحولون بينهم وبين زيارته وقد انقضت ست سنوات على الهجرة، والمسلمون يحدوهم الشوق لزيارة المسجد الحرام، فخرج رسول الله ﷺ ومَن معه مِنَ المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب وكان عددهم ألفاً وأربعمائة لا يحملون من السلاح إلا السيوف في أغمادها، فلما علمت قريش بمجيئهم أَجْمَعَت على صدّهم عن زيارة المسجد الحرام واستعدّت لقتالهم، ولكن النبي ﷺ أبى أن يفتح البيت الحرام عنوةً ويُقاتل المشركين في مكة، وسار حتى نزل بأقصى الحُدَيْبِيَّة<sup>(٢)</sup>.

ثم أرسل النبي ﷺ رسلاً إلى قريش وجرت مفاوضات بينه وبينهم انتهت بالاتفاق على أن يرجع المسلمون ذاك العام دون زيارة المسجد الحرام وأن يعودوا في العام المقبل لهذه الزيارة، واتفقوا على أن تُخلي قريش لهم مكة ثلاثة أيام يُؤدّون فيها العمرة.

(١) الأشهر الحرم: هي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورَجَب.

(٢) الحُدَيْبِيَّة: هي بئر قرب مكة حدث عندها صلح الحديبية المشهور.

فلما أقبل العام التالي تجهّز النبي ﷺ وأصحابه لأداء شعائر العمرة التي سمّيت بِعُمْرَةِ الْقَضَاءِ، وخاف المسلمون ألا تفي قريش بوعدّها، وغلبت عليهم الحيرة فيما يفعلون في حال منعهم من العمرة، فنزلت الآيات التالية وفيها تبين للمسلمين الموقف الذي يجب عليهم أن يلتزموه إن قاتلهم المشركون وانتهكوا حرمة بيت الله الحرام والأشهر الحرم ومنعواهم من أداء شعائر دينهم، قال الله تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ وسبيلُ الله: هو دينه، والقتال في سبيل الله هو الجهادُ لإعلاء كلمته حتى يكون المؤمنون أعزّة، لا يسومهم أعداؤهم ضيماً، ويكونون أحراراً في الدعوة إليه وإقامة شعائره دون أن يصدّهم عن ذلك أحدٌ.

تأمل كيف بيّنت الآية القرآنية أحكام القتال وهي أن يُقاتل المسلمون من قاتلهم، أي أن لا يبدأوا بقتال أعدائهم بل يُقاتلون الذين يبدأون بقتالهم دفاعاً عن أنفسهم وحرّيتهم في أداء العبادة. ثم أمر الله المسلمين بقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ والاعتداء: مُجاوزة الحدِّ فيما أمر الله به أو نهى عنه، أي ولا تعتدوا فيما نهى الله عنه بقتل النساء والصبيان والشيوخ المسنين، وقد روي أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اغزُوا في سبيلِ الله، قاتِلُوا من كَفَرَ بالله، اغزُوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع»<sup>(١)</sup> ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ومحبة الله لعباده صفة اختص بها المتقين، من أثرها الرعاية والإنعام والقربى منه، ونفي الله محبته للمعتدين كناية عن بغضه إياهم واستحقاقهم لعقوبته.

(١) أخرجه مسلم.

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ واقتلوا الذين قاتلوكم في أي مكان أدركتموهم وظفرتهم بهم في أي مكان يحلّ به القتال أو يحرم ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي وأخرجوا الكفار من المكان الذي أخرجوكم منه، والمكان الذي أخرجهم الكفار منه هو مكة، فإن الكفار من قريش اشتدوا في أذى المسلمين واضطهادهم حتى ألجأوهم إلى الخروج من مكة والهجرة إلى الحبشة أولاً ثم إلى المدينة المنورة ثانياً ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ والفتنة تأتي بتلك المعاني: الابتلاء، والامتحان، والعذاب، والصدّ عن الدين، والكفر بالله، أي إن فتنة المشركين للمؤمنين بصددهم عن الإسلام وإرغامهم على الرجوع إلى الكفر بالله بالتعذيب والإيذاء ومصادرة أموالهم وإلجائهم إلى مفارقة الأهل والوطن أصعب من القتل، إذ لا بلاء أشدّ وقعاً على الإنسان من اضطهاده وتعذيبه لإرغامه على تغيير معتقده الذي تمكّن في قلبه.

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي وعلى المسلمين أن يؤدوا مناسك دينهم ولا يقاتلوهم عند المسجد الحرام الذي حرّم الله القتال فيه، فإذا اعتدى المشركون على المسلمين واستباحوا القتال في المسجد الحرام، فقد أباح الله للمسلمين أن يصدوا هذا العدو بالردّ عن حياتهم وعن عقيدتهم ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ أي فإن بدأوكم بالقتال عند المسجد الحرام فلا حرج عليكم في قتلهم عنده، فإن المنتهك لحرمة المسجد إنما هو البادئ بالقتال فيه لا المدافع عنه ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء العادل من القتل والردّ يُجازي الله الكافرين الذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم.

﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فإن كفوا عن قتالكم - أيها المسلمون - فكفوا عن قتالهم ولا تتعرضوا لهم، فإن الله غفور رحيم لكل من



تاب من كُفِّرَ أو معصية، ونظير هذا ما جاء في القرآن: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ والفتنة هنا: الشُّرك بالله والكفر، أي قاتلوهم حتى لا يكون هناك كُفر وشُرك بالله وحتى لا يُعبد دونه أحد، وتضمن حلَّ عبادة الأوثان والآلهة، ولتحقق للمسلمين حرية العقيدة وحرية أدائهم لشعائهم الدينية ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ والدين: هو العبادة والطاعة لله في أمره ونهيه، أي قاتلوا المشركين لتكون العبادة والطاعة لله وحده وحتى لا يعبد إلا الله ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي فإن انتهى الذين يقاتلونكم من الكُفار عن قتالكم ودخلوا في ملَّتكم وتركوا ما هم عليه من عبادة الأوثان فاتركوا الاعتداء عليهم بقتالهم، فإنه لا ينبغي أن يُعتدى إلا على الظالمين وهم المُشركون بالله الذين اعتدوا عليكم. وسمى الله ما يُصنع بالظالمين عُدواناً من حيث هو جزاء على عُدوانهم.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾<sup>(١)</sup> أي الشهر الحرام من جانبكم - أيها المسلمون - مُقابل الشهر الحرام من جانب المشركين، فإن تقيد المشركون بالحرمة فيه ولم يثيروا حرباً ولم يعتدوا التزمتم حرمة ولم تقاتلوهم فيه. وإن استباح المشركون الشهر الحرام الذي لا يحل القتال فيه وقاتلوكم فيه فقابلوا عُدوانهم بالمثل ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ كلمة جامعة لكل ما سبقها من معانٍ في القتال، والحرمات: جمع حرمة، والحرمة الأمر الذي حرَّمه الله ومنع انتهاكه. والقصاص من معانيه المساواة وتتبع آثار الجريمة بالعقوبة. ومعنى القصاص في الحرمات أن يعامل منتهك الحرمت بمثل ما فعل وأن يكون العقاب من جنس

(١) الشهر الحرام: الشهر هنا للجنس والمراد به الأشهر الأربعة: ذو القعدة، ذو الحجة، مُحَرَّم، رَجَب. والمراد بكلمة (الحرام) تحريم القتال في هذه الأشهر.

العمل . أي إذا قاتلوكم - أيها المسلمون - في الشهر الحرام وهاكوا حرمة فقاتلوهم في الشهر الحرام .

﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ أي مَنْ يعتدي عليكم أيها المسلمون من الأعداء بحرب يشنها عليكم فاعتدوا عليه بالمثل . وهنا سؤال : كيف عَبَّرَ اللَّهُ عن مقاومة العدو بلفظ «الاعتداء» . الجواب على ذلك : هو أن اللَّهَ سَمَّى الجزاء على اعتدائهم وانتهاكهم لحرمة المسلمين اعتداء للمشاكلة أي الموافقة اللفظية ، فالفعل الأول من جانب الأعداء اعتداء لأنه صدر عن ظلم ، والثاني صدر عن مقاومة ودفاع عن النفس فكان عدلاً .

وهناك صور من اعتداء العدو : كأن ينتهك الأعراض ، ويقتل الذرية الضعاف والشيخوخ الكبار ، فهل يسلك المسلمون مسلكهم ؟ هنا تبين الآية عدم جواز ذلك بقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وتقوى اللَّه هي أن يُراعي المسلمون الرحمة والعدل ، وأن اللَّه مع المتقين بالنصر والتأييد .

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وسبيل اللَّه هو الطريق الموصل إلى مرضاته والحصول على ثوابه ، وسبيل اللَّه غلب استعماله شرعاً على الجهاد للدفاع عن دين اللَّه والدفاع عن الوطن وهذا يَسْتَدْعِي أموالاً طائلة لشراء الأعتدة الحربية الحديثة لتقوية الجيش ليكون سداً منيعاً في وجه المعتدين ، لهذا أوجب الإسلام على كل مسلم أن يُنفق من أمواله للمجهود الحربي عند اعتداء المعتدين حسب قدرته ، وأوجب على الحاكم أن يفرض من الضرائب ما يكفي لحاجات الجيش إذا لم تَفِ ميزانية الدولة بذلك .

كما أن الإنفاق في سبيل اللَّه يكون في وجوه البرّ على الفقراء والمساكين ما يسدّ حاجاتهم ويوفر لهم العيش الكريم ، وبهذا تقوى الروابط بين الأغنياء

والفقراء ويتنفي عن المجتمع الثورات والقلاقل التي يثيرها الجوع والحِرْمان.  
 فالبخل في الإنفاق في سبيل الله يجعل الأمة تحت رحمة أعدائها، كما أن  
 البخل يؤدي إلى شيوع الفقر والحِرْمان مما يؤدي إلى إضعاف الجبهة الداخلية  
 التي هي الحصن المنيع في وجه أعدائها، لهذا كان القرآن بليغاً عندما رتب على  
 البخل في الإنفاق قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فليعتبر كل من يمتنع  
 عن الإنفاق في سبيل الله لأن عاقبة ذلك هلاك كل فرد من أفراد الأمة.  
 ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وأحسن هو الفعل الحسن والإنعام  
 والتفضل على الغير، كما يأتي الإحسان بمعنى الإتيان بالفعل على وجه  
 الإتيان.

والإحسان إلى الناس يكون بإكرامهم وحسن معاملتهم والإنفاق على  
 المحتاجين منهم. والإحسان في العبادة يكون كما قال النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ  
 كأنك تراه، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»<sup>(١)</sup>.

والإحسان هنا جاء بعد الأمر بالإنفاق في سبيل الله فيكون مكماً له  
 والحث عليه، أي إن إحسانكم وإنفاقكم في سبيل الله أمر محبب إلى الله، ومن  
 أحبه الله حُب عباده به وَيَسِّرَ أمره ووقاه من كل سوء.



(١) أخرجه البخاري.

﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكَرَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَأْتُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ .

### شرح المفردات

أُحْصِرْتُمْ: مُنِعْتُمْ بعد الإحرام من الوصول إلى بيت الله الحرام.  
 فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ: أي فعليكم إذا أردتم التَّحَلُّلَ من الإحرام ذبح ما تيسر لكم من الهدي وهي الأنعام.  
 وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ: وَلَا تَتَحَلَّلُوا من الإحرام بالحلق حتى تعلموا أن الهدي قد بلغ مكانه الذي يجب أن يراق فيه دمه وهو الحرم.  
 نُسُكٍ: ذبيحة وأقلها شاة.  
 حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ: هم أهل مكة.  
 فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ: فمن ألزَمَ نفسه بأداء فريضة الحج.  
 رَفَثٌ: الجِماعُ أو الكلام المتضمن لما يُستقبح ذكره من الجِماع ودواعيه.  
 فُسُوقٌ: المعصية مطلقاً، أو مخالفة أوامر الحج وارتكاب نواهيه.  
 جِدَالَ: المُناقشة الحادة مع الرُفقاء والخُدم وغيرهم.

## بعض أحكام الحج أو العمرة

وَيَتَابِعُ الْقُرْآنَ فَيَذْكُرُ بَعْضَ أَحْكَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَمَا يَجِبُ عَلَى مَنْ يَقُومُ بِهِمَا فِي حَالِ مَنْعِهِ مَانِعٌ مِنْ أَدَاءِ حَجِّهِ أَوْ عُمْرَتِهِ، مَعَ بَيَانِ الْأَدَابِ الَّتِي يَجِبُ الْأَخْذُ بِهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وإتمام الحج والعمرة هو الإتيان بهما كاملين بمناسكهما المشروعة مع الإخلاص التام لله سبحانه لا تشوبهما شائبة من رياء أو مما هو محظور.

وَالْحَجُّ فَرِيضَةٌ تَجِبُ مَرَّةً فِي الْعُمْرِ لِمَنْ اسْتَطَاعَ الْقِيَامَ بِهِ، وَأَرْكَانُ الْحَجِّ عِنْدَ جَمْعِهِمُ الْفُقَهَاءِ أَرْبَعَةٌ: الْإِحْرَامُ<sup>(١)</sup> وَالْوُقُوفُ بِعَرَفَةَ وَطَوَافُ الزِّيَارَةِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَزَادَ الشَّافِعِيَّةُ عَلَى ذَلِكَ حَلْقَ الشَّعْرِ أَوْ تَقْصِيرَهُ، وَالتَّرْتِيبُ بَيْنَ مَعْظَمِ الْأَرْكَانِ.

وَهُنَاكَ وَاجِبَاتٌ فِي الْحَجِّ، وَالْوَاجِبُ هُوَ مَا يَطْلُبُ فِعْلُهُ وَيَحْرُمُ تَرْكُهُ وَلَكِنْ لَا تَتَوَقَّفُ صِحَّةُ الْحَجِّ عَلَيْهِ وَيَأْتِمُ تَارِكُهُ إِلَّا إِذَا تَرَكَهُ بِعَذْرِ مَعْتَبَرٍ شَرْعاً، وَيَجِبُ عَلَيْهِ الْفَدْيَةُ فِي حَالِ تَرْكِهِ وَهِيَ ذَبْحُ شَاةٍ أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الْأَنْعَامِ، وَقَدْ اصْطَلَحَ عَلَى ذَلِكَ بِالْقَوْلِ: عَلَيْهِ دَمٌ.

أَمَّا الْعُمْرَةُ فَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِيهَا، فَبَعْضُهُمْ يَرَى أَنَّهَا فَرِيضَةٌ وَبَعْضُهُمْ يَرَى أَنَّهَا سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ، وَأَرْكَانُ الْعُمْرَةِ عِنْدَ جَمْعِهِمُ الْفُقَهَاءِ ثَلَاثَةٌ: وَهِيَ الْإِحْرَامُ وَالطَّوَافُ وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَزَادَ الشَّافِعِيَّةُ عَلَى ذَلِكَ حَلْقَ الشَّعْرِ أَوْ تَقْصِيرَهُ.

وَالصَّلَةُ بَيْنَ الْعُمْرَةِ وَالْحَجِّ وَثِيقَةٌ، فَالْحَجُّ يَتَضَمَّنُ أَعْمَالَ الْعُمْرَةِ وَيَزِيدُ عَلَيْهَا

(١) الْإِحْرَامُ: هُوَ نِيَّةُ الدُّخُولِ فِي حُرْمَاتِ الْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ عَلَى هَيْئَةٍ مَخْصُوصَةٍ. وَالْإِحْرَامُ لَهُ مِيقَاتُ زَمَانِي وَمِيقَاتُ مَكَانِي، فَبِالنِّسْبَةِ لِمَنْ يَرِيدُ أَنْ يَحُجَّ فَرِزْمَانَهُ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، أَمَّا الْمِيقَاتُ الْمَكَانِي فَهُوَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْجِهَةِ الَّتِي يَأْتِي مِنْهَا الْمَسَافِرُ، وَقَدْ جَاءَ تَعْيِينُهَا فِي كُتُبِ الْفَقْهِ.

بأشياء كالوقوف بعرفة، والمبيت بمنى والمُزْدَلِفَة، ورمي الجمار وغير ذلك من أعمال الحج.

﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ﴾ والإحصار هو المنع، أي إن منعكم مانع من دخول مكة أو عن إتمام مناسك الحج أو العمرة كمرض أو عدو، وأردتم التَّحَلُّلَ<sup>(١)</sup> من الإحرام ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فعليكم تقديم ما تيسر لكم من الهدي من غير كلفة ولا مشقة، كشاة مثلاً. والهدي: هو ما يُهدى من الأنعام إلى بيت الله الحرام لتذبح في الحرم وتوزع على الفقراء تقريباً إلى الله، والأنعام: هي الإبل والبقر والغنم والماعر.

﴿وَلَا تَخْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ أي لا يحل للمحرم المُخَصَّر وهو الذي منعه من أداء الحج أو العمرة مرض أو عدو أن يحلق رأسه ويتحلل من إحرامه حتى يصل الهدي إلى محل ذبحه وهو الحرم حيث يُذبح هناك، ويرى جمهور من الفقهاء أن المحصر يذبح الهدي حيث أُخْصِر.

وحلق الشعر أو تقصيره هو مظهر من الانتهاء من الإحرام، ولكن قد يطرأ على الحاج أو المعتمر عُذر بأن يحلق شعره إذا كان برأسه حشرات تؤذيه كالقمل مثلاً وتجعل غيره يتقزز منه، أو قد يصير مصدر أذى لغيره وعدوى له، ففي تلك الحالة رَخَّصَ الله لذلك المريض بأن يحلق شعره ويظل على إحرامه مقابل فدية لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ نُسُكٌ: جمع نسيكة وهي الذبيحة، أي من كان منكم - أيها المُخْرِمُونَ - مريضاً بمرض يضطر معه إلى حلق شعره أو كان به أذى من رأسه

(١) التَّحَلُّلُ لغة: هو أن يفعل الإنسان ما يخرج به من الحرمة، واصطلاحاً: هو فسخ الإحرام والخروج منه بالطريق الموضوع له شرعاً، والتحلل للمحصر يحصل بنحر الهدي وحلق الشعر أو تقصيره.

كجراحةٍ وحشراتٍ مؤذيةٍ، فعليه إن حَلَقَ فِدْيَةً من صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين أو ذبح شاة يوزع لحمها على الفقراء، وهذا ما بيته السُّنة النبوية.

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ مِمَّنْ تَمْتَعُ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ أي إذا كنتم في أمان وأردتم أداء الحج والعمرة معاً في أشهر الحج فأول شيء تفعلونه هو الإحرام من الميقات للعمرة، ثم تأتون بأركانها، وعند التحلل منها وذلك بقص شعركم يحل لكم التمتع بما كان محظوراً عليكم في الإحرام من مباشرة زوجاتكم والتطيب وقص الأظافر وغير ذلك. وقبل يوم عَرَفَةَ بأيام أو صبيحة ذلك اليوم تُحرمون من مكة باللباس المعهود وبنية أداء فريضة الحج، ومقابل هذا التمتع بعد أداء العمرة عليكم تقديم ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي ما تيسر من الهدي من حيث تقربتم إلى الله بالعمرة، وهذا الهدي يُذبح في الحرم ليتفع به سكانه، ولا يأكل منه الحاج عند الشافعي، وأجاز أبو حنيفة الأكل منه ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أي من لم يجد الذبيحة التي يجب تقديمها إلى الحرم إما لِفَقْرِهِ أو عدم وجودها فعليه صيام ثلاثة أيام من أيام حجّه، والأفضل أن يكون في سابع ذي الحجة وثامنه وتاسعه ولا يجوز صوم يوم النحر. ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ وعليه أيضاً أن يصوم سبعة أيام إذا عاد إلى بلده وأهله فيصبح عدد الأيام التي سيصومها عشرة، إكمال صومها وجب عليه ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي هذا الحكم خاص بمن لم يكن من أهل حاضري المسجد الحرام، وهؤلاء هم أهل مكة وما حولها، فهؤلاء لا يحصل لهم تمتع، وليس عليهم فدية لإمكان أدائهم العمرة طول العام ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي اتقوا الله بطاعته فيما ألزمكم به من فرائضه، واحذروا الإخلال بشعائره فهو سبحانه شديد العقاب لمن خالف مناسكه فترك ما أمر به وارتكب ما نهاه الله عنه.



﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ أي إن الوقت الذي يُؤدَّى فيه الحج هو أشهر معروفة وهي: شَوَّال، وذو القعدة، والعشرة الأيام الأولى من ذي الحِجَّة، فلا يَصِحُّ الحج في غير هذه الأشهر، كما أنَّ الإحرام بنية الحج في غير هذه الأشهر لیتّمه في أشهره لا یصح عند الشافعية، ویصح مع الكراهة عند الحنفية.

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي من ألزَم نفسه بأداء فريضة الحج وأحرم ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي عليه أن يجتنب الرفث وهو الجماع والإفحاش في الكلام ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ والفُسُوق هو الخروج عن طاعة الله بارتكاب المعاصي ومنها السباب وفعل محظورات الإحرام ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ والجدال هو أن تُماري صاحبك حتى تغضبه، وقيل: السباب والمنازعة.

﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾ أي ومهما تفعلوا من خيرٍ وعمل صالح ابتغاء مرضاة الله فالله به عليم يُوفِّيكُم أجره، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية.

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ التزود هنا مادي ومعنوي، أما المادي فقد رُوي أن طائفةً من العرب كانت تجيء إلى الحج بلا زاد ويقول بعضهم: نحن المتوكلون على الله، فكانوا يبقون عالةً على الناس، فأمرهم الله بالتزود من الطعام بما يقيهم ذلَّ الحاجة. كما أن الزاد في الآية يشمل الزاد المعنوي وهو الطلب من المؤمنين التزود لآخرتهم بالأعمال الصالحة، ويؤكد ذلك أنه جاء عقب ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ والتقوى في عُرْفِ القرآن عبارة عن فعل الواجبات التي أمر الله بها وترك المحظورات. فالسفر في الدنيا لا بدّ له من زادٍ من الطعام والشراب، والسفر إلى الآخرة لا بدّ له من زادٍ وهو معرفة الله ومحبته وطاعته واجتناب ما نهى عنه، وزاد الآخرة هو خيرٌ من زاد الدنيا لأنه يُوصل إلى النعيم الدائم في الآخرة ﴿وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي

اتخذوا من عمل الخير واجتناب الشر والقيام بالطاعات وقاية لكم من غضب الله ومعاقبته لكم، وخص الله أصحاب العقول بتوجيه الخطاب لهم ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لأنهم أهل التمييز بين الحق والباطل، وهنا إشارة إلى أن من لا يتقي الله ليس له عقل يميز به الصالح من الفاسد من الأمور.



﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴿وَإِذْ كُنْتُمْ فِي أَيْكَمِ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

### شرح المفردات

جُنَاحٌ: إثم.

فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ: أي تحصيل الرزق من تجارة أو غيرها.

أَفْضُتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ: اندفعتُم في زحمة وكثرة من عرفات.  
 الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ: هو مُزْدَلِفَةٌ.  
 قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ: أَدَيْتُمْ عِبَادَاتِ الْحَجِّ.  
 مِنْ خَلَاقٍ: مِنْ نَصِيبٍ وَحِظٍّ مِنَ الْخَيْرِ.  
 أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ: هِيَ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ الثَّلَاثَةِ التَّالِيَةِ لِيَوْمِ النَّحْرِ.  
 تُحْشَرُونَ: تُجْمَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ.

### من أعمال الحج

وَيُتَابَعُ الْقُرْآنُ الْكَلَامُ عَنِ الْحَجِّ مُوضِحاً الْأَعْمَالَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُؤَدِّيَهَا الْمُسْلِمُونَ وَنَافِياً الْخَرَجَ مِنْ تَعَاطِي بَعْضِ الْأَعْمَالِ التَّجَارِيَةِ فِي الْحَجِّ الَّتِي يُتَوَهَّمُ أَنَّهَا تَخِلُّ بِأَعْمَالِ الْحَجِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الْجُنَاحُ: الْخَرَجُ وَالْإِثْمُ، وَالْمَعْنَى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ - إِثْمٌ أَنْ تَطْلُبُوا مِنْ رَبِّكُمْ رِزْقاً حَلَالاً فِي أَيَّامِ الْحَجِّ عَنْ طَرِيقِ التَّجَارَةِ. فَقَدْ كَانَ النَّاسُ يَمْتَنِعُونَ عَنِ الْبَيْعِ وَالتَّجَارَةِ أَيَّامَ مَوْسَمِ الْحَجِّ حَتَّى يَقْضُوا حُجَّهُمْ فَأَحْلَهُ اللَّهُ لَهُمْ ﴿فَإِذَا أَفْضُتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ<sup>(١)</sup>﴾ الْإِفَاضَةُ: السَّيْرُ مُتَدَافِعِينَ فِي جَمْعٍ مُتَزَاحِمِينَ، وَذَلِكَ تَشْبِيهُ لَهُمْ بِالْمَاءِ إِذَا فَاضَ وَدَفَعَ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَالْمَعْنَى: فَإِذَا سَرْتُمْ - يَا مَعْشَرَ الْحُجَّاجِ - مِنْ عَرَفَاتٍ مُتَزَاحِمِينَ مُتَجَهِّينَ إِلَى الْمُزْدَلِفَةِ.

وَقَبْلَ أَنْ نَنْتَقِلَ إِلَى الْمَزْدَلِفَةِ نَذَكِّرُ أَنَّ الْوُقُوفَ بِعَرَفَةِ رُكْنٌ، مِنْ أَرْكَانِ الْحَجِّ وَلَا يَتِمُّ الْحَجُّ إِلَّا بِهِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْحَجُّ عَرَفَةٌ»<sup>(٢)</sup> وَمِنْ فَاتِهِ الْوُقُوفُ

(١) عرفات: جمع عرفة وسُمِّيَ بذلك بما رُوِيَ أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُرِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَنَاسِكَ فَيَقُولُ: عَرَفْتُ عَرَفَتُ: فَسَمِيَ عَرَفَاتٍ، وَقِيلَ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ يَتَعَارَفُونَ فِيهِ حَيْثُ يَجْتَمِعُ الْحُجَّاجُ جَمِيعاً عَلَى جَبَلِ عَرَفَاتٍ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ فَيَجْرِي التَّعَارُفُ بَيْنَهُمْ.

(٢) أخرجه أبو داود.

بِعَرَفَةَ فِي وَقْتِهِ فَاتِهِ الْحَجَّ، وَيَدْخُلُ وَقْتُ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ مِنْ زَوَالِ الْيَوْمِ التَّاسِعِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ وَيَمْتَدُّ إِلَى طُلُوعِ فَجْرِ يَوْمِ عِيدِ النُّحْرِ الْعَاشِرِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَوَقْتُهُ نِصْفُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ كَامِلَةٍ، فَمَنْ وَقَفَ بِعَرَفَاتٍ فِي هَذَا الْوَقْتِ وَلَوْ لِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ فَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْوُقُوفُ بِعَرَفَةَ<sup>(١)</sup>.

وَلنَرْجِعَ إِلَى الْكَلَامِ عَنِ الْمُزْدَلِفَةِ حَيْثُ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا أَقْبَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ وَالْمَشْعَرُ الْحَرَامُ هُوَ الْمُزْدَلِفَةُ كُلُّهَا، وَسَمِّيَتْ الْمُزْدَلِفَةُ مَشْعَرًا مِنَ الشُّعَارِ وَهُوَ الْعَلَامَةُ، لِأَنَّهُ مِنْ مَعَالِمِ الْحَجِّ، وَوُصِفَ بِالْحَرَامِ لِحُرْمَتِهِ أَوْ لِأَنَّهُ مِنْ أَرْضِ الْحَرَمِ. وَيُطْلَقُ الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ عَلَى جَبَلِ قُزَحٍ الَّذِي هُوَ ضَمْنُ الْمُزْدَلِفَةِ، وَإِنْ الْوُقُوفُ فِيمَا يَقْرُبُ مِنْهُ أَفْضَلُ مِنَ الْوُقُوفِ فِي سَائِرِ مَوَاضِعِ أَرْضِ مُزْدَلِفَةٍ، فَبَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ يَوْمَ عَرَفَةَ وَمَكُوثِ الْحِجَاكِ فِتْرَةٍ بَعْدَ الْغُرُوبِ فِي عَرَفَةَ يَنْدَفِعُونَ إِلَى الْمُزْدَلِفَةِ لِلْمَبِيتِ بِهَا.

وَالْمَبِيتُ بِالْمُزْدَلِفَةِ لَيْسَ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْحَجِّ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ بَلْ هُوَ وَاجِبٌ مِنْ وَاجِبَاتِ الْحَجِّ فَمَنْ تَرَكَهُ فَعَلَيْهِ دَمٌ (ذَبْحُ شَاةٍ) وَيَتَحَقَّقُ فَعْلُ الْمَبِيتِ إِلَى مَا بَعْدَ مُتَنَصِّفِ لَيْلَةِ النُّحْرِ أَيْ الْعَاشِرِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ.

فَالْآيَةُ تَطْلُبُ مِنَ الْحِجَاكِ أَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ بِالتَّلْبِيَةِ<sup>(٢)</sup> وَالتَّهْلِيلِ<sup>(٣)</sup> وَالدُّعَاءِ بِقُلُوبٍ خَاشِعَةٍ، لِأَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ فِي تِلْكَ الْأَمَاكِنِ الْمُقَدَّسَةِ يَقْرِّبُ الْحِجَاكِ إِلَى اللَّهِ وَيَمْحُو خَطَايَاهُمْ.

(١) هَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الشَّافِعِيُّ، أَمَّا الْمَالِكِيُّ فَقَالُوا: إِنْ وَقْتُ الْوُقُوفِ هُوَ اللَّيْلُ فَمَنْ لَمْ يَقِفْ جُزْءًا مِنَ اللَّيْلِ فَحُجَّتُهُ بَاطِلٌ، وَيَرَى بَعْضُ الْفُقَهَاءِ أَنَّ مَنْ فَارَقَ عَرَفَةَ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ وَجِبَ عَلَيْهِ دَمٌ (ذَبْحُ شَاةٍ).

(٢) التَّلْبِيَةُ: هِيَ قَوْلُهُمْ: لَيْتِكَ اللَّهُمَّ لَيْتِكَ..

(٣) التَّهْلِيلُ: هِيَ قَوْلُهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ واذكروا الله بالثناء عليه والشكر له على نعمه كما هداكم فاستنقذكم من النار ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ وقد كنتم قبل ذلك في الشرك والحيرة والعمى عن طريق الحق.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ كانت قريش ومن دأن دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون (الحُمس) وكان سائر العرب يقفون بعرفات، وكانت قريش تفعل هذا ترفعاً عن بقية الناس متعللين بأنهم أهل الحرم، فأمرهم الله بالوقوف بعرفة وأن يفيضوا مع الناس جميعاً إلى المزدلفة بعد الوقوف بعرفة، ليكونوا في منزلة واحدة مع المؤمنين، فيستوي الغني والفقير والشريف والوضيع، لتصبح المساواة شعارهم في هذا الموقف المهيب أمام رب العالمين.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الخطاب هنا للحجاج جميعاً بأن يطلبوا المغفرة من الله ويقلعوا عن ذنوبهم ليشملهم الله برحمته ومغفرته.

وطلب المغفرة من الله فور الانتهاء من العبادة أمر تطمئن به نفس المؤمن، والمؤمن الصادق الإيمان كلما قوي إيمانه شعر بأنه مقصّر تجاه ربه فيلجأ إلى طلب الغفران مما قصّر في العبادة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ المراد بالمناسك أعمال الحج، أي فإذا فرغتم من أعمال الحج ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ فقد كان العرب في الجاهلية بعد فراغهم من حجهم ومناسكهم يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم، فأمرهم الله في الإسلام أن يكون ذكرهم بالثناء والشكر والتعظيم لربهم دون غيره، وأن يلزموا أنفسهم بالإكثار من ذكره نظير ما كانوا ألزموا أنفسهم في جاهليتهم من ذكر آبائهم أو أشدّ ذكراً. وقيل في معنى الآية: اذكروا الله كذكر

الأطفال آباءهم وأمهاتهم واستغيثوا به وألجأوا إليه كما كنتم تفعلون في حال صغركم بآبائكم.

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ هنا يُبَيِّنُ اللَّهُ حال بعض الناس بعد الانتهاء من مناسك الحج، فمنهم من يكون همهم الدنيا وحدها، فلا يكون دعاؤهم لربهم إلا ما يشبع رغباتهم وشهواتهم، وكأن العباداة في نظرهم ليست إلا ذريعة لطلب الشهوات والحصول على ما يرغبون منها. هذا وقد حذف المفعول به لفعل ﴿آتِنَا﴾ ليعم كل ما يطلبون من متاع الدنيا وهذا من الإيجاز الرائع الذي يدل على بلاغة القرآن ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ وهذا الصنف من الناس لا نصيب لهم ولا حظ من نعيم الآخرة لأنهم لم يطلبوها ولم يعملوا لها.

ثم يُبَيِّنُ اللَّهُ حال الصَّنَفِ الآخر من الناس الذين حازوا رضاه:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ والحسنة في الدنيا التي يطلبونها هي عبارة عن الصحة والأمن والكفاية من الرزق والتوفيق إلى الخير والزوجة الصالحة والأولاد الأبرار، والعلم والعبادة، أما الحسنة في الآخرة فهي الجنة ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي احفظنا يا رب من عذاب النار بالعفو والمغفرة واجعلنا ممن يدخل الجنة بغير عذاب.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أولئك: إشارة إلى الفريقين جميعاً، أي للأولين نصيب من الدنيا ولا نصيب لهم في الآخرة، لأنهم لم يعملوا لآخرتهم ولآخرين ثواب جزيل على ما كسبوا من الأعمال الصالحة ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي إنه سريع الحساب للعباد لا يشغله شأن عن شأن فيحاسبهم جملة واحدة، وقد قيل لعلّي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسب الله العباد في يوم؟ قال: كما يرزقهم في يوم.

وبعد أن أمر الله سبحانه الحُجَّاج بأن يذكروه بتقديسه والثناء عليه عند المَشْعَرِ الحرام، أمرهم سبحانه بأن يواصلوا ذكره في أيام معدودات، قال الله تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ وهذه الأيام هي أيام منى وتُسَمَّى أيام التشريق الثلاثة التي تقع بتاريخ (١١ - ١٢ - ١٣) من شهر ذي الحجة التي تلي يوم النحر يوم عيد الأضحى. والمقصود بذكر الله في هذه الأيام هو التكبير والتهليل (أي قول لا إله إلا الله) والتحميد عقب الصلوات وعند رمي الجمرات.

ولا يجوز الصيام بهذه الأيام لما رُوي عن النبي ﷺ قوله «إِنَّ هَذِهِ أَيَّامُ أَيَّامٍ أَكَلَ وَشَرِبَ وَذَكَرَ اللَّهَ»<sup>(١)</sup>. وأيام التشريق هي وقت لرمي الجمرات بِمِنَى والمبيت بِمِنَى معظم الليل واجب من واجبات الحج ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي من تعجل بالرحيل عن منى قبل غروب اليوم التالي من أيام التشريق فلا يأثم بهذا التعجيل كما لا حرج عليه في ذلك، ومن تأخر بالمبيت بِمِنَى حتى رَمَى الجمار في اليوم الثالث فلا إثم عليه في تأخره. والمقصود بذلك: التخيير بين التعجيل والتأخير. وبيان ذلك أن العرب في الجاهلية كانوا فريقين: فريقاً جعل المتعجل آثماً، وفريقاً جعل المتأخر آثماً فجاء الإسلام ينفي الإثم عنهما جميعاً وقد قيّد الله نفي الإثم بقوله: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ للإشارة إلى أن العبرة في مناسك الحج تكون بتقوى القلوب وتهذيب النفوس ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي واتقوا الله في جميع مناسك الحج بأدائها كما أمر الله واجتناب ما حرم عليكم واعلموا أنكم إلى الله وحده تُجمعون يوم القيامة للحساب والجزاء على أعمالكم، فاحذروا مخالفة أمره.

(١) أخرجه مسلم.



﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

### شرح المفردات

أَلَدُّ الْخِصَامِ: شديد الخصومة في الباطل.  
تَوَلَّى: انصرف، أو بمعنى صار والياً.  
الْحَرْث: الزرع.  
النَّسْل: الذرية.  
أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ: أي حملته الأتفة وحمية الجاهلية على فعل الإثم.  
الْمِهَادُ: الفراش والموضع المهيأ للنوم.  
يَشْرِي نَفْسَهُ: شري في اللغة يأتي بمعنى البيع والشراء، وهنا بمعنى البيع.  
ابْتِغَاءَ: طلباً.

### صفات المنافق المفسد في الأرض

ثم يُقَدِّمُ لَنَا الْقُرْآنُ صورتين بليغتين: صورة عن المنافق الذي يَعِيشُ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَيُخَدِّعُ النَّاسَ بِكَلَامِهِ الْمَعْسُولِ، وصورة عن المؤمن التقي الورع الذي يَتَغَيَّرُ رِضَا اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هنا يذكر القرآن جانباً

من أحوال المنافقين المرائين الذين يثيرون إعجاب الناس بحسن بياّنهم وحلاوة منطقهم عندما يتحدثون عن أمور الدنيا ومشاكلها ووسائل الإصلاح فيها، ويزعمون أن غايتهم إيصال الخير للناس والعمل لأجلهم ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ وهذا الذي يثير إعجاب الناس بذلاقة لسانه إذا رأى الناس يرتابون في قوله، أقسم لهم أن ما في قلبه يُوافق ما يجري على لسانه كأن يقول: اللَّهُ يعلم أنني أقول حقاً وإني صادق فيما أقول لكم<sup>(١)</sup> ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ وهو شديد الخصام في الباطل وقد يأتي الخصام بمعنى الجدال، أي هو شديد الجدال بالباطل، كاذب في القول يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة، لا يهّمه الحق بمقدار ما يهّمه انتصار فكره وغلبة رأيه، وهذا الصنف من الناس قال النبي ﷺ فيهم: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدَّ الْخَصِمَ»<sup>(٢)</sup>.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ والتَّوَلَّى: يأتي بمعنى الإذبار والانصراف، أي وإذا أعرض عنك يا محمد هذا المنافق المُرّائي بعد أن خدع الناس بحلاوة لسانه وفصاحة منطقهِ عَمِلَ إلى الإفساد بين الناس وألقى بينهم بذور الفتنة وعَمِلَ في الأرض بما حَرَّمَ اللَّهُ. وقد يأتي تَوَلَّى بمعنى: صار والياً، أي هذا الذي اجتذب ثقة الناس بأقواله الخادعة وأيمانه الكاذبة وخُطْبِهِ الرّنانة إذا صار والياً على الناس وترجع على سدة الرئاسة لا يسعى لنفع الناس ولا يحكم بينهم بالعدل، بل يسعى لإشباع رغباته وأهوائه ويثير الأحقاد نحو خُصُومه مما يؤدي إلى الفساد في الأرض ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ الحَرْث: الزرع. والنسل: المراد به نسل كل دابة والناس أيضاً. أي هذا المُرّائي الخَدّاع

(١) قرر علماء اللغة أنّ من ألفاظ القسم: الله يعلم أنني فعلت كذا أو الله يشهد أنني قلت كذا، فهذا تأكيد للقسم معروف في لغة العرب.

(٢) متفق عليه.

لا يكتفي بالإفساد في الأرض بل يعمل على هلاك مُقومات الأمة ومرافقها الحياتية من نبات وحيوان، أو يعمل لإثارة الأحقاد التي تؤدي إلى الصراع الدّموي وهلاك زهرة شباب الأمة ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ المفسدين في الأرض بل يبغضهم، وفي بُغْضِ اللَّهِ لهم بيان لما أعدَّ لهم من عذاب في الآخرة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ وإذا قيل لهذا المنافق المرائي: اتق غضب اللَّه واخش عقابه بالامتناع عن الفساد في الأرض ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ بالإثم: أي بالمعصية، والباء الداخلة على الإثم للسببية، أي استولت عليه العزة والأنفة والكبرياء بسبب الإثم الذي ملأ قلبه وأحاط بنفسه فلم يدع سبيلاً لنفاذ الهداية إلى قلبه. فهذا المفسد يتعاضم عن أن يؤخذ عليه خطأ أو أن يوجه إلى الصواب، فقد أخذته العزة لا بالحق ولا بالعدل ولكن بالإثم، فاستمر في إجرامه وتمادى في طغيانه، وهذا وصف دقيق ينطبق على الطغاة في كل العصور<sup>(١)</sup>.

ثم يُبين اللَّه مصير هذا المفسد بقوله: ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ﴾ أي كفاه عذاب جهنم على كبريائه وإفساده في الأرض ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ والمِهَادُ: هو الفراش الذي يأوي إليه المرء للراحة والنوم، فاستعمال المهاد لجهنم للتهكم به وإذلاله فهو مهاد له للعذاب لا للراحة.

وفي مقابل الحديث عن هذه الفئة المفسدة في الأرض يأتي الحديث عن الفئة الصالحة من عباد اللَّه:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ يَشْرِي: يبيع، أي ومن

(١) يقول ابن مسعود: إن من أكبر الذنب عند الله أن يُقال للعبد: اتَّقِ اللَّهَ، فيقول: عليك بنفسك.

الناس مؤمنون صادقون سَمَت نفوسهم، وترَفَعُوا عن النفاق والفساد في الأرض، فلم يستجيبوا لأهوائهم وشهواتهم، وإنما باعوا أنفسهم في سبيل الله وطلباً لمرضاته، وفِدَاءً لِدِينِهِ، وقاسوا أنواع المشقات في طاعة الله فقبل الله هذا البيع وأعطاهم الثواب الجزيل والنعيم في الآخرة كما جاء في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١].

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ والله سبحانه رحيم بعباده حيث أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ولكنهم قصّروا في واجباتهم نحو ربهم ولم يقوموا بما يتوجب عليهم من شكره والعمل بمرضاته.

صورتان يبرزهما القرآن ليتعلم الناس مدى التفاوت بين الخداع والصدق، وليبحثوا عن الحقيقة وراء هذه المظاهر المموهة الخدّاعة من كثير من الناس، وأن لا ينخدعوا بمن اتخذوا الكلام المزوق سلعة لهم للوصول إلى الحكم وإلى أغراضهم الدنيئة.



﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ .

### شرح المفردات

السِّلْم: المُسالمة أو الإسلام.

خُطُوات الشيطان: آثاره وطرائقه التي يُزَيِّنُ لكم بها المعاصي.

زَلَلْتُمْ: ملَّتُمْ وضللتُم عن الحق.

ينظرون: يتتبعون.

ظُلُل: جمع ظلة، وهي ما يحجب ضوء الشمس.

آية بَيِّنَة: حُجَّة واضحة.

### الدعوة إلى السِّلْم

وبعد أن بيَّن القرآن حال الذين يعيشون في الأرض فساداً انتقل إلى دعوة المؤمنين إلى العمل بأحكام الإسلام لأنه الدين المرتكز على السلام ونبذ العنف قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً﴾ السلم : قرئ بكسر السين كما قرئ بفتحها ، وقد ذهب فريق من أهل اللغة والمُفسرين إلي أن السَّلَام بالكسر والسَّلَام بالفتح بمعنى واحد ، ويُطلقان على الإسلام ، وعلى المُسالمة والمُوادعة والصلح .

فإذا أخذنا السَّلَام بمعنى الإسلام فيكون الخطاب لجملة أناس ، قد يكون الخطاب للمؤمنين بنبوة محمد وبالقرآن الذي أنزل عليه ، أمرهم الله جميعاً بالثبات على دينهم وأن يعملوا بجميع أحكام الإسلام وشرائعه ويحافظوا على فرائضه وإقامة حدوده .

وقيل : الخطاب في الآية لمن آمن بنبوة محمد من بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وغيره ، وذلك أنهم ذهبوا إلى تعظيم يوم السبت وكرهوا لحم الجمل وأرادوا الأخذ بشيء من أحكام التوراة فنزلت الآية فيهم ، والمعنى : ادخلوا مع المسلمين في شريعتهم جميعاً ولا تفرقوا عنهم بالأخذ بما نسخه القرآن من التوراة ، وقيل : الخطاب لأهل الكتاب ، والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بنبوة موسى وعيسى ادخلوا في الإسلام جميعاً وآمنوا بنبوة محمد فليس إيمانكم بالتوراة والإنجيل وحدهما بنافعكم . وقد قال النبي محمد ﷺ : «والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة : يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار»<sup>(١)</sup> .

أما إذا أخذنا معنى (السَّلَام) على أنه المُوادعة والمُسالمة والصلح فيكون دعوة المسلمين إلى المُسالمة فيما بينهم ، وأن لا يتفرقوا ولا يتنازعوا بالجدل والخلاف المذهبي فيصبحوا شيعاً وأحزاباً يَقْتُلُ بعضهم بعضاً كما حصل ذلك بعد الإسلام ، كما تشمل الدعوة إلى (السلم) مُسالمة المسلمين لغيرهم فلا

(١) أخرجه الإمام مسلم .

يعتدون عليهم ما داموا مسالمين للمسلمين وقد جاء في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

وإن نصوص القرآن بجملتها تدعو إلى السلام بين البشر ونَبَذَ الحروب والصراعات فيما بينهم، كما دعا القرآن شعوب الأرض إلى التعارف بينهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. والتعارف ينفي النزاع والتقاتل فيما بينهم.

ومن وصية الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] أي وإن مال أعداؤك إلى الصلح والسلام وكفوا عن مقاتلتك فعاملهم بالمثل.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ هنا تنبيه إلى أن ما يصرف الناس عن السلم ويدعوهم إلى التفرقة هو من وساوس الشيطان، ولما كان من أساليب الشيطان أنه لا يجرّ الناس بوساوسه إلى الشر دفعة واحدة بل يأخذهم بالتدرج من شر إلى ما هو شر آخر، لذا عبّر الله عن ذلك بخطوات الشيطان، أي خطوة إلى الشر إثر خطوة ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي إن الشيطان ظاهر العداوة لكم - أيها الناس - فهو يحرضكم على الفرقة والتنازع، ويغريكم باتِّباع الشهوات والمنكرات ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾<sup>(١)</sup> فإن أخطأتم الحق فضللتم عنه وخالفتم الإسلام وشرائعه ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي من بعد أن ساق الله لكم الحجج والأدلة المبينة لكم الحق من الباطل والضلال من الهدى ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

(١) زللتم: يقال: زلّ، أي زلت به القدم ووقع أرضاً، ثم استعملت كلمة زلّ في العدول عن



عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٨﴾ أي فاعلموا أن الله هو القوي الغالب لا يعجزه الانتقام منكم على معصيتكم إياه، حكيم يضع الأمور في مواضعها فلا يجعل المصلح كالمفسد بل يثيب المحسن ويعاقب المسيء.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ ينظرون: ينتظرون، والاستفهام هنا إنكاري بمعنى النفي، أي: لا ينتظرون، وإتيان الله إنما هو بالمعنى اللائق به لأنه سبحانه يتنزه عن مشابهة الخلق فيحمل معنى إتيان الله وملائكته على إنزال عذابه الدنيوي. والمعنى: ما ينتظر هؤلاء الذين يأبون الدخول في الإسلام من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة بأن الإسلام حق إلا أن يأتيهم أمر الله للملائكة بإهلاكهم وإنزال العذاب بهم في ظل من السحاب الأبيض يحسبونه رحمة يجود عليهم بالمطر بينما هو عليهم عذاب فيكون ذلك أشدّ وقعاً على نفوسهم ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي إذا نزل فيهم عذاب الله في الدنيا فقد قُضي أمر الله فيهم إذ لم يكن ثمة رجاء في إيمانهم كما أهلك الله قوم عاد وثمود وفرعون وجيشه وغيرهم ﴿وَالِإِلَهِ اللَّهُ تُزَجَّعُ الْأُمُورُ﴾ وإلى الله وحده تصير الأمور، وسيجازي الذين أساءوا بما عملوا وسيجازي الذين أحسنوا بالحسنى.

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ والمأمور بالسؤال هو الرسول محمد ﷺ، والمراد من ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ في الآية الحاضرون من اليهود في عهد الرسول ﷺ، والضمير في ﴿آتَيْنَاهُم﴾ هم سلفهم وأجدادهم، والآية البينة: المعجزة الواضحة.

فألله سبحانه يطلب من رسوله محمد أن يسأل اليهود على عهده سؤال توبيخ وتقريع كم أعطى أسلافهم من معجزات على يد رسل الله بما يدعوهم للإيمان بالله، ومثال على ذلك ما أيّد الله به موسى، فعصاه انقلبت إلى حية

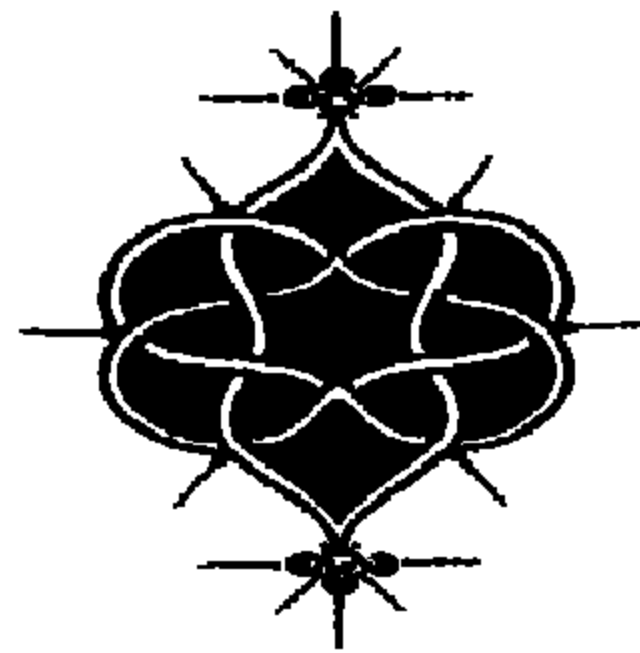
تسعى وابتلعت أدوات السحرة، وضرب موسى بعصاه البحر فانشق إلى اثني عشر طريقاً سلكه بنو إسرائيل ونجوا من بطش فرعون، وظللهم الله بالغمام وهم في صحراء سيناء ومنع عنهم حرارة الشمس اللاهبة، ونزل الله عليهم المن والسّلوى لغذائهم وهم في الصحراء القاحلة، ومع هذه المعجزات وغيرها يقولون لموسى: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] ومنهم من كفروا وعبدوا العجل فاستحقوا بذلك غضب الله وعذابه، وكأن الله يذكّر بني إسرائيل على عهد رسوله محمد ﷺ بأنهم إذا أغرضوا عما جاءهم به من الهدى فإنهم سيلقون العذاب كما حصل لأسلافهم من قبل.

﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ ونعمة الله تشمل: نعمة الصحة، ونعمة المال، ونعمة العقل، ونعمة الهداية بإرسال الرسل، ونعمة الإسلام الذي جاء به رسول الله محمد ﷺ، أي ومن يُبدّل هذه النعم بالكفر ولا يبذل جهده في مرضاة الله وينغمس في المعاصي والمنكرات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي لكل من ضلّوا بعد ما جاءتهم البينات وبدّلوا نعمة الله كفراً.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ زُيِّنَ: حُسِّنَ، أي حُسِّنت الدنيا في أعينهم وتغلغلّت محبتها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها معرضين عن العمل للآخرة، والتزيين من حيث الإيجاد يرجع إلى الله سبحانه، فهو الذي حسنها وجملها ليمتحن بها عباده كما جاء في القرآن ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

ويجوز أن يكون التزيين من الشيطان إذ يوسوس للإنسان الارتواء في شهوات الدنيا وملذاتها وعصيان الله فيها على حدّ ما جاء في القرآن على لسان

إبليس ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] فالكُفَّار حَسَّنت لهم الدنيا فحسبوها كل شيء وأنساهم ذلك العمل للآخرة، وظنوا أن ليس هناك بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء ولذلك انكبوا على ملذَّاتها وشهواتها بأي السبل كانت حلالاً أم حراماً ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقد أدَّى بهم تهافتهم على الدنيا أن سَخَرُوا من الذين آمنوا لأن أكثرهم من الفقراء، بينما هم كانوا في ثراء يحقق لهم كل ما يشتهون، ولكن ليس هناك صلة وارتباط بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، فقد يكون المحروم من متاع الدنيا هو المنعم في الآخرة ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي والذين يخافون الله ويحذرون عقابه بترك المعاصي يكونون يوم القيامة أرفع منزلة وأعلى مكانة عند الله من الذين كفروا، فالفوقية هنا فوقية تشريف وتكريم وهي مجاز في تناهي الفضل والنعيم لهم في الجنة، بينما الكُفَّار في عذاب النار ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ والله سبحانه يُعطي من يشاء من الرزق بغير حصر وبلا تقتير، فيُعطي الرزق في الدنيا من يطيعه ومن يعصيه، ولكن لا يعطي نعيم الآخرة إلا للمتقين، والرزق في الدنيا والحصول عليه منوط بالعمل بأسبابه وبتوفيق الله لمن يرزقه.



﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

### شرح المفردات

أُمَّة: جماعة من الناس أمرهم ومقصدهم واحد.  
 مُبَشِّرِينَ: يخبرون الناس بما يسرهم برضوان الله عليهم إن أطاعوه.  
 مُنذِرِينَ: يُخَوِّفُونَ الناس من سخط الله عليهم إن عصوه.  
 الْبَيِّنَات: الأدلة المقنعة الظاهرة.  
 بَغْيًا: ظلماً وعدواناً.  
 صراط مستقيم: الطريق الذي لا اعوجاج فيه وهو طريق الإيمان والخير.

### اختلاف الناس سببه العدول عن الحق

وبعد أن ذكر الله في الآيات السابقة أن الناس فريقان: فريق فاسد اختار الشرّ طريقاً له، وفريق صالح باع نفسه في سبيل الله لنيل رضاه، بيّن الله في الآية التالية أن اختلاف الناس هو من طبيعة الوجود الإنساني، فالناس منهم الصالح ومنهم المفسد، ولكن يتدارك الله عباده بإرسال الرسل إليهم ليهدوهم إلى الحق والهدى، قال الله تعالى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الأُمَّة: كل جماعة يجمعهم أمر، إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، وجمعها أُمم. والمعنى: كان الناس جماعة

واحدة متفقين على العقيدة الحقّة وهي وحدانية الله التي فطر الله الناس عليها،  
مقرّين بالعبودية له وحده ثم اختلفوا ما بين ضالّ ومهتد.

أو يكون المعنى: كان الناس جماعة واحدة في خلوّهم من الشرائع  
وجهلهم بالحقائق، أو كانوا قبل إرسال الرسل إليهم على ملّة واحدة وهي الكفر  
﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ فأرسل الله النبيين لإرشاد الناس إلى  
دين الله الحق، مبشرين من سار منهم على هدى الله بجزيل الثواب، ومنذرين  
من ضلّ منهم بسوء العذاب ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ الكتاب: اسم  
جنس بمعنى الكتب، أي وأنزل الله الكتب المنزلة من عنده وفيها شرائع الله  
داعية إلى الحق.

وأورد القرآن كتب الأنبياء بصيغة المفرد للإشارة إلى أن كتب النبيين وإن  
تعددت إلاّ أنها في جوهرها كتاب واحد لاشتغالها على أصول الدين من عبادة  
الله وحده، والإيمان بالبعث والحساب، والجزاء على الأعمال، والدعوة إلى  
مكارم الأخلاق، أما الشرائع فهي تختلف بين أمّة وأخرى ﴿لِيُخَكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ  
فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي ليحكم كل نبي بين الناس من قومه فيما اختلفوا في دين  
الله ويردّهم إلى الحق والصواب ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي وما  
اختلف في الكتاب المنزل من عند الله إلاّ الذين أُوتوه من أرباب العلم به  
والدراسة له، واختلافهم في كتاب الله هو تأويله على غير معناه بما يُوافق  
أهواءهم ومذاهبهم وتكفير بعضهم بعضاً ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي من  
بعد ما جاءتهم الحجج الواضحات على وجوب الأخذ به وعدم الاختلاف فيه.  
ولكن كان السبب الداعي لاختلافهم فيه هو ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ والبغي أصله الحسد  
والظلم، ثم سُمّي الظلم بغياً لأن الحاسد يظلم المحسود، كما يأتي البغي  
بمعنى العُدول عن الحق والكِبَر ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ

الْحَقُّ بِإِذْنِهِ ﴿٢١٤﴾ أي وإذا كان هذا شأن الظالمين في اختلافهم في كتاب الله فقد هدى الله الذين آمنوا وصدّقوا رسله إلى الحق الذي اختلفوا حوله، وقد يُراد من قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هم أمة محمد الذين هداهم الله لما اختلف فيه أهل الكتاب بأن وفقهم الله لإصابة الحق بإذنه تعالى وتيسيره ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بهذه الجملة ختم الله الآية لبيان كمال سلطته وإرادته، ولو أراد الله أن يكون الناس جميعاً مهتدين لحصل ذلك، ولكن حكمته اقتضت أن يختبرهم لتمييز الصادق في إيمانه من الكاذب فيجازي كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب.



﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٥﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

### شرح المفردات

حَسِبْتُمْ: ظننتم.

خلوا: مضوا.

مَسَّتْهُمُ: أصابتهم.

البُأساء: الفقر أو الشدة.

الضرَاء: المرض أو الضرر مطلقاً.

زُلزلوا: أزعجوا إزعاجاً شديداً بالبلايا.

### دعوة للصمود عند الشدائد

ويتابع القرآن فيحث المسلمين على الصمود والصبر وكان ذلك حينما أحاط الأعداء بالمدينة المنورة من كل جانب ينتظرون فرصة للانقضاض على المسلمين وإهلاكهم، وفي هذا الجو المشحون بالخوف والقلق على المصير نزلت الآية التالية تثبيتاً لقلوبهم ومُبشرة لهم بالنصر القريب على أعدائهم:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أم حسبتم: استفهام إنكاري، أي هل حسبتم أيها المسلمون أن تدخلوا الجنة يوم القيامة ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ لَمَّا: أداة نفي فيها معنى التوقع، والمعنى: ولم تأتكم محنة يتوقع حلولها بكم، ولم يصيبكم مثل ما أصاب مَنْ قَبْلَكُمْ من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار فَتُبَتَّلُوا بما ابتلوا به ﴿مَسَّهُمْ الْبُأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾ أي أصابهم البأساء وهو الفقر والشدة والبلاء وأصابتهم الضرَاء وهي الأمراض والآلام ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ والزلزلة: شدة التحريك، أي أزعجوا إزعاجاً شديداً بما نزل بهم من البلايا ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ﴾ والرسول: للجنس، أي إن تلك الحالة من البلايا والشدة والاختبار كانت تعرض لكل رسول من رسل الله، إذ يمتحنهم الله بأنواع البلايا ويختبرهم بصنوف الشدة. ومن المعلوم أن رسل الله في غاية الثبات والصبر عند نزول البلاء، فإذا لم يبق لهم صبر حتى استغاثوا بالله وشاركهم في الاستغاثة المؤمنون من أتباعهم متسائلين: متى نصر الله؟ فهذا يصوّر عظم البلاء الذي



حلّ بهم، وفي تلك الحالة تأتي البشرى من الله ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ في هذه الجملة أنواع من المؤكّدات على حصول النصر. منها: تصدير الجملة بأداة الاستفتاح ﴿أَلَا﴾ الدالة على تحقيق مضمونها. ومنها: ذكر ﴿إِنَّ﴾ المؤكّدة لمضمون القول. ومنها: إضافة النصر إلى الله القادر على كل شيء وهو سبحانه إذا وعد وفى.

هكذا كانت حال المؤمنين من قبلكم - يا أتباع محمد - لم يغيّرهم طول البلاء وعِظَم الشدة عن الثقة بالله، فكونوا مثلهم في تحمّل الأذى ومقاساة الأهوال، فإن نصر الله قريب.

هذه الآية، قيل: إنها نزلت في غزوة الأحزاب إذ اجتمع المشركون مع أهل الكتاب على الإيقاع بالمسلمين والقضاء عليهم، وأصاب المؤمنين يومئذ ما أصابهم من الجهد والجوع والخوف، وقد وصف الله ذلك بقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١١].

وروى البخاري عن خباب بن الارت قال: شكّونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسّد بُردة في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحْفَرُ له في الأرض فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجْعَلُ نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتمنّي الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه البخاري.

## التكافل الاجتماعي

ثم ينتقل القرآن إلى موضوع آخر وهو الدعوة إلى التكافل الاجتماعي عبر سؤال بعض المسلمين عن كيفية إنفاق أموالهم ومواقعه التي بها يقع القبول عند الله، فيأتي الجواب من الله على سؤالهم:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد: ما هي الوجوه التي ينفقون فيها؟ وأين يضعون ما لزم إنفاقه<sup>(١)</sup>؟ والخير في الآية هو المال، ويطلق على الوفير منه، والخير يفترض أن يكون المال حلالاً، وإنما سمي المال خيراً للتنبيه على أن من حقه أن يُصرف إلى جهة الخير، والخير هو الشيء الحسن النافع. ثم تُبين الآية الجهة التي تستحق الإنفاق عليها وهي: ﴿فَلِلَّذِينَ وَالِالَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ قدّم القرآن الآباء والأمهات على غيرهم أداءً لحق تربتهما للمنفق ووفاء لبعض حقوقهما عليه، ثم الأقرباء من الإخوة والأخوات والأعمام والعَمَّات والأخوال والخالات وغيرهم وفاءً لحق القرابة. واليتامى هم الذين فقدوا آباءهم وكانوا صغاراً فقراء، ثم المساكين وهم من لا كسب لهم من المال، أو لهم كسب ولكن لا يفي بحاجاتهم، وابن السبيل وهو المسافر الذي انقطع عن ماله. فالترتيب في الآية يشير بتفضيل البعض على البعض الآخر في الإنفاق، فيسَدّ المنفق حاجة الأبوين أولاً، ثم يسَدّ حاجة الأقرباء، ثم يسَدّ حاجة المحتاجين من غير أسرته.

وأكثر العلماء قالوا: إن الآية حكمها في صدقة التطوع لأن هناك فريضة الزكاة التي تُصرف على المحتاجين الذين نص عليهم القرآن.

(١) عن ابن عباس قال: كان عمرو بن الجموح شيخاً كبيراً وعنده مال كثير، فقال: يا رسول الله، بماذا نتصدق؟ وعلى من نفق؟ فنزلت هذه الآية.

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ عليم: صيغة مبالغة من العلم، وإحساس المؤمن بأن الله يرى عمله في الخير حين يعمل، وأنه سيكافئه عليه، إن هذا سيشجعه على فعل الخير والاستمرار عليه.

ثم يبين الله الواجب على المسلمين في حال الاعتداء عليهم:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ كُتِبَ أي فرض الله عليكم القتال - أيها المسلمون - وهو أمر تلجأون إليه وتضطرون إليه مكرهين على القتال لإزالة الفتنة التي يثيرها أعداؤكم، ذوداً عن الدين ودفاعاً عن أرواحكم وأموالكم. وكرهية القتال أمر طبيعي لأنه يحول بين المقاتل وبين طمأنينته ولذاته وأهله ويعرضه لخطر الهلاك وألم الجراح ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وعسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة والخطر على حياتكم ولكن نهايته تكون خيراً لكم ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وقد تحبون شيئاً وتحرصون عليه ولكن نهايته شرٌ لكم. فالقعود عن الجهاد عند الاعتداء عليكم يؤدي بكم إلى الضعف والفقر والذل والهوان، أما الجهاد ومقارعة العدو المعتدي فهو سبب للعزة والكرامة، وفيه إحدى الحسنين: إما الشهادة ودخول الجنة في الآخرة وإما الظفر والغنيمة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ والله يعلم ما هو خير لكم وما هو شرٌ لكم، وأنتم لا تعلمون ذلك، فأطيعوا الله في كل ما يأمركم به لأن فيه الخير دائماً.



﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ  
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ  
أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى  
يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ  
فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا  
وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ  
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾

### شرح المفردات

الشهر الحرام: أحد الأشهر الأربعة التي حرّم الله القتال فيها وهي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

وصدّ عن سبيل الله: وصرف للمسلمين عن كل ما يوصل إلى طاعة الله.

الفتنة: المراد بها تعذيب المسلمين وإخراجهم من ديارهم وعن دين الله.

أكبر عند الله: أعظم إثماً عند الله.

حتى يردوكم عن دينكم: حتى يخرجوكم من الإسلام ويعيدوكم إلى الكفر.

حبطت أعمالهم: بطلت أعمالهم الصالحة.

### حكم القتال في الأشهر الحرام

ويتابع القرآن فيبين الآثام التي تنجم عن القتال في الأشهر الحرم، وعن

منع الناس وصرفهم عن دين الله، وعن الكفر بالله، وعن الفتنة في دين الله،

قال الله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي يسألك المسلمون - يا محمد - عن القتال في الشهر الحرام أهو جائز أم محرّم؟ ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ قل لهم يا محمد: إن القتال في الشهر الحرام هو ذنب عظيم. والشهر الحرام في الآية المراد به جنس الأشهر الحرام وهي الأشهر الأربعة: رَجَب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم. وأطلق عليها الأشهر الحرم لأن القتال فيها محرّم، وقد كانت العرب لا تسفك دمًا في تلك الأشهر ولا تقوم بغارة على عدو، والحكمة في تحريم القتال في الأشهر الحرم تأمين السبل وإشاعة الأمن لمن يريد أداء الحج أو العمرة.

وقد سأل المسلمون هذا السؤال بعدما علموا من قتل أحد المشركين في الشهر الحرام على يد بعض المسلمين، وقد جرى ذلك في حادثة مفادها بما سنذكره باختصار: بعث رسول الله عبد الله بن جحش ومعه ثمانية رهط من المهاجرين إلى مكان يسمى (بطن نخلة) ليرصدوا عيراً<sup>(١)</sup> لقريش ويأتوه بخبرهم، فمرت بهم عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي وثلاثة آخرون، فقتله المسلمون وأسروا اثنين واستاقوا العير إلى المدينة التي كانت تحمل تجارة لقريش وكان ذلك أول يوم من شهر رجب وهم يظنونونه من شهر جمادى الآخرة. فلما قدموا على رسول الله قال لهم: والله ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فلما قال لهم ذلك سقط في أيديهم، وظنّوا أن قد هلكوا وعنفهم إخوانهم من المسلمين، وأوقف رسول الله توزيع الغنيمة<sup>(٢)</sup>، وقالت قريش: استحلّ محمد الشهر الحرام! عندئذ سأل بعض المسلمين رسول الله عن حكم القتال في

(١) عير: قافلة من الجمال.

(٢) وبعد نزول الآية التي تستنكر ما فعله المشركون وزّع رسول الله الغنيمة وفادى الأسيرين.

الشهر الحرام، فَيَبِّنُ اللَّهُ أَنَّ الْقِتَالَ فِيهِ إِثْمٌ كَبِيرٌ، وَلَكِنْ هُنَاكَ جَرَائِمٌ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ قَدْ اقْتَرَفَهَا الْمُشْرِكُونَ وَهِيَ الْأُمُورُ الْآتِيَةُ:

﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فَمِنْ فَعْلُوا أَوَّلًا: ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي مَنَعُوا النَّاسَ وَصَرَفُوهُمْ عَنْ دِينِ اللَّهِ وَالِدُخُولِ فِيهِ. ثَانِيًا: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أَي وَكَفَرُوا بِاللَّهِ إِذْ عَبْدُوا الْأَوْثَانَ وَأَشْرَكُوا بِهِ غَيْرَهُ. ثَالِثًا: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَي مَنَعُوا الْمُسْلِمِينَ مِنْ زِيَارَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لِلْحَجِّ أَوِ الْعُمْرَةِ. رَابِعًا: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ وَإِخْرَاجُ أَهْلِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حِينَ آذَوْهُمْ حَتَّى هَاجَرُوا وَتَرَكُوا مَكَّةَ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُمُ اللَّهُ أَهْلَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْكُنُونَ حَوْلَهُ ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَي إِنْ هَذِهِ الْأُمُورُ مُجْتَمِعَةٌ وَمَنْفَرَدَةٌ أَكْبَرُ مِنَ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَمَعَ ذَلِكَ ارْتَكَبَهَا الْمُشْرِكُونَ، وَأَخَذُوا عَلَى بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ الْقِتَالَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ.

هَذِهِ الْأُمُورُ الْأَرْبَعَةُ كُلُّهَا جَرَائِمٌ اقْتَرَفَهَا الْمُشْرِكُونَ وَهِيَ فِي مَجْمُوعِهَا تُسَاوِي وَاحِدَةً قَائِمَةً بِذَاتِهَا وَهِيَ الْفِتْنَةُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ خَصَّهَا اللَّهُ بِالذِّكْرِ بِقَوْلِهِ:

﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ وَالْفِتْنَةُ تَطْلُقُ عَلَى الْإِيذَاءِ وَالتَّعْذِيبِ وَالْمُحَنَةِ، وَالْفِتْنَةُ هُنَا أُرِيدَ بِهَا مَا لَقِيَهِ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ صُنُوفِ الْأَذَى وَالتَّعْذِيبِ لَصَرَفِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَقَطِيعَتِهِمْ فِي الْمَعَامَلَةِ وَالسَّخَرِيَّةِ بِهِمْ، وَمَنْعِهِمْ مِنْ إِظْهَارِ عِبَادَتِهِمْ، وَلَقَدْ بَالِغَ الْمُشْرِكُونَ فِي إِيقَاعِ الْأَذَى وَالْعَذَابِ بِالْمُسْلِمِينَ حَتَّى إِنْ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ مَاتَ تَحْتَ الْعَذَابِ وَهُوَ يَاسِرٌ وَزَوْجُهُ سُمِّيَّةٌ. وَكَانَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ يُعَذِّبُ بِلَالًا وَيَمْنَعُ عَنْهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ وَيَطْرَحُهُ فِي رِمَالِ الصَّحَرَاءِ الْحَارَةِ وَيَكْوِيهِ بِالنَّارِ لِيَرْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ ذَاقُوا مُرَّ الْعَذَابِ.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾ أي لم يكتف المشركون بإنزال العذاب بكم - أيها المؤمنون - بل لا يزالون يشنون الحرب عليكم لصرفكم عن دينكم القويم ويردوكم إلى الكفر ﴿إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾ هذه العبارة تدل على عدم قدرتهم على ذلك، وعلى استبعاد لاستطاعتهم، كقول الرجل لعدوه: إن ظفرت بي فلا تُبقي عليّ.

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ ومن يرجع منكم - أيها المؤمنون - عن دينه الذي أقرّ به، ويكفر بالله بعد إذ آمن بوجوده ووحدانيته أو ينكر نبوة محمد ويطعن بها بعد أن أذعن لما جاء به النبي من الهدى فيمت وهو على كفره ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي أولئك تبطل كل أعمالهم الصالحة التي قدّموها في دنياهم ويبطل الثواب عليها في الآخرة ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي أولئك المرتدّون عن دينهم هم ملازمون عذاب النار يوم القيامة ملازمة الصاحب لصاحبه وهم خالدون في العذاب بها وبقون فيها أبداً.

وبعد أن نفى الله الإثم عن الذين قتلوا عمرو بن الحضرمي في الشهر الحرام عن خطأ منهم، وبيّن أن ما فعله المشركون بالمؤمنين من الأذى والاضطهاد أكثر إثماً، سأل عبد الله بن جحش ومن معه من المؤمنين رسول الله بقولهم: يا رسول الله، هب أنه لا عقاب علينا فيما فعلنا، فهل نطمع منه أجراً وثواباً؟ فنزلت الآية التالية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.



في هذه الآية ثلاث صفات لأولئك المُقَرَّبِينَ إِلَى اللَّهِ:

١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صَدَّقُوا بوجود اللَّهِ ووجدانيته وأذعنوا لحكمه وأخلصوا قلوبهم له .

٢ - ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وهم الذين هَاجَرُوا من مكة إلى المدينة المنورة وتركوا أموالهم فداء لدينهم وتمسكاً به .

٣ - ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والجهد بذل الجهد في طاعة اللَّهِ والقتال في سبيل إعلاء كلمته وإقامة دينه .

هؤلاء الذين فعلوا ذلك كله هم على رجاء برحمة اللَّهِ لهم ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ والرجاء ترقب الخير مع تغليب الظن في حصوله، وإنما قال سبحانه: يرجون لأنه لا يعلم أحد في الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ في طاعة اللَّهِ كل مبلغ، لأمرين: الأول، أنه لا يدري بما تنتهي حياته من صالح الأعمال أو من سيئها. والثاني: لئلا يتكل على عمله، فدخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها ولكن بفضل اللَّهِ ورحمته. وقد قال الرسول محمد ﷺ: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، فقالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، حتى يتغمدني اللَّهُ برحمته»<sup>(١)</sup>.

وختم اللَّهُ الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هاتان صفتان من صيغ المبالغة، أي إن اللَّه واسع المغفرة لمن تاب إليه وعمل صالحاً، وهو سبحانه عظيم الرحمة لمن آمن به وهاجر إليه وجاهد في سبيله .

(١) متفق عليه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾  
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ .

### شرح المفردات

الخمير: كل شراب مُسكر، وسميت بذلك لأنها تستر العقل عن التفكير الصحيح.

الميسر: القمار.

العفو: ما فضل عن النفقة الواجبة للعيال ويزيد عن الحاجة.

تُخَالِطُوهُمْ: تَخَلَطُوا نَفَقَتَهُمْ بِنَفَقَتِكُمْ، وَتَعِيشُوا وَتَسْكُنُوا مَعَهُمْ.

لَأَغْنَيْتَكُمْ: لَكَفَّكُمْ مَشَقَّةَ وَضِيقَ عَلَيْكُمْ.

### تحريم الخمر والقمار

وبعد أن سأل المسلمون رسول الله عما ينفقون من أموالهم على المستحقين للصدقة وعن حكم القتال في الشهر الحرام، سألوه عن الخمر والميسر ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أي يسألك يا محمد المسلمون عن الخمر والميسر: هل تعاطيهما حلال أم حرام؟ والميسر هو القمار، فيأتي الجواب من الله ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ قل لهم إن شرب الخمر وتعاطي القمار ينشأ عنهما إثم كبير، والإثم: الذنب، وفي وصف الإثم بأنه كبير يظهر لنا مبلغ النهي عن تعاطي شرب الخمر والقمار ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ أما منافع الخمر التي أشارت إليها الآية فأهمها التجارة، فقد كانت ولا تزال مورداً مهماً للثروة، كما

أنها توفر العمل لكثير من العمّال في تصنيعها . ومنافع القمار هي ما يُؤخذ من أرباح صالات القمار ومن أوراق اليانصيب في مساعدة الجمعيات الخيرية ، ولكن القرآن ينفي نفعهما فيقول : ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ وهذه إشارة إلى تحريمهما ، لأن ما غلبت مضرته على منفعته يكون حراماً .

ولقد نزل في الخمر أربع آيات من القرآن الكريم :

أولها : قوله تعالى : ﴿ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل : ٦٧] . فعندما قال الله ﴿سَكَرًا﴾ مر عليها بلا تعليق ، وعندما قال ﴿رِزْقًا﴾ وصفها بأنها ﴿حَسَنًا﴾ فتسمية أحد النوعين بأنه رزق حسن ، معنى ذلك أن مقابله ليس رزقاً حسناً .

ثانياً : نزل قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . .﴾ وهي الآية التي نحن في صدددها ، فشربها قوم وتركها آخرون .

ثالثاً : نزل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء : ٤٣] . وأسباب نزول الآية أن بعض المسلمين جاءوا لأداء الصلاة ووقف أحدهم إماماً وكان في حالة السكر فقراً (قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون) بغير (لا) النافية ، بدلاً من أن يقرأها (لا أعبد) . وهذه الآية التي نهت عن الصلاة في حالة السكر فيها خطوة تمهّد لتحريمها ، والصلاة خمسة أوقات معظمها متقارب لا يكفي ما بينهما للسكر ثم الإفاقة منه .

رابعاً : نزل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة : ٩٠] وفي هذه

الآية التحريم القاطع لِشُرْبِ الخمر وتعاطي القمار، ولذلك أراق المسلمون كل الخمر التي كانت لديهم حتى سالت في الطرقات.

فالإسلام حرّم الخمر بالتدرّج، وهذا ما يتوافق مع أحدث الأساليب العلمية لمعالجة المدمنين على الخمر، فالمدمن لا يستطيع أن يترك الخمر دفعة واحدة بل يحتاج إلى وقت طويل وفترات متباعدة، وهذا ما سلكه القرآن.

**والخمر:** مأخوذة من خمر الشيء إذا ستره وغطّاه، سُميت بذلك لأنها تَسْتُرُ العقل وتُغْطِّيهِ. والخمر تشمل كل مسكر، فقد قال النبي ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ»<sup>(١)</sup> ورُوِيَ عنه أنه قال: «كل شراب أسكر فهو حرام»<sup>(٢)</sup>، وقوله أيضاً: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»<sup>(٣)</sup>.

**مضارّ الخمر:** تشمل الناحية الجسمية والناحية النفسية، فالخمر وما تحتويه من كحول تفتك بالجسم مروراً بالمرىء والمعدة مما يسبب فيهما الإصابات السّرطانية وذلك بصورة مؤكدة، والكبد هو العضو الأساسي المعرض لأضرار الموادّ الكحولية، فالموادّ الكحولية تسبّب للكبد التهابات وتمزيقاً لخلاياه وتجمّعاً للدّهنيّات في ما تبقى منها، ثم تحجّراً مع تليّف يصل بالكبد إلى مرحلة التشمع التي لا شفاء منها. هذه بعض أضرار الخمر على صحة الإنسان تقتصر عليها خوفاً من التطويل.

أما من الناحية النفسية، فإن الخمر تؤدي بالشارب إلى إضعاف صوت ضميره وذهاب حيائه، مما يدفع به إلى عدم التمسك بالأخلاق الكريمة وفعل

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه ابن ماجه.

كل منكر قبيح، وإن كثيراً من حوادث الزنى والاغتصاب تقع تحت سلطان الخمر.

والخمر تؤدي بالشارب إلى ذهاب رشده، وضعف إدراكه، وعدم وزنه الأمور وزناً صحيحاً، مما يترتب على ذلك الخُسران في كل مجالات عمله من تجارة أو معاملات بين الناس.

**مضار القمار:** سَمِيَ اللَّهُ القمار في القرآن «ميسراً» وهو الذي كان يتعامل به العرب، والميسر مشتق من اليُسْر بمعنى السهولة، لأن المال يجيء للرابح من غير جهد، ويدخل ضمن الميسر اليوم: أوراق اليانصيب، والرّهان في سباق الخيل، وألعاب الروليت وما يأتي عن طرقٍ أخرى فيها الكسب والخسارة.

فالمُقامر لا يقوم ربحه إلا على خُسران الغير، فهو مغتصبٌ مال أخيه على مرأى منه، والإسلام حريص على تعزيز الأخوة بين المؤمنين، فأَيُّ أَخُوَّةٍ تبقى بين هؤلاء؟

ويقول الشيخ محمد عبده في مضار القمار: «تعويد النفس الكسل وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية، وإضعاف القدرة العقلية بترك الأعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية، وإهمال المقامرين للزراعة والصناعة والتجارة التي هي أركان العمران، ومنها، وهو أشهرها، تخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر في ساعةٍ واحدةٍ..»<sup>(١)</sup>.

وبعد أن نهى الله المسلمين عن إنفاق أموالهم في الوجوه المحرّمة كتعاطي الخمر والميسر سألوا عن وجوه الإنفاق في طرق الحلال، وقد رُوِيَ عن ابن عباس أن نفراً من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبي ﷺ

(١) نقلاً عن تفسير المنار.

فقالوا: إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا، وما الذي ننفقه منها؟ فأنزل الله قوله:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ العَفْوُ: ما سهل وتيسر مما فضل من الكفاية. والمعنى: ويسألك المسلمون يا محمد ما الذي ينفقون من أموالهم؟ فقل لهم: أن ينفقوا السهل الزائد عن حاجاتهم ولا يشقّ عليهم بذله، والمراد من الآية أن على المتصدق أن يُبقي لنفسه ولعِياله ما يكفيهم من المال، وما يزيد من المال يتصدق منه، وقد روي أن النبي ﷺ قال: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وأبدأ بمن تعول»<sup>(١)</sup>.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. في الدنيا والآخرة ﴿أي مثل هذا البيان الواضح في الخمر والميسر والإنفاق، يُبين الله لكم آيات الأحكام في كتابه لكي تتفكروا في أمور الدنيا والآخرة، وتعملوا بهذه الأحكام مما يقربكم من ربكم.﴾

وبعد سؤال المسلمين ماذا ينفقون من أموالهم، يأتي سؤالهم عن اليتامى وكيفية معاشرتهم. وسؤالهم عن اليتامى يستدعي أن نذكر هذه المقدمة الوجيزة، وعلى ضوءها نفهم الآية التي وردت بشأنهم.

كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام ينتفعون بأموال اليتامى لمصالحهم الذاتية، واستمر بعضهم على ذلك بعد إسلامهم، فأنزل الله سبحانه قوله مُحذراً إياهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] فعند ذلك اعتزل الناس اليتامى فلم يخالطوهم في مأكَل ولا مشرب ولا مال خوفاً من تحذير الله لهم، فعند ذلك اختلت مصالح

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

اليتامى وساءت معيشتهم، فمن كان عنده يتيم يقوم برعايته عزل طعام اليتيم عن طعامه، وربما كان يزيد عن اليتيم طعام فيتركه له حتى يأكله أو يفسد فيرمي به، وهذا مما سبب الشدة والضيق للأوصياء على اليتامى، فسأل بعضهم رسول الله عن الطريق السليم في معاملتهم، فنزل قوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي يسألك بعض المسلمين يا محمد عن أمر اليتامى، قل لهم: إن المطلوب إصلاح نفوسهم بالتهذيب والتربية والعطف وإصلاح أموالهم بالتنمية من غير أن تؤكل أموالهم، فإصلاحهم خير من إهمال شأنهم وتركهم بدون رعاية والسهر عليهم فتفسد أخلاقهم وتضيع حقوقهم.

﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ وإن تخالطوهم في الطعام والشراب والمسكن فإنهم إخوانكم في الدين، والمخالطة تستدعي الإخلاص وحسن النية فيكون اليتيم في البيت كالأخ الصغير، وهذا يستدعي أن تراعوا مصلحته على أكمل وجه وتشعروه بأنه في بيت أهله وذويه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ والله يعلم ما تضمرة القلوب نحوهم من قصد الإصلاح لهم أو الإفساد، فعليكم - أيها المسلمون - أن تراقبوا الله في معاملتكم لليتامى، فإنه سبحانه سيجازي كلاً من المصلح والمفسد بما يستحقه من ثواب أو عقاب ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمُ الْعَنْتُ: المشقة، أي لو شاء الله لأوقعكم في المشقة وما يصعب احتماله بأن يكلفكم القيام بشؤون اليتامى وتربيتهم وحفظ أموالهم دون مخالطتهم ولا بأكل لقمة واحدة من طعامهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ إن الله هو القويّ الغالب لا يُعجزه أمر أراده، حكيم فيما يُشرّعه لكم من الأحكام التي فيها خيركم.



﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ .

### شرح المفردات

ولا تَنْكِحُوا المشركات: لا تتزوجوهن، والمشركات المراد بهن الوثنيات ومن لا دين لهن.  
ولأمة: الأمة هي المرأة المملوكة.  
ولا تُنكِحُوا المشركين: ولا تزوجوهم من المؤمنات، والمراد بالمشركين هنا الكافرون مطلقاً.  
يدعون إلى النار: يدعون من يتزوجهم ويعاشرهم إلى الأعمال التي تؤدي إلى عذاب النار.

### تحريم الزواج من المشركات

وبعد أن بينت الآية السابقة الدعوة إلى الاعتناء باليتامى وإصلاح أمورهم، انتقلت الآيات للدعوة إلى الاعتناء بالأسرة عن طريق اختيار الزوج أو الزوجة مبيناً في ذلك ما يحل وما يحرم مما فيه الخير للمؤمن، قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ﴾ أي لا تتزوجوا - أيها المؤمنون - المشركات الوثنيات حتى يُصَدِّقَنَّ بالله ورسوله وما أنزل عليه من ربه.

فالنكاح هو الزواج وأصله الوطاء أو الضم، ويطلق على العقد الذي يُحَلِّقُ العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، والمراد بالمشركات في الآية من يَعْبُدْنَ غير الله ومن ليس لهن دين، وقد حرمت الآية نكاحهن.

أما الكتابيات (اليهوديات والمسيحيات) فلا تدل الآية على منع الزواج

بهنّ، فإنهن لا يُعرفن بالمشركات في لسان الشريعة الإسلامية، وإنما يُعرفن بالكتابيّات، وقد أٌبِح الزواج منهنّ صراحةً في قوله تعالى :

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة : ٥].

تأمل كيف أباح الله الزواج من الكتابيّات، ولكنه اشترط أن يَكُنَّ مُحْصَنَات، والمحصنات هن العفيفات.

وقد قال بتحليل نكاح نساء أهل الكتاب جماعة من الصحابة : عثمان، وطلحة، وابن عباس، وجابر، وحذيفة، ومن التابعين : سعيد بن المسيّب، وسعيد بن جبیر، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، والشَّعْبِيُّ وغيرهم، كما ذهب إلى ذلك فقهاء الأمصار، وعلى هذا يمتنع أن تكون الآية ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ من سورة البقرة ناسخة للآية التي في سورة المائدة التي أحلت الزواج من الكتابيّات كما يدَّعي البعض، لأن سورة البقرة أول ما نزل بالمدينة المنورة وسورة المائدة هي آخر ما نزل، وإنما الآخر ينسخ الأول وليس العكس.

وبهذا الحُكْم أخذ جمهور العلماء والصحابة بتحليل الزواج من اليهودية أو النصرانية، وقد رُوي أن عثمان تزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية وهي نصرانية على نسائه، وطلحة بن عبيد الله تزوج يهودية من أهل الشام.

وعلى هذا فزواج المسلم بالكتابية جائز، لأن القرآن صريح في إباحة ذلك، ولكن هذا الجواز لا يمنع كراهيته كما ذهب إلى ذلك الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل، فقد كَرِهَها ذلك مع وجود المسلمات والقدرة على نكاحهن، وهم على صواب في ذلك لأن زواج المسلم بكتابية قد يُؤثِّرُ قَطْعاً في دين الأطفال التي تنجبهم وقرضهم من لبنها وتوجههم نحو معتقدها، فينشأ

الأولاد وبهم ميل إلى دين أمهم، وبالأخص إن كان آباؤهم المسلمون ليس لهم من قوة الإيمان وصلابة النفس ما كان للسلف الصالح من المسلمين الأولين، وليس لهم الحرص على تنشئة أولادهم على دين الإسلام، وهذا مما يجعل أولادهم يتبعون أمهم في دينها.

﴿وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ الأُمَّةُ: الأنثى من الرقيق، أي إن زواج المؤمن من أمة مؤمنة خيرٌ من زواجه من مُشركة ولو أعجبه حُسنها أو مالها أو نسبها أو جاهها. والسبب في ذلك أن الزواج يقوم على المودة والرحمة والإخلاص، فالأمة المؤمنة تتوفر فيها هذه الصفات التي هي ثمرة الإيمان بالله وتعاليم الإسلام، أما المُشركة التي تثير الإعجاب بجمالها، فهي مزهوة بجمالها، لا عاصم لها من دين يعصمها عن الغواية، ولا مانع من خُلُق يمنعها من الخيانة، وكيف يلتقي قلبان على تناقض: قلب يعبد الله وحده، وقلب يعبد الأوثان؟ هذا مع العلم أن الزواج هو علاقة دائمة تقوم على التوافق بين الميول والمعتقدات.

### تحريم زواج المسلمة من مشرك وكافر

وإذا كان زواج المؤمن بالمشركة حرام فتزويج المؤمنة بالمشرك حرام أيضاً، قال تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ تنكحوا: بضم التاء تزويج الإنسان غيره، والمعنى: ولا تزوجوا أيها المؤمنون النساء المؤمنات بالرجال المشركين حتى يتركوا ما هم عليه من الشرك بالله ويدخلوا في دين الإسلام، والعبد المؤمن مع ما عليه من رِقٍّ خير من مشرك ولو أعجبكم بِحَسَبِهِ وَنَسَبِهِ وَغِنَاهُ وَجَمَالِهِ. تأمل كيف فضّل الله العبد المؤمن على الرجل الحُرّ المشرك، لأن المؤمن له من خشية الله ما

يردعه عن الآثام والظلم، وله من تعاليم الإسلام ما يوفر لزوجته السلامة والطمأنينة والسعادة، بينما المشرك يغترّ بماله وحسبه ونسبه، وهذا مما يطغيه ويجعله سيء معاملة زوجته لأنه ليس له دين يردعه.

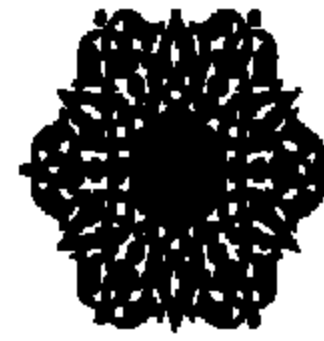
والنهي هنا يتناول المشرك الذي يعبد الأوثان ويتناول غيره ممن لا يدين بالإسلام كأهل الكتاب، لأن القرآن جعل عدم الإيمان غاية للنهي، فإذا لم يكن هناك إيمان من الرجل بوحدانية الله وبنبوة محمد لم يكن له أن يتزوج من المرأة المؤمنة. والدليل على ذلك أيضاً ما جاء في القرآن: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُنَّ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠] فهذه الآية صريحة في أن زواج المسلمة بالكافر لا يجوز، وكلمة كافر تشمل الكتابي والمشرِك كما قال الله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]، كما قد جاء في القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وعلى هذا أجمع الصحابة والتابعون ومن جاء بعدهم من العلماء على تحريم زواج المرأة المسلمة من رجل لا يدين بدين الإسلام.

هذا وقد استنبط العلماء من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ أنه لا يجوز عقد النكاح إلا بولي، لأن النهي عن تزويجهن إلى المشركين إنما وُجِّهَ إلى أوليائهن، وبذلك جاء في الحديث الشريف: «لا نكاح إلا بولي»<sup>(١)</sup> ويقوي ذلك ما جاء في القرآن أيضاً ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٥] أمّا الإمام أبو حنيفة فيقول: إذا زوّجت المرأة نفسها برجل كفء

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه.

بشاهدين فذلك نكاح جائز بناء لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ﴾  
[البقرة: ٢٣٢].

ثم يُبين الله الحكمة من منع الزواج من المشركات أو المشركين بقوله:  
﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي هؤلاء المشركون بما لهم من اتصال  
ومعاشرة مع زوجاتهم قد يدعونهم إلى الأقوال والأفعال والعقائد التي تفضي  
بهم إلى دخول النار في الآخرة. والسبب في ذلك أن رابطة الزواج هي رابطة  
اتصال ومعاشرة بين الزوجين، والحرص على إرضاء أحدهما للآخر، وسلطة  
الرجل على المرأة أقوى من سلطتها عليه، لذا نهى القرآن عن وقوع الرابطة  
الزوجية مع المشركين لما لهم من تأثير على زوجاتهم، والافتداء بهم في  
عقائدهم الباطلة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أي إن الله يدعو  
المؤمنين إلى الإيمان الحق والعمل الصالح الموصل إلى الجنة بأمره وهدايته  
وتوفيقه ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ويوضح الله حججه وأدلته  
في كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ليتذكروا ويعتبروا بما فيه من الإرشادات  
القيّمة.



﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ  
وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ  
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا  
حَرْثَكُمْ أَنْ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ  
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

### شرح المفردات

المحيض: دم العادة الشهرية للمرأة.

أذى: أي يؤذي ويجلب الضرر.

فاعتزلوا النساء في المحيض: أي امتنعوا عن الاتصال الجنسي بنسائكم زمن الحيض.

ولا تقربوهن حتى يطهرن: ولا تجامعوهن حتى ينقطع الحيض ويغتسلن.

نساؤكم حرث لكم: نساؤكم موضع زرع لكم تلقون نطفكم في أرحامهن، والحرث: الزرع.

### الضرر من مضاجعة الزوجة الحائض

وتتوالى الأسئلة على رسول الله فيأتي السؤال عن الحيض، وقد روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت، ولم يؤاكلوها ولم يُشاربوها ولم يجامعوها في البيوت (أي لم يكونوا معها في البيت)، فسئل رسول الله عن ذلك فأنزل الله قوله:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي

الْمَحِيضِ...﴾ الآية... والمحيض مشتق من الحيض، والحيض هو ما يقذفه

رحم المرأة من دم في حال فراغه من الحمل، والسؤال عن المحيض هو سؤال

عن حكم العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة عند وجوده، ويأتي الجواب بأن

المحيض ﴿هُوَ أَذَى﴾ وهذه الكلمة من معجزات القرآن التي تلخص أضرار الحيض .

**الأذى النفسي للمرأة:** فالمرأة في زمن الحيض لا تكون في حال تستسيغ معها العلاقة الجنسية ، لأنها تُعاني عادةً انحرافاً في مزاجها وتشعر بتعب عام ، وتظهر حدة في طبعها ، ويكون جهازها التناسلي في حال اضطراب فتتألم من المضاجعة . وكثير من حالات العجز الجنسي والبرودة الجنسية عند الرجال والنساء هو بسبب الجماع في المحيض ، وهناك فوق ذلك قذارة الدم ورداءة الموضع ، كما أن النسل وتلقيح بويضة الأنثى لا يحصل في تلك الحالة .

**الأذى الصحي للمرأة والرجل:** الاتصال الجنسي في غير أيام الحيض يكون سليماً ، إذ إن المواد المطهرة والإفراز الحامض للمهبل عند المرأة تقتل الميكروبات ، أما في أوقات الحيض فيكون المهبل ميداناً مفتوحاً لغزو أسراب من مختلف الميكروبات ، وقد ثبت أن الاتصال الجنسي في زمن الحيض هو العامل الأكبر في وصول هذه الميكروبات إلى المهبل مما يؤدي إلى التهابه ، ويسبب آلاماً شديدة عند المرأة ، وقد يؤدي هذا الالتهاب إلى العقم .

وقد تمتد العدوى إلى الرجل بما يحمل الدم من ميكروبات عن طريق قنواته البولية فتحدث عنده التهابات مختلفة في أعضائه التناسلية ، بل قد تصيب المثانة والبروستاتا والخصيتين بأشد الآلام ويصاب بالضعف الجنسي<sup>(١)</sup> .

أمام هذه الأضرار كلها الناشئة عن الاتصال الجنسي أثناء الحيض يأمر الله الأزواج بقوله ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ والمراد بالاعتزال الامتناع عن العلاقة الجنسية عندما تكون المرأة في الحيض ، وقد رُوي عن النبي ﷺ قوله

(١) نقلاً باختصار عن كتاب (القرآن والطب) للدكتور محمد وصفي - دار ابن حزم .



في تلك الحالة: «اصنعوا كل شيء إلا الجماع»<sup>(١)</sup>، وعن ميمونة قالت: «كان رسول الله يُباشِر»<sup>(٢)</sup> نساءه فوق الإزار وهن حِيضٌ»<sup>(٣)</sup>. وسئل ابن عباس: ما للرجل من امرأته إذا كانت حائضاً؟ قال: ما فوق الإزار. وقال جمهور من الفقهاء: إن الذي أمر الله باعتزاله منهن في حال حيضهن ما بين السرة والركبة.

﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ والقرب المنهي عنه هو كناية عن الامتناع عن الاتصال الجنسي، وهي من الكنايات القرآنية التي تربّي الذوق السليم وتمنعه من التلفظ بالألفاظ النابية التي يجافي سمعها الذوق السليم. فالآية تمنع من مجامعة الحائض حتى تطهر، وطهرها يكون بانقطاع حيضها واغتسالها، وإلى هذا ذهب جمهور الفقهاء.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي فإذا تطهرت النساء بانقطاع دم الحيض والاستحمام منه، فلكم أن تجامعوهن من المكان الذي أَمَرَكُمُ اللَّهُ، وكلمة ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ ليس المراد بها أمر إلزامي بل المراد بها الإباحة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ إن الله يحب التوابين من الذنوب المبالغين في التوبة، النادمين على ما فعلوا ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ويحب المتنزهين عن الفواحش والأقذار. رُوي عن النبي ﷺ قوله: «من أتى حائضاً (أي جامعها) فقد كفر بما أنزل على محمد»<sup>(٤)</sup> وهذا من باب الترهيب لا من حيث الخروج عن الإسلام، أي إنه فَعَلَ ما يفعله الكافرون.

(١) أخرجه مسلم.

(٢) يباشِر: المراد بالمباشرة الاستمتاع بما دون الفرج كالتقبيل والمعانقة والملاسة.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) أخرجه أحمد والترمذي.

## أحكام الحيض

الحيض هو بروز الدم من رحم الأنثى إلى الفرج من غير داء لها وألاً يكون بسبب الولادة، فالخارج بسبب الولادة يسمّى دم نفاس.

وقد اتفق الفقهاء على أن الدم الخارج من رحم الأنثى لا يعتبر حَيْضاً إلاّ ببلوغها تسع سنوات قمرية، وما كان من دم دون التسع سنوات فغير معدود به.

ويُعرف دم الحيض بلونه الأسود (أحمر مائل إلى السواد) وله رائحة خاصة، وقد يكون باللون الأحمر المشرق، وقد يكون دم الحيض باللون الأصفر<sup>(١)</sup> واللون الأكدر<sup>(٢)</sup>.

واللون الأصفر واللون الأكدر هما شيئان كالصديد، ويبنى عليهما الأحكام الآتية:

١ - لا يثبت ابتداء العادة الشهرية لدى الأنثى برؤية الأصفر والأكدر بل بلون الدم الأسود أو الأحمر المشرق.

٢ - الأصفر والأكدر في وقت الحيض، هما حيض.

٣ - رؤية الأصفر والأكدر بعد الطهر، هما طهر.

وعلاوة الطهر من الحيض هي رؤية ماء لزج أبيض يعقب انتهاء الحيض، كما أن الحائض تتعرف على طهرها بإدخال خرقة مكان خروج الدم، فإذا رأت عليها أثراً كالخيط الأبيض فهي العلامة الطبيعية على طهارة الرحم، فإن لم ترَ ذلك تكتفي برؤية الأثر الجاف على القطن.

(١) اللون الأصفر: هو كصفرة القزّ والتبن.

(٢) اللون الأكدر: هو كلون الماء الكدر.

**فترة الحيض:** ذهب الحنفية إلى أن أقلّ مدة الحيض ثلاثة أيام بلياليها، وأكثرها عشرة أيام بلياليها.

وذهب المالكية إلى أنه لا حد لأقلّه من الزمان، وأكثره خمسة عشر يوماً. وذهب الشافعية والحنابلة إلى أن أقلّ الحيض يوم وليلة، وأكثره خمسة عشر يوماً بلياليها، كما نصّ الشافعية والحنابلة إلى أن غالب الحيض ستة أيام أو سبعة.

ولا بد من التنبيه إلى أن ما ذكره الأئمة عن أقلّ الحيض وأكثره يكون في حق المرأة المبتدئة بالحيض، أما التي اعتادت أن يكون حيضها عدداً محدداً من الأيام: خمسة أيام أو ستة أو سبعة مثلاً، كما هي العادة عند معظم النساء، فهذه تكون عاداتها ملزمة لها، والعادة الشهرية تثبت بمرة واحدة في المبتدئة، وبمرتين فأكثر في غيرها.

فمثلاً المرأة التي عاداتها أن ترى الدم ستة أيام من كل شهر إذا استمرت في رؤية الدم أكثر من ستة أيام نقول لها: إن الأيام الستة فقط هي حيض، وما زاد عن الستة أيام يطلق عليه دم استحاضة، لذا يصحّ لها أن تغتسل بعد انقضاء اليوم السادس وتصوم وتصلي، وحكم الاستحاضة أنها لا تمنع الأمور التي يمنعها الحيض، والمرأة المستحاضة تتوضأ لوقت كل صلاة وتصلي به ما تشاء حتى يخرج الوقت.

أما إذا انقطع دم المعتادة دون عاداتها ورأت الماء اللزج الأبيض فإنها تطهر بذلك ولا تتم عاداتها.

ومما ينبغي معرفته أنه لا يُشترط في الحيض - العادة الشهرية - استيعاب مدته كلها لنزف الدم، فالعبرة في الحكم لأول الدم وآخره، وإن ما بين الدّمين

من نقاء يعتبر حيضاً شرط عدم بلوغ النقاء خمسة عشر يوماً.

ما تمتنع عنه الحائض: اتفق الفقهاء على عدم صحة الصلاة من الحائض، وأنه لا قضاء عليها ما فات من الصلاة في أيام حيضها. كما أنه يحرم عليها الصيام وأن عليها قضاء الأيام التي أفطرت فيها، ومتى انقطع دم الحيض وجب عليها الصوم. والحيض لا يمنع شيئاً من أعمال الحج إلا الطواف حول الكعبة.

وذهب جمهور الفقهاء إلى حرمة قراءة الحائض للقرآن ومسّ المصحف وحمله، واستثنى المالكية من ذلك المَعْلَمَة والمُتَعَلَّمَة، فإنه يجوز لهما قراءة القرآن ومسّ المصحف<sup>(١)</sup>. كما اتفق الفقهاء على حرمة اللبث في المسجد للحائض إن خافت تلويثه، وجواز عبورها دون لبث فيه للضرورة والعذر.

طهارة الحائض: لا خلاف بين الفقهاء في طهارة جسد الحائض وعرقها، وجواز أكل طبخها وعجنها، وما مسّته من المائعات والأكل معها.

أما وطء الحائض فهو إثم كبير من العامد العالم بالتحريم، ومن يفعل ذلك فعليه كفارة، فقد أوجب الحنابلة نصف دينار ذهباً<sup>(٢)</sup> لمن يفعل ذلك.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ الحرث في الأصل: إلقاء البذر في الأرض، أو هو الزرع، والمُرَاد: أنهن مزرع لكم وَمَنْبِثٌ للولد أعدهنَّ الله لذلك، فالآية تُشَبِّهُ الزوجة بالحرث، ووجه الشبه بينها وبين الزرع أن كليهما وسيلة لمدّ الوجود الإنساني بالحياة، فالزوجة تمدّ النوع الإنساني بعنصر تكوينه وإنشائه في رحمها، والأرض تمدّه بالزرع الذي يتغذى منه ويكون به استمرار حياته.

(١) نقلاً عن (الموسوعة الفقهية) الصادرة عن وزارة الأوقاف - الكويت: مادة (حيض) ومادة (مصحف).

(٢) أي ما يوازي ٢,١٣ غراماً ذهباً.

﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتَى شَيْئْتُمْ﴾ أنى معناها: كيف، أي باشروا نساءكم في موضع الحرث على أي شكل كانت المضاجعة من خلف أو من أمام، مستلقية أو مضطجعة، قائمة أو قاعدة على أن يكون ذلك في فرج المرأة.

أما من فسّر قوله تعالى ﴿أَنْتَى شَيْئْتُمْ﴾ في أي مكان شئتم في قُبُل المرأة أو دُبُرِهَا، فالآية لا تُفيده لأن الله سبحانه يقول: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ والمعنى المراد أن يكون الجماع في موضع النسل، ومعاذ الله أن يتبادر إلى الذهن المعنى الآخر. ولأن الله يقول أيضاً ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ ولا يُتصور الحرث إلا في موضع النسل وإنجاب الذرية، وهل في الدُّبُر من حَرْث؟ ومما يؤيد ذلك أن الله حرّم إتيان النساء في المحيض لاستقذاره وما ينشأ عنه من أذى، فكيف يُباح إتيانهن في الأدبار وهي أشدّ قذاراً من مكان المحيض وأشدّ ضرراً في ذلك؟

وقد وردت الأحاديث الشريفة في النهي عن ذلك فقد روي عن النبي ﷺ قوله: «مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا»<sup>(١)</sup>.

ويقول أيضاً: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ أَتَى رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً فِي الدُّبُرِ»<sup>(٢)</sup>.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَقَدّْمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ هذه الجملة يندرج في مضمونها كل خير، أي قَدّْمُوا لأنفسكم كل عمل صالح يقربكم إلى الله تعالى.  
أو قَدّْمُوا لأنفسكم في أمر الزواج بأن تختاروا ذات الخلق والدين والعفاف حتى تكون لكم عيشة هنيئة في حياتكم الزوجية.

(١) أخرجه أبو داود والنسائي.

(٢) أخرجه الترمذي وابن حبان.

أَوْ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ بِأَنْ تُحَسِّنُوا تَرْبِيَةَ أَوْلَادِكُمْ، فَيَنْشَأُوا عَلَى الصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى وَلِيَكُونُوا بَارِّينَ بِكُمْ عِنْدَ هَرَمِكُمْ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وَتَقْوَى اللَّهِ هِيَ خَشْيَتُهُ وَاتَّقَاءُ غَضَبِهِ وَذَلِكَ بِطَاعَتِهِ وَتَرْكُ مَا نَهَى عَنْهُ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ وَالْإِيمَانُ بِلِقَاءِ اللَّهِ هُوَ الَّذِي يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ اقْتِرَافِ الْمُنْكَرَاتِ وَالظُّلْمِ يَقِيناً مِنْهُ بِأَنَّ اللَّهَ سَيَحَاسِبُهُ عَلَى مَا اقْتَرَفَتْ يَدَاهُ، وَسَيَجْزِيهِ عَلَى الْإِحْسَانِ إِحْسَاناً وَعَلَى السُّوءِ سُوءاً ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَبَشْرِيَا مُحَمَّدٍ الْمُؤْمِنِينَ بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ عَلَى مَا تُقَدِّمُهُ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.



﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧).

### شرح المفردات

عُرْضَةً: معترضاً وحاجزاً.

لأَيْمَانِكُمْ: الأيمان، جمع يمين وهو الحلف والقسم.

أَنْ تَبَرُّوا: أَنْ تَفْعَلُوا الْبِرَّ، وَالْبِرُّ هُوَ التَّوَسُّعُ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ.

اللَّغْوُ: مَا لَا يُعْتَدُّ بِهِ مِنَ الْكَلَامِ.

يُؤْلُونَ: يَقْسِمُونَ، وَالْإِيلَاءُ شَرْعاً أَنْ يَحْلِفَ الرَّجُلُ أَنْ لَا يَضَاجِعَ امْرَأَتَهُ.

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ: وَإِنْ صَمَّمُوا عَلَى الطَّلَاقِ لِيُوقِعُوهُ.

تَرَبُّصُ: انتظار.

فاءوا: رجعوا.

## النهي عن جعل الحلف بالله مانعاً للخير

وبعد أن ذكر الله فيما سبق الدعوة إلى الإنفاق في وجوه الخير وصحبة اليتامى ورعاية شؤونهم، أمر الله المؤمنين في الآية التالية بأن لا يمتنعوا عن هذه الفضائل وغيرها تَعَلُّلاً منهم بأنهم حلفوا بالله أن يمتنعوا عنها، قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾  
 عُرضة: حائزاً ومعتزلاً، واليمين<sup>(١)</sup>: بمعنى القسم. والمعنى: لا تجعلوا الله - لأجل حلفكم به - حائزاً دون فعل ما حلفتُم على تركه من البرِّ والتقوى والإصلاح بين الناس.

والآية بيّنت ثلاثة أنواع من الخير قد يقسم الناس بالله على تركها إما بوازع الغضب أو عند تلقّي الإساءة من الغير. أولها: البرُّ، وهو التوسع في فعل الخير. والثاني: التقوى، وهي اتقاء الله والحذر من عقابه بطاعته والقيام بفرائضه. والثالث: الإصلاح بين الناس بإزالة ما بينهم من عداوة وخصومة.

وقد رُوِيَ في أسباب نزول الآية أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حلف أن لا يعطي ذا قرابة له صدقة وهو (مسطح) عندما خاض بالبهتان في شأن ابنته عائشة.

وجلّ ما تدعو إليه الآية، أن المسلم إذا حلف على ترك فعل الخير فليفعله، وليكفر عن يمينه، ولا يجعل اليمين مانعاً من إتيانه، وقد جاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا

(١) اليمين: بمعنى القسم، وأصل ذلك أن العرب كانوا إذا وثقوا عهدهم بالقسم وضع كل واحد من المتعاهدين يمينه في يمين صاحبه، ولهذا أطلق على القسم كلمة اليمين.



فليأت الذي هو خيرٌ، وليكفر<sup>(١)</sup> عن يمينه<sup>(٢)</sup>.

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لما يقوله الحالف منكم بالله إذا حلف، وهو عليم بنياتكم والدوافع التي دعتكم إلى القسم، فحافظوا على فعل الخير والإصلاح بين الناس.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو: هو الساقط من الكلام، وما لا يُعتدُّ به، ولا يصدر عن فكر وَرَوِيَّة. ويمين اللغو التي لا قصد فيها إلى الحلف، وهي التي تجري على اللسان دون قصد ولا نية، ومعنى نفي المؤاخذه في يمين اللغو: أنه لا إثم فيها ولا يجب عليها كفارة.

ومن أمثلة يمين اللغو ما رُوي عن عائشة: قول الحالف «لا والله» و«بلى والله».

ورُوي عن مالك قوله: «لَعْنُ الْيَمِينِ أَنْ يَحْلِفَ عَلَى شَيْءٍ يَظُنُّهُ كَذَلِكَ ثُمَّ يَتَّبِعُ خِلَافَ ظَنِّهِ».

وعن ابن عباس قوله: «اللغو أن يحلف الرجل على الشيء يراه حقاً، وليس بحق».

كما رُوي عن ابن عباس قوله: «لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان». قد يُراد بالغضب ما يُخرج الإنسان عن اتزان.

ومما قيل عن لغو اليمين: هو أن يحلف الرجل على المعصية فلا يؤاخذه الله بإلغائها، وكفارتها أن يتوب منها.

(١) كفارة اليمين عند عدم الوفاء به هي: إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة من الرق، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

(٢) أخرجه مسلم.

ومن أمثلة لغو اليمين: أن يتساوم الرَّجُلان في البيع والشراء فيقول أحدهما: «وَاللَّهِ لَا أَشْتَرِيهِ مِنْكَ بِكَذَا» ويقول الآخر: «وَاللَّهِ لَا أْبِيعُكَ بِكَذَا وَكَذَا» ﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي إنه سبحانه لا يعاقبكم على أيمان اللغو غير المقصودة، ولكن يعاقب من أقسم كاذباً ليخدع الناس ويستولي على أموالهم بالباطل.

وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ»<sup>(١)</sup> فقد أوجب الله له النار، فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال وإن كان قضيباً من أراك<sup>(٢)</sup>.

ويختتم الله الآية بقوله ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ غفور: من صيغ المبالغة أي أنه سبحانه واسع المغفرة، حلیم لا يُعَاجِل بالعقوبة من يعصيه.

### من فروع القَسَم: الإيلاء

ثم تأتي الآية التالية متممة لأحكام القَسَم ومن فُروعه: الإيلاء، وهو أن يُقَسِّمَ الرجل على هجران امرأته جُنْسِيًّا. والإيلاء لغة: الحَلِفُ، وشرعاً هو أن يقول الرجل لزوجته حَالِفًا: والله لا أقربك (أي لا أجامعك) أربعة أشهر أو أكثر من أربعة أشهر، أو يقول: وَاللَّهِ لَنْ أَقْرَبَكَ أَبَدًا.

وقد كان الرجل عند العرب في الجاهلية - أي قبل الإسلام - لا يحب امرأته ولا يحب أن يتزوجها غيره، فكان يحلف أن لا يطأها السنة والسنتين وأكثر من ذلك للإضرار بها، ومن أشد الإضرار بالحياة الزوجية هجر المرأة في المبيت والامتناع عن مضاجعتها، لأنه يدل على البغض الشديد لها من زوجها،

(١) يمينه: أي بِقَسَمِهِ.

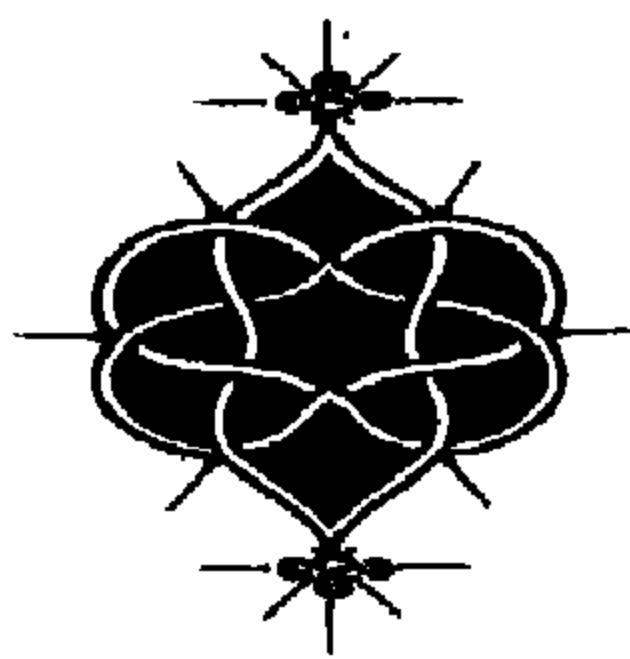
(٢) أخرجه مسلم.

وعلى الطعن في أنوثتها، وهذا ما يسبب لها آلاماً نفسية يصعب تحملها، كما أنها تصبح كالمعلقة: لا هي متزوجة ولا هي مطلقة.

ثم جاء الإسلام وبعض المؤمنين يفعلون ذلك استمراراً لما كانوا يفعلونه قبل الإسلام، فأزال هذا الظلم عن المرأة وأمهل الزوج مدةً من الزمن حتى يَتَرَوَّى ويُراجع نفسه عن الظلم، وتعود المودة بين الرجل والمرأة إلى سابق عهدها، وهذه المدة بينها الله بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ والتربُّص: الانتظار، أي فمن حلف أن لا يطأ امرأته مطلقاً أو زيادة على أربعة أشهر يُمَهِّلُونَ أربعة أشهر ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ والفِيءُ: هو الرجوع، وفسروه هنا بالجماع، أي إن رجعوا إلى ما كانوا عليه من المعاشرة الزوجية بوطء نسائهم إن قدروا عليه، أو بالقول إن عجزوا عنه جنسياً بعد مضي أربعة أشهر مخالفين بذلك ما حلفوا عليه، فيكونون بذلك قد حنثوا في أيمانهم ويلزمهم كفارة اليمين ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إن الله سبحانه يغفر لهم ما فرط منهم نحو زوجاتهم، وهو رحيم بهم بإسقاط العقوبة عنهم.

فالرجل الذي يحلف بالله أن لا يجامع زوجته مدة من الزمن، فإذا كانت المدة أربعة أشهر أو أقل ثم يرجع إلى معاشرتها جنسياً قبل مضي تلك المدة يكون قد حنث في قَسَمِهِ، وعليه كفارة اليمين. وهذا ليس من الإيلاء في نظر الأئمة: مالك، والشافعي وأحمد، وهي عندهم يمين محض. أما إذا زادت المدة على أربعة أشهر ولم يُراجع الزوج زوجته ولم يطأها، فللزوجة الحق بمطالبة زوجها بأن يفِيء: أي يرجع إلى معاشرتها واستئناف حياته الزوجية معها وعليه كفارة اليمين، وفي حال رفضه يحق لها طلب الطلاق، ويُجبره القاضي على ذلك، وتكون الطلقة رجعية أي يحق للزوج مراجعة زوجته بدون عقد ومهرٍ جديدين ضمن العدة.

وأما الإمام أبو حنيفة فيرى أن الطلاق يقع بانتهاء الأربعة أشهر، والرجوع إلى الزوجة إنما وقته دون الأربعة أشهر وعليه كفارة اليمين، فلا زيادة على تلك المدة، ويقع الطلاق طلاقاً بائناً بعد مضي أربعة أشهر. والطلاق البائن هو أنه لا يجوز للرجل الرجوع إلى زوجته إلا بعقد ومهر جديدين وبعد موافقة الزوجة. وقد يكون هجران الزوجة من الوسائل لتأديبها: كما إذا أهملت شؤون بيتها أو أساءت معاملة زوجها أو غير ذلك من الأمور التي تستدعي هجرها، علّها تعود إلى رشدّها ويستقيم حالها، فيحتاج الرجل في مثل هذه الحالات إلى الإيلاء يقوّي به عزمه على ترك قربان زوجته تأديباً لها أو رغبة في إصلاحها، ولكن هذه المدة حدّدها الشرع الإسلامي بأربعة أشهر، فإمّا الرجوع إلى معاشرة زوجته وإما أن يطلقها كما جاء في تنمة الآية ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وإن عزم هؤلاء الحالِفون بهجر نساءهم على الطلاق بعد مضي الأربعة أشهر، فإن الله سميع لقولهم وما حلفوا عليه، عليم بنيّاتهم فليراقبوه فيما يفعلون، لأنهم إن كانوا يريدون إيذاء نساءهم فإن الله لا تخفى عليه خافية، فليتيق الله من يُبيّت الأذى لزوجته لأن الله سيتولى عقابه.



﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعُولَتِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٨)

### شرح المفردات

يَتَرَبَّصْنَ: ينتظرن.  
قُرُوء: جمع قُرء وهو الحيض أو الطهر منه.  
بعولتهن: البعولة، جمع بعل وهو الزوج.  
أحق بردهن: أي هم أصحاب الحق بمراجعة زوجاتهم في العدة عند الطلقة الأولى والثانية.  
بالمعروف: هو كل فعل يُعرف حُسْنُهُ بالعقل والشرع.

### من أحكام الطلاق

وبعد أن بيّن القرآن أن من الرجال من يعزم على الطلاق، ناسب أن يذكر أحكام الطلاق وما يترتب على الزوج من واجبات وحقوق نحو امرأته في حال أن طلقها، قال الله تعالى:

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ والمراد بالمطلقة هنا: المرأة الحُرّة خلاف الأمّة، والتي تكون من ذوات الحيض، أي التي يأتيها الحيض والتي سبق لزوجها أن دخل بها - أي جامعها - فخرج بذلك المرأة الآيسة التي لا تحيض لكبر سنّها أو التي لم تر الحيض بعد لصغر سنّها، أو المرأة التي لم يدخل بها زوجها، أو المرأة الحامل، وكل هؤلاء لهن أحكام خاصة بهن نصّ عليها القرآن.

ومعنى ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: ينتظرن مرور ثلاثة قُرُوء، وزيدت كلمة ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾

إشعاراً لهنّ بالانتظار وصيانة لأنفسهن من الابتذال والاحتفاظ بكرامتهن حتى لا يترمين على أي رجل يتقدم إليهن بعد الطلاق. و﴿قُرُوء﴾ جمع قُرء، وقد اختلف الفقهاء وعلماء اللغة في تحديد معناه:

فالإمام أبو حنيفة والإمام أحمد بن حنبل قالا: المراد بالقُرء في الآية مدّة الحيضة التي تأتي كل شهر، أما الإمام مالك والإمام الشافعي فقالا: إنّ المراد بالقُرء مدة الطهر بين حيضتين.

ولنرجع إلى كيفية التربّص، فإذا كان تفسير القرء بمعنى الحيض يكون الحكم كما يأتي: إذا طلق الرجل امرأته في طهر لم يجامعها فيه، استقبلت المطلقة حيضة، ثم حيضة ثانية، ثم حيضة ثالثة، فإذا اغتسلت من الثالثة خرجت من العدة وطلّقت من زوجها طليقة بائنة<sup>(١)</sup>.

أما إذا فسّرنا القرء بمعنى الطهر، فيكون الحكم كما يأتي: إذا طلق الرجل امرأته في طهر لم يجامعها فيه استقبلت بعده طهراً ثانياً بعد حيضة، ثم طهراً ثالثاً بعد حيضة ثانية، فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة خرجت من العدة ومن عصمة زوجها الذي طلقها، ولا يجوز له مراجعتها إلاّ بعقدٍ ومهرٍ جديدين.

والمدة التي تتربص فيها المطلقة أثناءها ثلاثة قُروء تسمى (العدة) التي لا يجوز للمطلقة في أثناءها أن تتزوج من أحدٍ، كما أن الغاية من هذه الفترة براءة رحمها من الولد إن كانت حاملاً من زوجها الذي طلقها.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي ولا يحلّ لهؤلاء المطلقات أن يكتمن ما يكون في أرحامهن من جنين أو دم حيض، وذلك لأن أمر العدة يدور على الحيض والحمل، لذا جُعِلَ القول قولهن في

(١) الطليقة البائنة: هي التي لا يحق للزوج مراجعة زوجته إلاّ بعقد ومهر جديدين.

انقضاء العدة، والمراد بالنهي عن الكتمان: النهي عن الإضرار بالزوج. فإذا قالت المطلقة: حُضْتُ وهي لم تحض، فمعنى ذلك أنها حامل بولد تريد أن تنسبه إلى غير أبيه، وقد كان بعض نساء العرب قبل الإسلام يكتمن الحمل ليلحقن الولد بالزوج الجديد، فنزلت الآية مُحَذِّرةً من ذلك. وإذا قالت المطلقة: لم أحض وهي قد حاضت، فمعنى ذلك أنها تدعي الحمل وتريد إلزام زوجها بالنفقة فتكون قد أضرت به.

﴿إِنْ كُنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هنا وعيدٌ شديدٌ للمطلقات لتأكيد تحريم كتمان ما في أرحامهن، وبيان أن من كتمت منهن لم تستحق اسم الإيمان بالله لأن سبيل المؤمنات أن لا يكتمن الحق، وفوق ذلك تهديد ووعد لهن بالمحاسبة يوم القيامة وما يكون فيه من عذاب شديد لمن يعصي الله.

﴿وَيُعَوِّلُهَا أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ والبعولة: جمع بعل وهو الزوج، أي أن المرأة في مدة انتظار حصول ثلاثة قروء لها ليثبت طلاقها تظل في كنف زوجها، وله الحق في أن يُراجعها قبل انتهاء عدتها إلى عصمته بعد أن تكون مسببات الخلاف بينهما قد زالت، وبعد أن يكون الزوج قد شعر بالندم على طلاقها، وظهرت له الأضرار المترتبة عليه، وما يلي ذلك من عواقب وخيمة على أسرته، وقد يتدخل الأهل والأصدقاء لإصلاح ما بين الزوجين من سوء تفاهم، كل هذه العوامل قد تساعد إلى إعادة الحياة الزوجية إلى عهدتها السابق. لذا جعل الله الحق للزوج أن يُعيد زوجته إلى كنفه ويلغي الطلاق إما بالقول كأن يقول لزوجته: أَرْجَعُكَ إلى ذمتي، أو تكون المراجعة بالفعل بإقامة العلاقة الجنسية معها، وبذلك يبطل الطلاق ويحسب عليه بذلك طلاقاً واحداً، والرجعة إلى الحياة الزوجية أثناء العدة تعود إلى الزوج وحده وليس فيها عقد ومهر جديدان.

ثم أتبع القرآن هذا الحكم قوله : ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي إن الرجل لا يسوغ له أن يفكر في الرجعة إلى الحياة الزوجية إلا إذا حاول إصلاح حاله وحملها على الاستقامة والعمل لخير الأسرة، ومعاملة زوجته بالرفق واللين والمعاملة الحسنة، والسبب في ذلك أن العرب في الجاهلية قبل الإسلام كانوا يُراجعون المطلقة ويريدون بذلك الإضرار بها، وذلك بأن يُراجعوها قبل أن تنتهي عدتها ثم يُطلقونها بعد ذلك لتستأنف العدة من جديد وهلم جرا.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي للنساء على أزواجهن من الحقوق وحسن المعاشرة مثل الذي عليهن للأزواج من الواجبات. وقوله سبحانه : ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي ما يُستحسن من الأفعال وحسن الصحبة ولين الكلام وغير ذلك من الأخلاق الكريمة.

فالنص القرآني يُعطي للرجل ميزاناً يزن به معاملته لزوجته في جميع الشؤون والأحوال، فإذا هم بمطالبتها بأمر من الأمور عليه أن يتذكر أنه يجب عليه مثله بإزائها، وليس المراد بالمثل في كل الأمور، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة، فما من عمل تعمله المرأة للرجل بما هو من اختصاصها إلا وللرجل عمل يقابله لها بما هو من اختصاصه، فليس من العدل أن يتحكم أحد الزوجين بالآخر ويستذله ولا سيما بعد الرباط بين الزوجين الذي لا يقوم إلا على الحب والرحمة والاحترام المتبادل بينهما.

ثم إن الآية التي مرت معنا والتي أقرت المساواة بين الزوجين في المعاملة بيّنت بعد ذلك الفرق بينهما بقوله تعالى : ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي للأزواج على الزوجات زيادة درجة لأنه هو رب الأسرة والقائم المشرف عليها، والمنفق أمواله في مصالحها، وهذه الدرجة فسرتها الآية القرآنية الآتية : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ



﴿أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. فحق القَوَّامة مستمد من التفوق الفطري لطبيعة الرجل، فهو أقدر من المرأة على كفاح الحياة، ولو كانت مثله في القدرة العقلية والجسدية، لأنها تنصرف عن هذا الكفاح قسراً في فترة الحمل والرضاعة، إضافة إلى نهوض الرجل بتكاليف الأسرة.

ويختتم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي إنه سبحانه القوي الغالب المنتقم ممن خالف أمره وتعدى حدوده، الحكيم في أفعاله وما شرع لعباده من الأحكام.



﴿الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

### شرح المفردات

فإمساك بمعروف: فردوهُنَّ إلى عصمتكم، والمعروف: ما ألفتُهُ العقول واستحسنته النفوس.

تسريح بإحسان: ترك الزوجة بلا مُراجعة حتى تنقضي عدتها مع أداء حقوقها من غير إساءة لها.

أن يخافا ألا يقيما حدود الله: أن يظنا أن لا يؤديا واجبات الزوجية التي فرضها الله.

جُنَاحُ: إثم.

تَنكِحُ زَوْجاً غَيْرَهُ: تتزوج زوجاً آخر ويدخل بها.

أَنْ يَتَرَاجَعَا: أَنْ يَرْجِعَ كُلُّ مَنِهْمَا إِلَى حَالَةِ الزَّوْجِيَّةِ السَّابِقَةِ.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ: أَحْكَامُهُ الْمَفْرُوضَةُ.

## ضوابط الطلاق

كان الطلاق في الجاهلية - وفي مستهل الإسلام - غير مقيد بعدد محدود، وكانت العدة معروفة مقدرة، فكان الرجل - في بدء الإسلام - إذا غاضب زوجته طلقها ثم راجعها قبل انقضاء عدتها، يكرر ذلك كما يشاء، فلا هو يحسن عشرتها ولا هو يخلي سبيلها. حتى قال رجل لامرأته: وَاللَّهِ لَا أُطَلِّقُكَ فَتَبَيَّنِي<sup>(١)</sup> وَلَا أَوِيكَ أَبَدًا، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أُطَلِّقُكَ، فكلما هَمَّتْ عِدَّتُكَ أَنْ تَنْقُضِيَ رَاجِعْتُكَ، فذهبت المرأة فشكت حالها إلى رسول الله، فأنزل الله قوله:

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ أي إن الطلاق الذي يقره الشرع الإسلامي هو أن يكون مرتان منفصلتان الواحدة عن الثانية، أي مرة بعد مرة لا طلقتان دفعة واحدة ﴿فَإِمْسَاكِ بِمَعْرِوفٍ﴾ أي إن للزوج الحق بعد كل واحدة من الطلقتين أن يرجع زوجته إلى عصمته ما دامت في العدة، أو يعقد عليها بعقد ومهر جديدين وموافقة الزوجة بعد انتهاء العدة، وفي حال إرجاعها إلى الحياة الزوجية يجب على الزوج معاملتها بالمعروف: وهو اسم لكل فعل يعرف بالعقل والشرع حسنه، فلا يؤذيها ولا يلحق الضرر بها، ولا يبخل عليها بالإنفاق ﴿أَوْ تَسْرِيحُ

(١) فتبيني: بانت الزوجة أي أصبحت خارجة عن عصمة زوجها، فلا يحق للزوج إرجاعها إليه بعد انقضاء عدتها إلا بعقد ومهر جديدين وموافقة الزوجة.

بِإِحْسَانٍ ﴿٢٢٩﴾ وتسريح الزوجة أن يترك مراجعتها بعد إيقاع الطلاق بها حتى تنقضي عدتها مع الإحسان إليها وإعطائها من المال ما يليق بها وإكرامها، وعدم إهانتها .

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ أي ليس من الحلال أن تأخذوا من زوجاتكم في حال الطلاق ما أعطيتموهن من مالٍ، ويدخل في ذلك أخذ المهر الذي وهبه الزوج لزوجته وغيره مما يُعطيه الرجل امرأته على سبيل التمليك، بل يجب على الزوج أن يُمتنعَ بشيءٍ من ماله زائداً على ذلك، ومحل هذا الحكم إذا كان الزوج هو الذي اختار فراق زوجته ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي ولكن أباح الشرع للزوج أن يأخذ من زوجته بعض ما أعطاها من المال مقابل طلاقها إذا خاف الزوجان أن لا يقيما حدود الله، وهي أحكام الله وشرائعه، وسميت حُدوداً لمنع تخطيها إلى ما وراءها، ويكون الطلاق بسبب عدم قيام المرأة بحقوق زوجها وسوء طاعتها له أو يكون بطلب الزوجة الطلاق من زوجها مقابل رد المال الذي دفعه زوجها لها ويسمى ذلك بالخُلْع . وقد روي أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خُلُقٍ ولا دينٍ، ولكن لا أطيقه بغضاً وأكره الكُفر في الإسلام (أي كفر نعمة الزوج وخيانتة) فقال لها النبي: «أتردّين عليه حديقته؟» (حديقة كان زوجها قد وهبها إياها) قالت: نعم، قال النبي لثابت: «اقْبَلِ الحديقة، وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً»<sup>(١)</sup>.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ فإن خفتم يا معشر المسلمين ألا تؤدي الزوجات حقوق الزوجية سليمة كما بينها الله سبحانه، فلا إثم على الزوجة فيما افتدت به نفسها من المال مقابل الطلاق من

(١) أخرجه البخاري .

زوجها، ولا إثم على الزوج فيما أخذه من المال من زوجته .

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي تلك أحكام الله وشرائعه فلا تتجاوزوها إلى ما حرم عليكم وما أمركم به ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي ومن تخطى حدود الله وتجاوزها إلى ما حرم الله وما نهى عنه، فإنه هو الظالم الذي فعل ما نهى الله عنه وعصى الله في ذلك، وقد نهى الله عن الظلم وأوعد عليه في القرآن بالعذاب يوم القيامة .

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ أي إذا طلق الرجل امرأته التطيقة الثالثة بعد التطيقتين اللتين ذكرهما الله بقوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ فلا تحل له امرأته إلا بعد أن تتزوج زوجاً غيره ويُجامعها ويطلقها عن رضا بدون شروط مسبقة وبعد انتهاء عدتها . وقد سُئِلَ رسول الله عن رَجُلٍ طَلَّقَ امرأته الطلقة الثالثة فتزوجت رجلاً غيره، ثم طلقها قبل أن يُجامعها: أَتَحِلُّ لزوجها الأول؟ فقال رسول الله: «لَا تَحِلُّ لِرَجُلٍ لِرَجُلٍ حَتَّى يَذُوقَ الزَّوْجَ الْآخَرَ عُسَيْلَتَهَا وَتَذُوقَ عُسَيْلَتَهُ»<sup>(١)</sup>، والمراد أن يُجامعها، شبه لذة الجماع بذوق العسل .

واتخاذ زوج آخر قبل الرجوع إلى الأول أكبر مانع من إيقاع الطلاق عند قوم كالعرب عُرفوا بشدة الغيرة والحمية وأقوى رادع لهم عن ممارسة الطلاق، فجاء القرآن بأكبر زجر لمنع الطلاق في أمة اشتهرت بالغيرة على نساءها والمحافظة على العزة والشرف .

ويشترط في الزواج الثاني أن لا يكون مؤقتاً، الغاية منه تحليل الزوجة المطلقة ثلاثاً للزوج الأول، وقد نهى رسول الله أن يتزوج الرجل بالمرأة بقصد

(١) أخرجه البخاري .

تحليلها للزوج الأول فقال: «ألا أخبركم بالتَّيْسِ المُسْتَعَار؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: هو المُحَلَّل، لَعَنَ اللَّهُ المُحَلِّلَ والمُحَلَّلَ لَهُ»<sup>(١)</sup>.

ولقد اتفق فقهاء المسلمين على أن نكاح التحليل حرام إذا قصد به في عقد الزواج لتضافر الأدلة بلعن النبي ﷺ للمحلل، ولهذا ذهب الإمام مالك والإمام أحمد والشافعي في أحد قوليه إلى أن من تزوج بالمطلقة ثلاثاً بقصد تحليلها لزوجها الأول فنكاحه باطل.

ويرى الإمام أبو حنيفة أنه لو تزوجها ولم يشترط في عقد النكاح أنه يفارقها وبنيته أنه يفارقها فالنكاح صحيح، ويحصل به التحليل إذا دخل بها وطلقها وانقضت عدتها، ولكن يُكْرَهُ ذلك، لأن الأحكام تُنَاط بالظواهر، والنيات علمها عند الله، وهو الذي يُؤَاخِذُ النَّاسَ عَلَيْهَا.

ولنرجع إلى تنمة الآية السابقة حيث يقول الله تعالى:

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾  
أي فإن طلقها الزوج الثاني بعد الدخول بها (أي بعد وطئها) وانقضاء عدتها، فلا إثم على المرأة وعلى زوجها الأول أن يتزوجا زوجاً جديداً إن اعتقدا أنهما سيقيمان حدود الله بالمعاشرة بالمعروف، والقيام المتبادل بواجباتهما الزوجية الحسنة ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وتلك الأحكام الشرعية في شأن الطلاق يُبَيِّنُهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ لِيَعْلَمُوا حَقِيقَتَهَا الشرعية ويُدْرِكُوا الفائدة منها، فيراعوها ويتعهدوا بالقيام بها.

(١) أخرجه ابن ماجه.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ .

### شرح المفردات

فبلغن أجلهنَّ: شارفت عدتهن على الانتهاء.  
فأمسكوهن بمعروف: فردوهن إلى عصمتكم مع معاشرتهن بالإحسان.  
أو سرحوهن بمعروف: أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن وينفصلن عنكم من غير إضرار بهن.  
ولا تمسكوهن ضراراً: ولا تراجعوهن إلى عصمتكم بقصد الإضرار بهن.  
ولا تتخذوا آيات الله هُزُوًا: ولا تأخذوا أحكام الله هازئين غير جادين.  
فلا تعضلوهن: فلا تمنعهن وتضيّقوا عليهن.  
أزكى لكم: أنمى وأنفع لكم.

### النهي عن الإضرار بالمطلقة

ويتابع القرآن الكلام عن الطلاق مع إرشاد الزوج والزوجة إلى ما فيه الخير لهما، إما بإرجاع الحياة الزوجية إلى سابق عهدها بعد إيقاع الطلاق، وإما بالفراق، قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وإذا طلقتم - أيها الأزواج - نساءكم طلاقاً رجعيّاً وكانت نساؤكم في العِدَّةِ ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربت العدة على الانتهاء ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي فإن رجح لديكم أن الإبقاء على حياتكم الزوجية أصح لكم من انقطاعها، فأعيدوا هذه المُطلّقة إلى سابق عهدها مع معاشرتها بحسن الصحبة وبما يُستحسن من الأفعال ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وإن غلب على ظنكم أنه يتعذر العيش مع زوجاتكم المطلقات بالمعروف لسبب من الأسباب فاتركوهن حتى تنقضي عدتهن ويصبحن أحراراً من الرابطة الزوجية، وأعطوهن حقوقهن المالية من غير إيذاء لهن ولا إهانة ولا طعن بهنَّ ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُوا﴾ أي لا تراجعوا زوجاتكم إلى عصمتكم بعد طلاقهن وهن في العِدَّةِ رغبة في الإضرار بهنَّ وإيذائهنَّ ليفتدين أنفسهن بالمال. وقد كان بعض العرب يفعل ذلك كما روى ابن جرير أن ثابت بن بشار طلق امرأته حتى إذا انقضت عدّتها إلاّ يومين أو ثلاثة راجعها، ثم طلقها لتستقبل العدة من جديد حتى مضت لها تسعة أشهر يضارّها بذلك، فأنزل الله قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُوا﴾ والضرار يعني المشاركة في الضرر للإشعار بأن ضرّه إياها يستتبع ضرّها إياه وذلك بإهمالها واجباتها المنزلية وتبديد أمواله ومناكفته، مما يجعل بيت الزوجية مكاناً للنكد والخصام والتعاسة بدلاً من أن يكون ساحة للوئام والودّ والسعادة ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ ومن يعتدي على زوجته ويلحق الضرر بها فقد ظلم نفسه، واكتسب بذلك إثماً، وأوجب لنفسه من الله عقوبة ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً﴾ ولا تتخذوا أحكام الله وشرائعه في شأن الطلاق وغيره استهزاء ولعباً، فإنها كلها قائمة على الجدّ، ولا تتهاونوا في الالتزام بها.

وقد رُوي أن الرجل في الجاهلية كان يُطْلَق ويقول: إنما طلقت وأنا

لاعب، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ جَدُّهُنَّ جَدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جَدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ»<sup>(١)</sup>.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ واذكروا نِعَمَ اللَّهِ الكثيرة عليكم ومنها نعمة الزوجية وما فيها من السعادة لكم حيث جعل الله زوجاتكم سَكَنًا لكم تُبَادِلُوهُنَّ الْوُدَّ وَالْعُطْفَ، وتتعاونون معاً لاجتياز مصاعب الحياة ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ واذكروا ما أنزل الله عليكم من الكتاب وهو القرآن الكريم وما أنزل عليكم من الحكمة وهي السُّنَّة النبوية التي تتمثل بأقوال النبي ﷺ وأفعاله. فالسُّنَّة النبوية تُبين أحكام القرآن من تفصيل المجمل، وتوضح المشكل، وتخصيص العام، والكشف عن الأحكام المنطوية في نصوصه العامة وقواعده الكلية، ودل على أَنَّ السُّنَّة النبوية أنزلها الله على رسول الله محمد ﷺ قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤] ولكن السُّنَّة هي غير ما أنزل الله في القرآن ﴿يُعِظُكُمْ بِهِ﴾ والوعظ: النصيح والتذكير بما يلين القلوب إلى الخير، فالله سبحانه يُذكِّر المسلمين بما أنزل عليهم من القرآن وما جاءهم به رسوله محمد ﷺ من الحكمة ليعملوا بها وَيَتَّعِظُوا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي وخافوا الله وتجنبوا عذابه بالعمل بما أمر وترك ما نهى عنه ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي واعلموا أَنَّ الله يعلم سِرِّكم وجهركم ويعلم كل شيء في الكون، ولا شك أَنَّ معرفة ذلك تدعو المؤمن إلى طاعة الله وعدم عصيانه.

ثم يأتي الخطاب لأولياء المُطَلَّقات بأن لا يمنعهن من الرجوع إلى أزواجهن السابقين إذا حصل التوافق بينهم بعد الطلاق وانقضاء العدة:

(١) أخرجه أبو داود.



﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾<sup>(١)</sup> أي وإذا طَلَّقْتُم أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ نِسَاءَكُمْ وانقضت الْعِدَّةُ ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ الْعَضْلُ: المنع والتضييق، أي فلا تمنعهن - أيها الأولياء - أن يتزوجن أزواجهن الذين طلقوهن ويستأنفن حياتهن الزوجية السابقة ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ إذا حصل التراضي بينهم بعد النزاع الذي أفضى بهنَّ إلى الطلاق، وكان هذا التراضي قائماً بالمعروف، والمعروف هو الذي يُعرف بالعقل والشرع حُسْنُهُ، ولم يكن ثمة سبب للاعتراض عليه.

وقد جاء في أسباب نزول الآية ما رُوِيَ عن معقل بن يسار أنه قال: «كانت لي أُخْتُ، فأتاني ابن عمِّ لي فأنكحها إياه (أي زوجها إياه) فكانت عنده ما كانت ثم طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً ولم يُرَاجِعْهَا حتى انقضت عِدَّتُهَا، فهُوِيَهَا وَهُوِيَّتْهُ (أي أَحَبَّهَا وَأَحَبَّتْهُ) ثم خطبها مع الْخُطَّابِ، فقلت له: يَا لُكْعَ<sup>(٢)</sup>، أكرمتك بها وزوجتُكها فطلقتها ثم جئت تخطبها، واللَّهِ لا ترجع إليك أبداً، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فعلمَ اللَّهُ حاجته إليها وحاجتها إلى بعْلِها فأنزل هذه الآية، قال: فَفِيَّ نَزَلَتْ، فَكَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَنْكِحْتُهَا إِيَّاهُ...»<sup>(٣)</sup>.

﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ذلك التوجيه الكريم المشتمل على أفضل الأحكام وأعدلها يُذَكِّرُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُصَدِّقُ بوجودَ اللَّهِ ووَحدانيته وبشوابه وعقابه يوم القيامة ﴿ذَلِكَمُ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ وهذا الحكم هو أعظم بركةً ونفعاً لكم وأكثر تطهيراً لكم من الريبة والتَّهْمِ، فَإِنَّ

(١) المراد ببلوغ الأجل هنا انتهاء العدة، أما بلوغ الأجل في الآية التي قبلها فإنها تعني المشاركة والمقاربة، وسياق الكلامين في الآيتين يدل على اختلاف البلوغين.

(٢) يا لكع: أي يا لثيم.

(٣) أخرجه البخاري والنسائي والترمذي وأبو داود.

المرأة إذا عوملت معاملة كريمة التزمت في سلوكها العفاف والطهر، أما إذا عوملت بالظلم والامتهان فإن هذه المعاملة قد تدفعها إلى ارتكاب ما نهى الله عنه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَاللَّهُ سبحانه يعلم ما فيه صلاح أموركم من الأحكام والشرائع التي أنزلها على رسوله محمد ﷺ وأنتم لا تعلمون ذلك، فامثلوا ما أمركم به وانتهوا عما نهاكم عنه.



﴿وَالْوِلْدَاتُ يُرْضَعْنَ حَوْلَ مَنْ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالْتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

### شرح المفردات

حَوْلَيْنِ : ستنين بالتقويم القمري .  
رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ : أي النفقة لهن بما يتعارف عليه الناس ولا تُنكره العقول السليمة .

وُسْعَهَا : استطاعتها .

لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا : أي لا يحصل لها الضرر بسبب ولدها .

فِصَالًا : فطاماً للمولود عن الرضاع .

أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَادَكُمْ : أن ترضعوهم من غير أمهاتهم .

### الحقوق المتوجبة للمرضعة

وبعد أن بيّن الله حقوق الزوجين بعضهما على بعض وكذلك أحكام الطلاق عند استحكام النفرة بينهما، بيّن الله فيما يلي حقوق من كانوا ثمرة الزواج وهم الأطفال الرُّضّع، وما لهم من واجبات على آبائهم وأمهاتهم، وكذلك ما يجب للمرضعة من حقوق، قال الله تعالى:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ هو أمر جاء على صيغة الخبر، أي على جميع الوالدات مطلقات كُنَّ أو غير مطلقات إرضاع أولادهن. وهذا الأمر هو للاستحباب وللوجوب، فهو يكون مستحباً عند توفر شروط ثلاثة: قدرة الأب على استئجار المرضعة، ووجود من ترضعه غير الأم، وقبول الولد للَبَنِ<sup>(١)</sup> الغير، ويكون للوجوب عند فقد أحد هذه الشروط.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالوالدات هنا المطلقات لأن سياق الآيات قبل ذلك في أحكام الطلاق، ولأن المطلقة عرضة لإهمال العناية بطفلها وترك إرضاعه.

ولبن الأم هو الغذاء الطبيعي لولدها، وهو أكثر فائدة للرضيع، وأسلم وسيلة لضمان صحته ونموّه، كما أن عناية الأم بطفلها وما تحيطه به من حنوّها في هذه الفترة من إرضاعه يؤدي إلى تحسين أحواله.

وفي عصرنا الحاضر أصبح الأطباء يُوصون لبعض الأطفال أنواعاً من اللبن الصناعي المستخرج من ألبان البقر عند تعذّر الأم إرضاع ولدها، ولكنهم مجمعون على أنه لا أصلح للطفل من لبن أمّه، هذا مع العلم أن الإرضاع من اللبن الصناعي يحتاج إلى مزيد من الحذر من تلوّثه، بينما لبن الأم هو بمنأى عن ذلك.

(١) اللَّبْنُ: يطلق على الحليب، كما يطلق على الحليب الرائب، والمراد به هنا الحليب الطبيعي.

وحتى لا يختلف الوالدان في مدّة الرضاعة بأن يريد الأب أن يقصّر مدة الرضاعة في حال طلاق زوجته ليتخلص من نفقة الرضاعة لها، أو تحاول الأم إطالة مدة الرضاع للانتفاع بالنفقة من زوجها، حدّد الله مدة الرضاعة اللازمة للطفل لقطع النزاع بين الزوجين بقوله ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ والحوْل: هو السّنة بالتقويم القمري ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ أي هذا الحكم هو لمن أراد إتمام الرضاع، فإذا أراد الأبوان أن يُنقصا مدّة الرضاع عن السنتين كان لهما ذلك.

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المولود له: هو الأب، أي وعلى الآباء أن يقدّموا للأمهات في حال إرضاع أولادهن عند طلاقهن ما يلزمهن من نفقة وكسوة بالمعروف: أي بالطريقة المتعارف عليها عند أصحاب المروءة والفضل ﴿لَا تَكْلَفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا يلزم الوالد من النفقة بما يشقّ عليه، بل يكون الأجر الذي يدفعه في حدود طاقته ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ أي لا ينبغي أن يقع ضرر على الأم المرضعة بسبب ولدها بأن يستغل الأب حنوها على وليدها فيمنع عنها ما يتوجب عليه من نفقتها وكسوتها، أو يأخذ منها طفلها وهي تريد إرضاعه ويضعه عند مرضعة أخرى ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ أي ولا ينبغي أن يقع ضرر على الأب بسبب ولده بأن تطلب منه أم طفله ما لا تتسع قدرته عليه من النفقة مستغلة عاطفته نحو ولده. تأمل كيف أضاف الله الولد إلى أمه وأبيه لإثارة عاطفة الأبوة والأمومة نحوه، وأن هذا الولد الذي رزقهما الله إياه جدير بأن ينال حظاً وافراً من العناية والعطف والحنان ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أي في حال وفاة الأب، فإنه يتوجب على وارث الأب أن يُنفق على الأم المرضعة، هذا بأن لا يكون للطفل الرضيع مالٌ ورثه عن أبيه، فإن كان له مالٌ أخذت أجرة رضاعه من ماله.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ والفِصَالُ: الفِطَام عن الرِّضَاع، أي التفريق بين الصبي والثدي، أو لأنه يفصل الولد عن أمه، وقد قيّد الله هذا الفطام للطفل بأن يكون عن تراضٍ وتشاورٍ بين الأب والأم، وبذا لا يكون عليهما إثم في ذلك، لأن إقدام أحدهما على فطام الصبي بدون هذا التشاور قد يؤثر في صحة الطفل، ولأن رأي الأم والأب مُجْتَمِعَيْن هو أصلح لمصلحة الطفل.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي وإن أردتم أن تجعلوا لأولادكم مرضعة غير والدتهم لمصلحة الطفل فلكم ذلك ولا إثم عليكم ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي إذا سلمتم المرضعة أجرها بما يتعارفه الناس وبما تستحسنه العقول السليمة من دون مماطلة في إعطائها حقها، فإن عدم توفير الأجر بما تستحق يبعثها على التساهل بأمر الصبي والتفريط في شأنه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوا الله فيما فرض عليكم من الحقوق وفيما أوجب عليكم للمراضع ولأولادكم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي واعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية من جميع أعمالكم سرّها وعلايتها، فاحذروا الخروج عن طاعته.



﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذْكُرُنَّهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

### شرح المفردات

ويذرون أزواجاً: يتركون زوجات لهم في عصمتهم وقت الوفاة. وأزواجاً: جمع زوج ويطلق على الرجل والمرأة.  
 يترَبَّصْنَ: ينتظرن في بيت الزوجية.  
 بلغن أجلهن: انقضت عدتهن.  
 عَرَضْتُمْ: لَوَّحْتُمْ وأشرتُم به، وضده التصريح والإفصاح.  
 خِطْبَةُ النِّسَاءِ: طلبهن للزواج.  
 أكننتم: أخفيتن.  
 ولا تعزموا عُقْدَةَ النِّكَاحِ: ولا تقصدوا قصداً جازماً تنفيذ عقد الزواج.  
 حتى يبلغ الكتاب أجله: والكتاب: هو الأمر المكتوب المفروض وهو هنا العِدَّة، والأجل: هو انتهاء المدة المقررة للعدة.

### عِدَّةُ المتوفى عنها زوجها

ثم ينتقل القرآن إلى بيان الحكم في حال وفاة الزوج، وما يترتب على الزوجة من أمور يجب القيام بها، وهي أن تمكث فترة من الزمن في حداد على

زوجها لا يحق لها في أثنائها الزواج، وهذه الفترة تسمى عِدَّة الوفاة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا﴾ أي الأزواج منكم - معشر المسلمين - الذين يموتون ويتركون زوجاتهم، الحكم في حقهن أن: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ التربُّص: الانتظار، أي يجب على الزوجات أن ينتظرن بعد وفاة أزواجهن مدة أربعة أشهر وعشرة أيام بدون زواج، وهذا الحكم على كل زوجة صغيرة كانت أم كبيرة، مَدْخولاً بها أو لا.

والحكمة من تلك العِدَّة التي مدتها أربعة أشهر وعشرة أيام تظهر في أمرين: الأول، هو أن يتبين فيها للمرأة الحمل من زوجها المُتوفى إذا كانت حاملاً منه، فهذه المدة هي التي يتحرك في مثلها الجنين تحركاً ظاهراً وتشعر به الأم ويظهر الحمل عليها، فإذا تبين أنها حامل فعِدَّتُها تنتهي بوضع حملها أي بولادتها، وبعدها يحق لها الزواج، وبذلك لا تختلط الأنساب، ولا يقع الإشكال في الأب الحقيقي للمولود، وهذا يدل على عظمة التشريع الإسلامي القائم على العدل والحكمة.

والأمر الثاني: وهو أن الغاية من العِدَّة هي أن تكون في حداد على زوجها ورفيق عمرها ورب أسرتها بالطريقة المثلى، وبذلك يصحح الإسلام ما كانت عليه حال المرأة عند العرب في الجاهلية، فقد كانت المرأة إذا تُوفِّي عنها زوجها تغلق على نفسها في بيتها وتقضي فيه عاماً كاملاً حداداً على زوجها، فأبطل الإسلام ذلك، وفي هذا يقول الرسول محمد ﷺ: «لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تتحدَّ على ميتٍ فوق ثلاث، إلّا على زوجٍ أربعة أشهرٍ وعشراً»<sup>(١)</sup>.

(١) متفق عليه.

وفي عِدَّة الوفاة يَحْرُمُ على المرأة الخروج من بيتها إلا لضرورة، كأن تزاوُل مهنة أو وظيفة، أو لا تجد من يقوم بحوائجها، كما يحرم عليها الزينة وتوابعها في أثناء العدة، لأن المرأة المؤمنة الوفية لزوجها يأبى عليها دينها ومروءتها أن تعرض نفسها على غيره بعد فترة قصيرة من وفاته، كما يحرم على الرجل أن يخطب المرأة أثناء العدة.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾  
أي فإذا انتهت مدة عِدَّة الوفاة فلا إثم ولا حرج عليكم - أيها الأولياء - فيما فعلن هؤلاء الزوجات الأرامل من طرح الحداد والاستعداد للزواج، وذلك بالتزيّن والتجمل، ولكن بالطريقة التي يُقرُّها الشرع وبما يَحْسُنُ عقلاً وشرعاً، وأن يكون زواجها من الكفء الذي لا يجلب العار لأسرتها.

وهنا إشارة إلى أنهنَّ لو فعلنَّ ما يُنكره الشرع فعلى الأولياء أن يمنعهن عن ذلك ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ واللَّهُ سبحانه عليم بما تمتثلون من أمره وهو مجازيكم على أعمالكم فاحذروا معصيته.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ عَرَّضْتُمْ: التعريض هو ضد التصريح، وهو ما تَضَمَّنَ الكلام الأمر المراد دون ذكره صراحة، والخطبة بكسر الخاء طلب الرجل المرأة للزواج بالوسائل المعروفة بين الناس، والمقصود من النساء في الآية المعتدات عن وفاة، ومعنى الآية: لا إثم عليكم - أيها المسلمون - من التعريض بخطبة النساء وهنَّ في العِدَّة بعد وفاة أزواجهن بكلام يفهم منه رغبتكم في الزواج بهن بعد انقضاء عدتهن، وعلى هذا فلا يجوز الكلام مع المرأة التي هي في العدة بما هو نص في طلب الزواج بها بشكل صريح، كما لا يجوز التعريض لخطبة المطلقة طلاقاً رجعيّاً وهي في العِدَّة لأنها لا تزال في عصمة زوجها.



ومن أمثلة التعريض بخطبة النساء وهُنَّ في عِدَّة وفاة أزواجهن أن يقول لها:

– إنكِ عَلَيَّ لكريمة، وإن الله سائق إليك خيراً ورزقاً، وإني لمعجب بك.  
– إني أريد التزوج وإنَّ من شأني النساء، وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ يَسِّرَ لِي امرأة صالحة.

– أو يقول: إني حسن الخلق كثير الإنفاق جميل العشرة مُحْسِنٌ إِلَى النِّسَاءِ، فيصف نفسه بالصفات الحميدة ليرغبها فيه، فلا يصرِّح بالزواج بأن يقول: إني أريد أن أتزوجك أو أخطبك، فالتصريح بِالْخِطْبَةِ لا يجوز حتى لا يؤذي أهل الميت، وحتى لا يدفعها إلى الامتناع عن الحداد على زوجها المتوفى.

﴿أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي لا إثم عليكم فيما سترتم وأضمرتم في قلوبكم من الزواج بهنَّ ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي علم الله أنكم لا تصبرون عن النطق لهنَّ برغبتكم في الزواج بهنَّ، فرخص لكم في التعريض دون التصريح، وفي هذا نوع من التوبيخ لهم على قِلَّةِ صبرهم ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ السُّرُّ في هذا الموضع: الزَّنا، أي لا يَكُونَنَّ منكم مواعدة على الزنا في العدة ثم التزوج بعدها، وقيل: أن لا يأخذ الميثاق عليها بأن لا تتزوج غيره، أو بمعنى: لا تلتقوا بهنَّ سِرًّا وتقولوا معهنَّ ما تستحون من قوله جهراً ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ولكن أباح لكم أن تقولوا قولاً معروفاً، والمعروف هو الذي يُعْرَفُ بالعقل والشرع حُسْنُهُ، ولا تُنْكَرُ الأخلاق الكريمة.

﴿وَلَا تَغْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أي لا تقصدوا وتعقدوا العزم في أثناء العِدَّةِ على تنفيذ عقد الزواج ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ حتى تبلغ العدة المفروضة آخرها، فَاللَّهُ سبحانه نهى عن العزم على عقد الزواج في العدة للمبالغة في عدم إبرام العقد.

والنهي عن مقدمات الشيء يستلزم النهي عن ذلك الشيء بطريق أولى .  
ومن المعلوم أن عقد النكاح في زمن العدة باطل ، والمباشرة به وتنفيذه  
يعتبر من الزنى ، والتفريق بين الرجل والمرأة في تلك الحالة واجب . فالتزوج  
بالمرأة في العدة مُحَرَّم قطعاً ، ولأجله حُرِّمَتْ خِطْبَتُهَا فِي الْعِدَّةِ .  
﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ أي واعلموا أن الله  
يعلم ما يجول في أنفسكم من خواطر وما تعزموا عليه من الأفعال ، فاحذروا أن  
تعملوا بما نهاكم عنه وخافوا مخالفة أمره ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ وهو  
سبحانه غفور لمن أذنب ثم تاب ، وهو سبحانه حلیم لا يعجل بالعقوبة لمن  
أذنب ، بل يمهل ليصلح حاله ويعود عن ذنبه تائباً .



﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ  
فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ  
حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ  
فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا  
الَّذِي بَيْنَهُمَا عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا  
الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ .

### شرح المفردات

تَمْسُوهُنَّ : المَسُّ هنا : الجماع .

فريضة : أي مهرأ .

وَمَتَّعُوهُنَّ : المتعة ، مقدار من المال تُعطاه المطلقة قبل الدخول بها من زوجها تعويضاً لما فاتها من أذى الطلاق .

المُوسِع : الغني .

المُقْتِر : الفقير الضيق الحال .

قَدَرُهُ : طاقته وسعته .

يعفون : يصفحن ويتركن نصف المهر المستحق لهن ، وهذا بالنسبة للمطلقة قبل الدخول بها .

### حقوق الزوجة المطلقة قبل الدخول بها

ثم يُبين القرآن حق المرأة في حال طلاقها قبل الدخول بها وقبل تعيين مهر لها ، قال الله تعالى :

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ تمسوهن : تدخلوا بهن . وكلمة تمسوهن كناية حسنة من كنايات القرآن تعلم الناس الأدب في التعبير ، وعدم التلفظ بالألفاظ النابية التي يمجها الذوق ، والمراد بالفريضة هنا : المهر الذي يفرضه الرجل على نفسه عند زواجه . ومعنى الآية : لا تبعة عليكم ولا إثم أيها الرجال في طلاقكم للنساء قبل أن تدخلوا بهن وقبل أن تُقدِّموا لهنَّ مهراً معيناً ، ولكن الواجب عليكم المتعة لهن ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ والمتعة ما ينتفع به الإنسان من مال وكسوة وغير ذلك ، أي على الرجل الذي طلق زوجته التي لم يدخل بها ولم يعين لها مهراً أن يُمتَّعها بمال وكسوة لتنتفع به جبراً لخاطرهما ، لما نالها من حزن بسبب فراق زوجها ، وهذه المتعة هي واجبة عند كثير من الصحابة والفقهاء ، ومندوبة<sup>(١)</sup> عند البعض . وقد جعل الله هذه المتعة تابعة لحالة الرجل المادية ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾ على

(١) المندوب : هو المستحب .

الموسع وهو الغني الذي هو في سعة من غناه أن يُمتّع مطلقته بما يُناسب غناه ﴿وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ﴾ وعلى الفقير أن يمتع مطلقته قدر إمكانه وطاقته ﴿مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذه المتعة للزوجة المطلقة تكون بالوجه الذي يُعرف بالعقل والشرع حُسْنُهُ وبما تقتضيه المروءة ﴿حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ فالمتعة هي حق على من يريد الإحسان في معاملة زوجته المطلقة، والإحسان هو فوق العدل لأن المحسن يعطي أكثر مما عليه.

أما مقدار المتعة فيرى الإمام أبو حنيفة أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب على الزوج نصف مهر أمثالها من الزوجات.

ثم يبين القرآن الحكم في حال أن سمى الزوج لامرأته مهراً معيناً ثم طلقها قبل الدخول بها:

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ والمعنى: وإن طلقتم - يا معشر الرجال - النساء قبل أن تدخلوا بهن وقد فرضتم لهن مهراً وقت عقد الزواج فالواجب عليكم في تلك الحالة أن تدفعوا لهن نصف ما فرضتم أي نصف المهر ﴿إِلَّا أَنْ يَغْفُونَ﴾ والعفو هنا: الإبراء والتنازل، والمعنى: إلا أن تتنازل المرأة عن حقها في نصف المهر، فتركه لمطلقها بسماحة نفس بأن تكون هي الراغبة في الطلاق ﴿أَوْ يَغْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ والذي بيده أمر عقدة النكاح هو الزوج، ومعنى عفوهُ أن يترك لمطلقته المهر كاملاً لها إذا كان قد سدّده سابقاً، أو أن يؤديه إذا لم يكن قد دفعه.

﴿وَأَنْ تَغْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ الخطاب هنا للرجال والنساء، أي إن تغفو المرأة المطلقة عن حقها في نصف المهر، وإن يغفو الزوج، وذلك بالزيادة على

نصف المهر الواجب عليه، فهذا أقرب لكم إلى تقوى الله وابتغاء مرضاته ﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ هذا الشطر من الآية يوحى بأرفع الصفات الخلقية وسماحة النفس عند الطلاق وما يعقبه من بغضاء وعداوات بين الأسر.

فالقرآن يدعو إلى التعالي على الجراحات التي يسببها الطلاق وأن لا ينسوا الفضل بينهم وما كانوا عليه من مَوَدَّةٍ وَعِشْرَةٍ طيبة، والفضل في أصل معناه الزيادة في كل شيء، وأكثر ما تكون الزيادة في الأشياء المحمودة، يُقال: أَفْضَلَ الرَّجُلُ عَلَى فَلَانٍ: إذا أناله من فضله وأحسن إليه، ورجل مِفْضَالٌ: أي كثير الفضل والخير والمعروف، ومن الفضل بين الزوجين إعطاء الزوج المهر كله لزوجته المطلقة أو تتنازل الزوجة عن حقها في نصف المهر.

ويختتم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي إنه سبحانه بصير بأعمالكم وسيجازيكم عليها، وفي هذا ترغيب للمحسن بزيادة إحسانه وترهيب للمسيء بالكف عن إساءته.



﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

### شرح المفردات

الصلاة الوسطى: صلاة العصر في الأرجح.

قانتين: مطيعين خاضعين.

رجالاً: جمع راجل، أي مشاة.

ركباناً: جمع راكب.

أزواجاً: جمع زوج وتطلق على الذكر والأنثى.

متاعاً: المتاع هنا نفقة المتوفى عنها زوجها.

الحول: السنة.

### الدعوة إلى المحافظة على الصلاة

ثم تأتي الآيات التالية التي تدعو إلى المحافظة على أداء الصلوات المفروضة، وهي تتوسط آيات الأحكام في شأن الطلاق وما يعقب ذلك من عداة وهموم وأحزان، والذي يربّي النفس ويصقلها بالخير والتسامح

ويخفف ما بها من أحزان هي الصلاة، لأن فيها يُناجي الإنسان ربّه ويطلب منه المعونة والهداية، لذا دعا الله المؤمنين إلى أداء الصلوات لما فيها من فوائد جمّة، قال الله تعالى :

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ حافظوا : من الحِفْظ بمعنى ضبط الشيء وصيانته عن كل تضييع . والمحافظة على الصلاة تقتضي أمرين :  
الأول : أدائها باستمرار في أوقاتها دون تخلف ولا تفريط .

الثاني : الإتيان بها كاملة الأركان مستوفية الشروط، يشترك فيها القلب مع حركات الأعضاء من ركوع وسجود فلا ينطق المصلي بأي كلمة من كلمات الصلاة إلّا ويستحضر معناها في قلبه .

أما الصلاة الوسطى التي أمر الله بالمحافظة عليها، فقد اختلف العلماء في تحديدها فرجح بعضهم أنها صلاة العصر لما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال يوم معركة الأحزاب : «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى : صلاة العصر، ملأ الله قبورهم وأجوافهم ناراً»<sup>(١)</sup> أو لأنها تقع في وسط الصلوات الخمس فقبلها اثنتان وبعدها اثنتان، وقد خُصَّت صلاة العصر بمزيد من التأكيد بالمحافظة عليها مما يشهد بأنها هي الصلاة الوسطى، فقد روي عن النبي ﷺ قوله : «الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ»<sup>(٢)</sup> أهله وماله»<sup>(٣)</sup> .

وقال جمهور من الفقهاء : إن الصلاة الوسطى هي صلاة الصبح، فقد خصها الله بالذكر بقوله : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء : ٧٨] .

(١) أخرجه مسلم .

(٢) وُتِرَ : أي انتزع منه، وقيل : نقص، فبقي بلا أهل ولا مال .

(٣) أخرجه مسلم .

وجاء في الحديث الشريف: «إن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون عند صلاة الصبح»<sup>(١)</sup>. وتوسطها بين الصلوات ظاهر لأن وقتها بين الليل والنهار، فصلاة الظهر والعصر في النهار وصلاة المغرب والعشاء في الليل.

ومن العلماء من ذهب إلى أن المراد بالصلاة الوسطى الصلوات كلها، والوسطى تعني الفضلى، والأوسط في أكثر استعمال القرآن يعني الأمثل والأفضل، والمعنى على هذا التفسير: حافظوا على الصلوات كلها بالمداومة عليها، وحافظوا على أن يكون أداؤكم لها من النوع الأمثل والأفضل بإقامة أركانها خاشعين متجهين إلى رب العالمين دون سواه ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي قوموا لله في صلاتكم خاضعين طائعين.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي فإن كان بكم خوف من عدو في حال الحرب أو من غيره لسبب من الأسباب فصلُّوا راجلين: أي مشاة على الأقدام أو راكبين على أي أداة من أدوات الركوب مستقبلين القبلة وغير مستقبلين، فالصلاة لا تسقط عن المكلف بها بحالٍ من الأحوال، سواء في الأمن أو الخوف، أو الصحة والمرض، فقد ورد عن عمران بن حصين أنه قال: كانت بي بواسير فسألت رسول الله ﷺ فقال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنبك»<sup>(٢)</sup>.

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ المراد بذكر الله هنا: الصلاة، أي إذا زال الخوف عنكم فأدوا الصلاة تامة كاملة مستوفية الأركان بإتمام الركوع والسجود واستقبال القبلة ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أي مثل ما علمكم إياها

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري.



رَبِّكُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا التَّعْلِيمِ الَّذِي كُنْتُمْ تَجْهَلُونَهُ مِنْ قَبْلِ .

وَيُتَابِعُ الْقُرْآنُ بِذِكْرِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالنِّسَاءِ الْمُتَوَفَّي عَنْهُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ :

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ يتوفون: المراد بها هنا: يتوقعون الوفاة ويحتضرون. والمعنى: والذين يتوقعون قُرْبَ الوفاة منكم - أيها المسلمون - ويتركون زوجاتهم بعد وفاتهم ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ﴾ أي فليوصوا وصية لزوجاتهم بأن يُمتَّعْنَ بعد وفاتهم بالنفقة والكسوة والسكن من مالهم، وهذه المدة تمتد سنة كاملة ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي غير مخرجات من مسكن الزوجية، فلا يصحَّ لورثة الميت أن يخرجوهن من مسكنهنَّ بغير رضاهنَّ، لأن بقاءهنَّ في مسكن الزوجية حقٌّ شرعه الله لهنَّ، وحينئذٍ يجب على الزوجة ملازمة السكن وترك التزيّن كما يجب عليها الإحداد هذه السنة ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ فَإِنْ هُنَّ تَرَكْنَ حَقَّهُنَّ مِنْ تِلْكَ الْوَصِيَّةِ وَخَرَجْنَ مِنْ مَنْزِلِ الزَّوْجِيَّةِ بَعْدَ إِتْمَامِ الْعِدَّةِ، وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةَ أَيَّامٍ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ أي فلا إثم عليكم يا أولياء الميت فيما فعلنَّ من أمورٍ تتعلّق بهنَّ لا ينكرها الشرع كالتزيّن والتطيّب وترك الحداد، والتزوج بعد انتهاء عدتهنَّ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والله سبحانه هو القويّ الغالب ينتقم ممن عصاه وخالف أمره، حكيم فيما شرعه من الأحكام التي تراعي مصالح عباده.

يرى بعض المفسرين أن حكم الوصية في هذه الآية كان قبل أن تنزل آية الميراث في سورة النساء، ثم نسخ فجعل لها فريضة معلومة: الثُّمْنُ إِنْ كَانَ لِلزَّوْجِ وَلَدٌ، وَالرُّبْعُ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ.

وذهب بعض المفسرين إلى القول إن الآية مُحْكَمَةٌ لا نَسَخَ فيها حيث إن العِدَّةَ مُدَّتْها لوفاء الزوج هي أربعة أشهر وعشرة أيام، ثم جعل الله لهن وصية من أزواجهن بعد وفاتهن تمام هذه الأربعة أشهر وعشرة أيام إلى سنة، فإن شاءت المرأة سكنت في بيت الزوجية سنة كاملة بناء على وصية زوجها، وإن شاءت خرجت منه بعد إتمام عدتها، وهذه الوصية هي على سبيل الإحسان والرفق بالزوجة والإكرام لها.

﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمتاع: هو كل ما ينتفع به من مال، وكسوة، وطعام، ونفقة، وخادمة تخدمها حسب قُدرة الزوج المادية، وهذا المتاع للمطلقة هو زيادة على الحقوق المقررة لها شرعاً. وهذا المتاع ينقسم إلى قسمين: واجب ويكون للمطلقة قبل الدخول بها ولم يكن سمي لها مَهْراً، ومندوب أي مستحسن في غير تلك الحالة، وقد جعل الله هذا المتاع للمطلقات بالمعروف وهو أن يكون بما تستحسنه العقول السليمة وحسب العُرف بين الناس ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي هذا المتاع جعله الله حقاً على المتقين الذين أطاعوا الله في أمره ونهيه وصانوا أنفسهم عن كل ما يبغضه الله. وإنه من الطاعات التي يتحلى بها المتقون، والغاية من ذلك جَبْرٌ للمطلقة من وحشة الفراق من زوجها، وتخفيف لما قد يحيط بالطلاق من تنافر وخصام.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي مثل هذا البيان الحكيم لأحكام الطلاق يُبَيِّنُ الله لكم آياته في سائر الأحكام التي أنزلها على رسوله محمد لتعقلوا الحكمة منها، وتعرفوا ما فيه صلاح دينكم ودنياكم فتعملوا بما أمركم الله به لتنالوا جزيل ثوابه في الآخرة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

### شرح المفردات

حَذَرَ الموت: خوفاً من الموت.  
يُقْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا: ينفق في سبيل الله ابتغاء ثوابه.  
يُقْبِضُ: يُضَيِّقُ في الرزق.  
وَيَبْصُطُ: يُوَسِّعُ في الرزق.

### الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله

وبعد أن بيّن الله أحكام الطلاق انتقل إلى الكلام عن الجهاد في سبيل الله ممهداً لذلك بإعطاء صورة عن الذين يتقاعسون عنه خوفاً من الموت، قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ: والرؤية هنا بمعنى العلم، والخطاب لكل قارئ وسامع، أي: أَلَمْ يَتَّهِ عِلْمُكَ - أيها القارئ - إلى حال أولئك الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلُوفٌ - وكانوا فوق العشرة<sup>(١)</sup> آلاف، وما كان خروجهم إلا فراراً وخوفاً من الموت، ولكن

(١) العشرة فما دونها جمع قلة، فيقال فيها: آلاف ولا يقال أُلُوفٌ إلا لجمع الكثرة الذي يزيد على العشرة.

الموت المقدّر لهم قد استقبلهم ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ أي إنهم ماتوا بأمر الله ومشيتته ثم أعادهم إلى الحياة مرة أخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ فهو سبحانه المتفضل على الناس بإيجادهم من العدم، والمتفضل عليهم بالشرائع الهادية إلى الحق، والمتفضل عليهم بالطيبات من الرزق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي إن أكثر الناس لا يشكرون نعم الله التي أنعمها عليهم، فلا يصرفون نعم الله على طاعته ولا يعملون بها لخير الناس، بل يتخذون من هذه النعم سبيلاً إلى البغي والظلم والفساد في الأرض.

والعبرة من الآية أن الإمامة بيد الله لا بيد غيره، فلا ينبغي أن يخاف الإنسان من شيء مُقدّر عليه، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مُغترّ، وقد جعل الله هذه الآية مقدمة لدعوة أمة محمد إلى الجهاد في سبيله لدحر المعتدين عليهم.

ولكن مَنْ هُم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت؟ هناك عدّة روايات في شأنهم من تلك الروايات: إنهم قوم من بني إسرائيل خرجوا هاربين من الوباء فنزلوا وادياً، فأماتهم الله ثم أحياهم، إجابةً لدعوة نبي من أنبيائهم.

وفي رواية أخرى: إنهم قوم من بني إسرائيل دُعوا إلى الجهاد في سبيل الله، فخرجوا من ديارهم فراراً منه حتى لا يموتوا في ساحة القتال، فأماتهم الله عقاباً لهم على فرارهم، ثم أحياهم ليبين قدرة الله عليهم ويذكّرهم بأن الإمامة والإحياء بيد الله.

ويرى الشيخ محمد عبده<sup>(١)</sup> أن هذا مثلاً لا قصّة واقعية، وأن الموت الذي وقع بالقوم هو مجازي، والمراد ببيان سُنته تعالى في الأمم التي تجبن ولا تدافع

(١) نقلاً باختصار عن تفسير المنار.

عن نفسها من المعتدين عليها، أن عَدُوَّها سوف يَنكَلُ بها، ويلغي استقلالها، ويفرّق شملها، فتصير كالأموات.

ومعنى حياتهم هو عَوْدَةُ الاستقلال لهم حيث جمعوا صفوفهم ووثقوا رابطتهم وقهروا أعداءهم، فخرجوا من ذُلِّ العبودية التي كانوا فيها إلى عِزِّ السَّيَادَةِ والحرية، هذا وإن القرآن أطلق اسم الحياة على الحالة المعنوية كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وبعد أن بيّن القرآن أن الفرارَ من الموت لا يُنْجِي مما قدّره الله، دعا المؤمنين إلى القتال في سبيل الله بقوله ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وسبيل الله هو سبيل الحق، فكل قتال لإعلاء كلمة الله والدفاع عن دينه هو قتال في سبيل الله، وكل قتال في سبيل رفع الظلم ونُصْرَةِ المظلومين هو قتال في سبيل الله. وقد سأل الرسول ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»<sup>(١)</sup> ثم يختم الله الآية بقوله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو سبحانه سميع لأقوال المؤمنين التي تدلّ على رغبتهم في الجهاد، عليمٌ بالدوافع التي تدفعهم إلى ذلك.

ولمّا كان القتال يحتاج إلى بذل المال في تجهيز الجيش المقاتل وتوفير السلاح له، بيّن الله ثواب من يساهمون في ذلك بقوله:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ أَضْلُ الْقَرْضِ: ما يُعْطِيهِ الرجل لغيره ليجازى عليه وأن يكون ديناً يرده إليه، وإقراضُ

(١) متفق عليه.

اللَّهُ قَرْضاً حَسَناً هو التصدُّقُ قاصداً رضا الله وثوابه بعيداً عن الرياء وطلب السمعة، والمراد بالقَرْضِ الحَسَنِ هنا: الإنفاقُ على القتال في سبيل الله بدليل مجيء الآية هنا بعد الدعوة إلى القتال في سبيل الله، كما يشمل الإنفاق على المحتاجين، والإنفاق على المصالح العامة لإقامة مشروعات اجتماعية أو عمرانية يعمُّ نفعها جميع الناس.

وقد حَثَّ القرآن على بذل المال في سبيل الله وسماه قَرْضاً له، لأن فيه إشارة إلى أنه سيرة لصاحبه، وأيِّ سموّ تعلو به نفس المنفق وأي حافز يدعو به إلى العطاء عندما يعلم أن المقرض هو رب العالمين الذي يملك كل شيء في هذا الوجود، وأنه سبحانه خالق كل شيء، وأنه الغني الذي لا يحتاج إلى شيء، وهذا مما يرغب المنفق على الإنفاق في سبيل الله، لأن هذا القَرْضُ يُسَدِّدُهُ اللَّهُ بالثواب العظيم، وزيادة على ذلك ﴿فِيضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيراً﴾ والضَّعْفُ مِثْلُ الشَّيْءِ وَضِعْفُهُ أَي مِثْلَاهُ، وَأَضْعَافاً كَثِيراً: أمثالاً كثيرة، ولم يذكر الله سبحانه العدد ليدل على الكثرة الوافرة التي لا حَدَّ لها، وهذا الجزاء من الله يشمل خير الدنيا والآخرة. فالإنفاق في سبيل الله يلقي في النفس سعادة وطمأنينة ويدفع الضر عن الجماعة، ويبارك الله في رزق المعطي ويجزيه الجزاء الأوفى يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ فالله سبحانه هو القابض الذي يقتر الرزق على من يشاء وَيَبْسُطُ الرزق لمن يشاء، وإذا كان الرزق بيد الله فعلى الغني أن يستشعر أن ما بيده قَبِضٌ من الله سبحانه، وأنَّ عليه أن يَشْكُرَ الله بإنفاقه في الحلال دون الحرام، وأن يُنْفِقَ من ماله في سبيل النفع العام الذي يقيم مجتمعاً بعيداً عن الآفات الاجتماعية ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإلى الله وحده ترجعون بعد وفاتكم فيحاسبكم يوم القيامة على كل ما فعلتموه من خيرٍ أو شرٍّ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ  
لَهُمْ أَرْبَعُونَ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ  
إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ  
عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ  
﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا  
قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ  
يُؤْتْ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ  
بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ  
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ .

### شرح المفردات

الْمَلَإُ: أشرافُ القوم ووجهائهم .  
أَرْبَعُونَ لَنَا مَلِكًا: وَلَ عَلَيْنَا مَلِكًا نَرْجِعُ إِلَيْهِ وَنَعْمَلُ بِرَأْيِهِ .  
هَلْ عَسَيْتُمْ: هل الأمر كما أتوقعه منكم .  
تَوَلَّوْا: اَعْرَضُوا وَتَخَلَّفُوا .  
أَنَّى: كيف .  
اصْطَفَاهُ: اختاره .  
بَسْطَةً: سعة .

### توحد بني إسرائيل بعد الهزائم التي حلت بهم

ثم يُبَيِّنُ الْقُرْآنُ لَنَا مَا جَرَى لِقَوْمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ أَخْرَجَهُمْ أَعْدَاؤُهُمْ مِنْ  
دِيَارِهِمْ بِسَبَبِ تَفَرُّقِهِمْ وَجِبْنِهِمْ وَعَصْيَانِهِمْ لِلَّهِ، ثُمَّ مَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ حِينَ تَوَحَّدَتْ  
صَفُوفُهُمْ وَأَطَاعُوا اللَّهَ، وَتَفْصِيلُ ذَلِكَ:

لَمَّا دَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَرْضَ فَلَسْطِينَ بَعْدَ وَفَاةِ مُوسَى ، ظَلُّوا سِتًّا وَخَمْسِينَ وَثَلَاثُمِائَةَ سَنَةٍ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ مَلِكٌ ، وَإِنَّمَا كَانَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ قَضَاةٌ يُعَيِّنُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ ، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ يَقِيمُونَ أَنْفُسَهُمْ قَضَاةً عَلَيْهِمْ .

وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ عُرْضَةً لِلْغَزْوِ وَالْقِتَالِ مِنَ الْأُمَمِ الْمَجَاوِرَةِ لَهُمْ كَالْفَلَسْطِينِيِّينَ وَالْمِدْيَانِيِّينَ وَالْعِمَالِقَةَ مِنَ الْعَرَبِ ، وَكَانَتِ الْحَرْبُ سِجَالاً بَيْنَهُمْ .

وَكَانَ مِنْ آخِرِ قَضَاةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ النَّبِيُّ «صَمُوئِيلُ» وَكَانَ مَحْبُوباً مِنْ قَوْمِهِ ، فَلَمَّا شَاخَ وَكَبِرَ ، وَقَعَتْ حُرُوبٌ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْفَلَسْطِينِيِّينَ ، فَانْهَزَمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَسَقَطَ مِنْهُمْ كَمَا تَقُولُ التَّوْرَةُ ٣٠,٠٠٠ قَتِيلٌ ، وَانْسَحَبَ الْفَلَسْطِينِيُّونَ آخِذِينَ مَعَهُمْ تَابُوتَ عَهْدِ الرَّبِّ إِلَى «أَشْدُود» وَهِيَ إِحْدَى مُدُنِ الْفَلَسْطِينِيِّينَ الْخَمْسِ الرَّئِيسِيَّةِ .

وَكَانَتِ الْأُمُورُ الْمُتَّبَعَةُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ إِذَا تَوَجَّهُوا إِلَى حَرْبٍ قَدَّمُوا أَمَامَ جُنُودِهِمْ تَابُوتَ عَهْدِ الرَّبِّ لِيُقَوِّيَ مِنْ عِزَائِهِمْ وَيَسْتَنْصِرُوا بِهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَكَانَ فِي هَذَا التَّابُوتِ عَصَا مُوسَى وَثِيَابُهُ ، وَعَصَا هَارُونَ ، وَلَوْحَانِ مِنَ الْحِجَارَةِ عَلَيْهِمَا كِتَابَةُ مِنْ وَصَايَا الرَّبِّ وَمِنَ التَّوْرَةِ الَّتِي كَتَبَهَا مُوسَى بِيَدِهِ قَبْلَ وَفَاتِهِ ، وَلَكِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ هُزِمُوا وَلَمْ يَفْطِنُوا إِلَى أَنَّ هَزِيمَتَهُمْ كَانَتْ بِسَبَبِ عَصْيَانِهِمْ لِلَّهِ ، وَأَنَّ مَجْرَدَ إِحْضَارِ التَّابُوتِ لَا يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُهُمْ .

وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ قَدْ أُرْهَقُوا مِنْ كَثْرَةِ اعْتِدَاءِ الدُّوَلِ الْمَجَاوِرَةِ عَلَيْهِمْ ، وَأُصِيبُوا بِهَزَائِمٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى تَفَرِّقِهِمْ فَكَانَ كُلُّ سَبْطٍ مِنْ أَسْبَاطِهِمْ اسْتَأْثَرَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، فَصَارُوا دَوْلًا صَغِيرَةً مُتَفَرِّقَةً ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ إِذَا اتَّحَدُوا جَمِيعاً فِي دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ يَحْكُمُهَا حَاكِمٌ وَاحِدٌ تَضَاعَفَتِ قُوَّتُهُمْ وَهَابَتْهُمْ



الدول المجاورة، واستقرّ رأيهم أن يطلبوا من نبيهم «صمويل» أن يجعل لهم ملكاً عليهم فاستجاب لرغبتهم.

والقرآن يقص علينا بعض ما جرى بين نبيّهم وبين شيوخ بني إسرائيل مما فيه من العبرة عندما تتوحد الأمة وتنبد التفرقة وتجاهد في سبيل الله، يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ الملاء: هم الكبراء وأشراف القوم ويطلق اسم الملاء على الجماعة، والمعنى: أَلَمْ يَنْتَهِ عِلْمُكَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إذ طلبوا من نبيهم في ذلك الوقت أن يجعل عليهم مَلِكًا يجمع شملهم ويقودهم تحت لوائه للقتال في سبيل الله إعلاءً لكلمته، واسترداداً لعزّتهم المسلوبة، وأرضهم المغتصبة.

أجابهم نبيهم على طلبهم هذا ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ الاستفهام في قوله للتقرير والتحذير، أي هل الأمر كما أتوقعه منكم أنكم لا تقاتلون إذا فُرض عليكم القتال جُبناً منكم، وقد بنى نبيهم توقعه هذا على تاريخهم الطويل في إعراضهم عن الجهاد وتقهقرهم أمام عدوّهم، فأنكروا أن يقع ذلك منهم ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والمعنى: أي شيء يمنعنا مِنْ أَنْ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ واسترداد حقوقنا؟ وتابعوا قولهم: ﴿وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ وقد طردنا العدو من أوطاننا، وحيل بيننا وبين أبنائنا حيث أصبحوا عبيداً للغزاة يُسَخَّرُونَهُمْ لخدمتهم ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ أي فلما فُرضَ عليهم قتال أعدائهم أعرضوا وتخلّفوا عنه جُبناً إِلَّا نَفَرًا قَلِيلًا مِنْهُمْ آثَرُوا الْآخِرَةَ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا طمعاً فيما عند الله من الثواب. وهذا إخبار عما سيقع منهم بعد أن يجعل الله عليهم مَلِكًا يأمرهم

بالقتال في سبيل الله فيُعرض أكثرهم عنه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وصف الله بني إسرائيل بالظلم لأنهم ظلموا أنفسهم بالرّضى بالذلّ، وخالفوا أمر ربهم بالجهاد بعد أن عاهدوا الله عليه .

### اختيار طالوت ملكاً على بني إسرائيل

استجاب الله لرغبة بني إسرائيل في تولية ملكٍ عليهم، فقال لهم نبيهم بما أوحاه الله إليه ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ أي إن الله اختار من بينكم شخصاً استوفى كل صفات ومؤهلات الرّئاسة وجعله ملكاً عليكم، وهذا الملك هو (طالوت) وأطلق عليه اسم (شاول) في العهد القديم وطالوت لقّبهُ، وهم اسم مصدر من الطول وُصِفَ به للمبالغة في طول قامته .

ولكن بدل أن يرضى بنو إسرائيل فيما اختاره الله لهم، أثاروا الاعتراض على ذلك: ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ أنّى: بمعنى كيف، وهو استفهام مستعمل في التعجب . لقد قالوا لنبيهم: من أي جهة استمدّ طالوت الملك وليس في سلالته ملك متوارث؟ وإنما قالوا ذلك لأنّ النبوة كانت في سبط لاوى بن يعقوب، والملك في سبط يهوذا ولم يكن طالوت من أحد السّبطين، وتابعوا قولهم: ونحن أشرف بني إسرائيل أحقّ بالملك منه نسباً وحسباً ﴿وَلَمْ يُؤْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ وبالإضافة إلى ذلك فهو فقير، لا يملك من المال ما يملكه بعضنا، فكيف يكون ملكاً علينا؟ أجابهم نبيهم على ادعائاتهم هذه: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي إن الله اختاره وفضّله عليكم، واختياره من الله يجب أن يُقابَل بالإذعان والتسليم لإرادة الله، وآتاه الله علماً واسعاً يصرف به أموركم بحكمة ودراية لمصالحكم، وآتاه جسماً قويّ البنية طويل القامة ما يجعله قادراً على التمرّس

في القتال، وقُدمت البسطة في العلم على البسطة في الجسم للدلالة على أن الفضائل العلمية أعلى وأشرف من الفضائل الجسميّة وأصلح للقيادة ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ وَاللَّهُ يُعْطِي الْمَلِكَ وَالرِّيَاسَةَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ بِمَقْتَضَى حِكْمَتِهِ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واللّه واسع الفضل والعطاء، يختص برحمته من يشاء، وهو عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.



﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آدَمُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

### شرح المفردات

آية مُلْكِهِ: علامة ملكه.

التَّابُوت: صندوق فيه بعض ألواح التوراة ومقدسات بني إسرائيل.

فيه سَكِينَةٌ من ربكم: فيه طمأنينة لقلوبكم من ربكم.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتَ بِالْجُنُودِ: أي فلما جاوز طالوت بجنوده مكان إقامتهم.

يَطْعَمُهُ: يَذُقُّهُ.

عُرْقَةُ بَيْدِهِ: المقدار من الماء الذي يملأ الكف.

جَاوَزَهُ: قَطَعَهُ وَتَعَدَّاهُ.

### طالوت يقود بني إسرائيل إلى النصر

ثم بين النبي صمويل لبني إسرائيل البرهان والدليل على أن طالوت قد اختاره الله ملكاً عليهم:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ أي قال لهم نبيهم إن علامة صحة ملك طالوت ورياسته عليكم أن يأتيكم التابوت الذي سلب منكم ويرجع إليكم على يديه ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ فيه سَكِينَةٌ وطمأنينة لقلوبكم لأن في عودته بُشْرَى بالسلطان والعِزَّة التي فقدتموها ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ والتابوت الذي ارتبطت به قلوبهم فيه بقية مما ترك آل موسى وهارون، وهي عصا موسى وثيابه، وثياب هارون، وبعض الألواح من التوراة التي تكسرت ﴿تَحْمِلُهَا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت، فلما رأى بنو إسرائيل ذلك أذعنوا له بالرياسة وملكوه عليهم. وختم نبيهم قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن في إعادة التابوت إليكم الذي فيه شارة عزكم لدليلاً يدفعكم إلى طاعة طالوت والرضا به، إن كنتم تدعون للحق وتؤمنون به.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي فلما جاوز طالوت بجنوده مكان إقامتهم، وكان قد سار بجيشه سيراً حثيثاً فأصاب جنده عطش شديد، فأراد طالوت أن يختبر عزمهم وصبرهم على العطش فقال لهم: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ

مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ﴿٢٤٨﴾ أَيِ إِنْ أَلَلَّ اللَّهُ مَخْتَبِرَكُمْ وَمِمْتَحْنَكُمْ بِنَهَرٍ ﴿٢٤٩﴾ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴿٢٥٠﴾ أَيِ مَنْ شَرِبَ مِنْ هَذَا النَّهْرِ فَلَيْسَ مِنْ أَتْبَاعِي الَّذِينَ هُمْ تَحْتَ إِمْرَتِي ، فَعَلِيهِ أَنْ يَتْرَكْنِي وَلَا يُصَاحِبْنِي ﴿٢٥١﴾ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴿٢٥٢﴾ وَمَنْ لَمْ يَشْرَبْ مِنَ النَّهْرِ وَلَمْ يَذُقْهُ فَهُوَ مِنْ أَتْبَاعِي ﴿٢٥٣﴾ إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴿٢٥٤﴾ وَلَكِنْ يُبَاحُ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَنَالَ غُرْفَةً مِنْ مَاءِ النَّهْرِ بِيَدِهِ ﴿٢٥٥﴾ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴿٢٥٦﴾ فَلَمَّا جَاءُوا إِلَى النَّهْرِ خَالَفَ أَكْثَرَ الْجُنُودِ أَمْرَ طَالُوتَ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَعْثُونَ مِنْهُ عَثًّا ، غَيْرَ أَبْهَيْنَ لِنَهْيِهِ .

فطالوت إذ طلب من جيشه الامتناع عن الشرب من النهر باستثناء غرفة منه بيدهم هو ليعلم مَنْ الْمُطِيع لأوامره مِنَ الرافض لها ، فطاعة الجيش للقائد هي من العوامل الفعالة للنصر على الأعداء ، وربما لخطة حربية كما يقول العلامة محمد أبو زهرة رحمه الله : «خشي أنهم إن مكثوا حول النهر وملأوا مزاداتهم وبطونهم واستراحوا واستجمعوا أحسّ بهم أعداؤهم فاجتازوا النهر إليهم وأبعدوهم عنه ، فأراد طالوت أن يأخذ عدوّه بالجولة الأولى المفاجئة فيجتاز النهر قبل أن يحسوا به ، وإن اجتازوه صار النهر في قبضتهم يشربون منه ما شاءوا من غير حاجة إلى التزود ، وكانوا هم على الماء ، وعدّوهم أسفل منه»<sup>(١)</sup> .

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أَيِ فَلَمَّا قَطَعَ طَالُوتُ النَّهْرَ وَتَعَدَّاهُ مَعَ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى الْعَطَشِ وَلَمْ يَنَالُوا مِنَ النَّهْرِ إِلَّا غُرْفَةً مِنْهُ ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ الْقُرْآنُ بِالْإِيمَانِ حَيْثُ قَالَ : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ إِيْمَانَهُمْ بِاللَّهِ دَعَاهُمْ إِلَى تَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ وَالصَّبْرِ عَلَى الْعَطَشِ الشَّدِيدِ ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ

(١) نقلاً عن كتاب زهرة التفاسير - دار الفكر العربي - القاهرة .

بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴿٢٥٠﴾ أَيَّ إِنَّ الَّذِينَ اجْتَاوَزَا النَّهْرَ مَعَ طَالُوتَ وَأَطَاعُوهُ فِي الْامْتِنَاعِ  
عَنِ الشَّرْبِ مِنَ النَّهْرِ كَانُوا فَرِيقَيْنِ: فَرِيقًا شَعَرَ بِالْخَوْفِ مِنْ كَثْرَةِ الْعَدُوِّ وَقَالُوا:  
لَا قُدْرَةَ لَنَا الْيَوْمَ عَلَى مُحَارَبَةِ جَالُوتَ وَجُنُودِهِ. وَفَرِيقًا ثَانِيًا لَمْ تَرْهَبْهُ كَثْرَةُ  
الْعَدُوِّ، وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ﴾ الظَّنُّ  
هنا بِمَعْنَى الْيَقِينِ، أَيَّ قَالَ الْمُؤَقِنُونَ بِالْبَعْثِ وَالرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
فِي حَاسِبِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَيُشَبِّهِهُمْ عَلَى جِهَادِهِمْ بِالْجَنَّةِ ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ  
فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كَمْ: تَفِيدُ الْكَثْرَةَ، وَالْفِئَةُ: الْجَمَاعَةُ، أَيَّ قَالُوا: لَا تَخَافُوا  
مِنْ كَثْرَةِ جُنُودِ جَالُوتَ فَكَثِيرًا مَا انْتَصَرَتْ قَلَّةٌ مُؤْمِنَةٌ عَلَى جَمَاعَةٍ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ  
وَتَيْسِيرِهِ ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أَيَّ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ لَهُمْ.



﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا  
صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٥١)  
فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ  
الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ  
بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ  
عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥٢﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ  
وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٣﴾

### شرح المفردات

بَرَزُوا: ظَهَرُوا لِقِتَالِهِمْ.

ثَبَّتْ أَقْدَامَنَا: قَوَّنَا عَلَى الْجِهَادِ.

## هزيمة جالوت

ويُتابع القرآن فيبين ما دار في رحى المعركة بين طالوت وجالوت مع بيان نفسيّة المؤمنين آنذاك .

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ ولَمَّا خرج طالوت وَمَنْ معه من المؤمنين لمقاتلة جالوت وجنوده وظهروا لهم في ساحة المعركة ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ يقال: أَفْرَغَ الإناء إذا صَبَّ ما فيه من ماء<sup>(١)</sup>، أي قال المؤمنون: يا رب، أَفِضْ وَصَبَّ علينا صَبْرًا يُقَوِّي من عزائمتنا، لقد بدأوا معركتهم مع العدو طالبين من ربهم بأن يمنحهم الصبر، والصبر هو عُدَّة القتال الأولى في الحرب، وهو العامل الفعّال في النصر على الأعداء ﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا﴾ كما طلبوا من ربهم الثبات في مقارعة الأعداء وأن لا يجعل الفرار منهم سبيلاً إلى قلوبهم، وعبر عن الثبات بالأقدام لأن بها يكون البقاء في المعركة ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ كما طلبوا من ربهم أن يُؤَيِّدَهم وينصرهم بفضله على الجاحدين لألوهيته، الظالمين في الأرض .

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ استجاب الله دعاء المؤمنين فهزموا أعداءهم بإذن الله وتوفيقه، وفي هذه المعركة قتل داود جالوت ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ولَمَّا مات طالوت تولّى داودُ القيادة بعده وأعطاه الله الملك بسبب شجاعته ورجاحة عقله، ووهبه الحكمة وهي وضع الأمور في مواضعها والتدبير المحكم ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ وَعَلَّمَهُ الله ما يشاء أن يعلمه إياه من العلم الذي خَصَّه به من سياسة الرعيّة، والعدل بينهم، كما أنعم عليه بالنبوة وعلم التوراة .

(١) جعل الصبر بمنزلة الماء المنصبّ عليهم يثلج به صدورهم .

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي ولولا أن يسلط الله الصالحين من عباده على المفسدين لمحو فسادهم، ويُسَلِّط الأشرار بعضهم على بعض لإضعافهم وكف شرورهم عن العباد، لولا هذا الدفع والتصادم بينهم لَعَمَّ الفسادُ في الأرض<sup>(١)</sup> ولما عمرت الأرض بالصالحين من عباد الله الذين هم حرب على أهل الباطل في كل زمان، والله ناصرهم ما نصروا الحق وأرادوا الإصلاح في الأرض ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي إن الله ذو فضل عظيم على جميع الخلق لا يُدرك الناس قدره ولا يعرفون مداه.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي هذه الآيات القرآنية التي ذكرها الله لك يا محمد من أخبار بني إسرائيل فيها العبر والعظات لقومك، وهي الحق من ربك، وهي دليل على صدق نبوتك، لأنك لم تتلقَ هذه الأخبار من علمائهم وأخبارهم كما أنك أمي لم تطلع على كتبهم ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وإنك يا محمد من رسل الله الذين أرسلهم لهداية خلقه.

### كيف قتل داود جالوت؟

ورد في كتب اليهود الدينية قصة قتل داود لجالوت نذكر ملخصها فيما يلي:

بعد أن اجتاز طالوت النهر مع جنوده وتقدم نحو القوات الفلسطينية، خَرَجَ مُبَارِزٌ منهم قويّ البأس اسمه (جليات) والقرآن أطلق عليه اسم (جالوت) وكان لابساً دِرْعاً، وعلى رأسه خوذة من نحاس وفي يده رمح وترس وكان يزهو بكبرياء ويقول: أنا الفِلَسْطِينِيُّ هل من مُبَارِز؟

(١) هذا ما يعرف حديثاً بنظرية: تنازع البقاء والبقاء للأصلح.



وكانت القاعدة آنذاك أنهم ينتخبون ممثلين من الجيوش المتحاربة يتبارزون قبل بدء القتال، والجانب الذي ينتصر أبطاله في هذه المبارزات ترتفع معنويات جنوده كثيراً، مما يكون له أثر كبير على سير المعركة، وكان بُروز جالوت هكذا لباساً دروعه المخيفة هذه مدعاة لبث الرعب في نفوس الإسرائيليين.

وكان لرجل من بني إسرائيل يدعى «يسى» عدة أولاد، ثلاثة منهم تبعوا طالوت «شاول» إلى الحرب، فأراد «يسى» أن يرسل طعاماً إلى أبنائه الثلاثة فأرسل إليهم أخاهم داود إلى مكان ساحة القتال بالطعام، فرأى داود جالوت يروح ويغدو متبختراً في درعه الحديدي يدعو من يبارزه ويتهمكم على الإسرائيليين. ساء داود ذلك وراح يهدّد جالوت بالقتل. سمع طالوت بذلك فاستدعى داود وحذّره من تصرّفه هذا، فأجابه داود أنه مستعدّ لمحاربة جالوت وأن عنده من المؤهلات ما يستطيع التغلب عليه، فقال:

بينما كنت أرعى الغنم فكان يجيء أسد تارة ودبّ تارة أخرى ويخطف شاة من القطيع فكنت أخرج وراءه وأضربه وأخلص الشاة من فيه وأقتله، فقد قتلت أسداً ودباً وسيكون مصير هذا الفلسطيني مثل واحد منهما، فقال له طالوت: اذهب وليكن الرب معك، وألبسوا داود درعاً وخوذة من حديد ولم يكن قد لبسهما من قبل، فلم يستطع السير بهما ونفضهما عن نفسه، وتقدم ليقاتل جالوت وليس معه إلا عصاه والحجارة التي انتقاها من الوادي ووضعها في جرابه ومقلاعه في يده، وتقدّم جالوت للقاء داود ولكن داود أسرع وأخذ حجراً من جرابه ورماه بالمقلع فأصابه في جبهته، وسقط جالوت على الأرض من شدة الضربة، فأسرع داود إليه وأخذ سيفه منه وقتله به وقطع رأسه، ولما رأى الفلسطينيون ذلك خافوا وبدأوا في الفرار، ولحقهم جنود بني إسرائيل وقتلوا منهم الكثير.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ  
بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ  
الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا  
جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ  
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَتَأَيَّهَا  
الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ  
وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ .

### شرح المفردات

منهم من كَلَّمَ اللَّهُ: وهو موسى عليه السلام الذي كلمه الله بلا واسطة.  
الْبَيِّنَات: الحجج والأدلة.  
بِرُوحِ الْقُدُسِ: أي بالروح المقدس المطهر وهو الملك جبريل.  
خُلَّةٌ: الصداقة والمودة.

### التفاضل بين رسل الله الكرام

ولما ذكر الله سبحانه ما خَصَّ به داود من الملك والنبوة والحكمة، بَيَّنَّ في  
الآية التالية أن رسل الله ليسوا على درجة واحدة من الفضل، بل إن بعضهم  
أفضل من بعض - وكلهم فاضلون - قال الله تعالى:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ تلك الرسل: المراد بهم جماعة  
الرُّسُل الذين تقدَّم ذِكْرُهُمْ في هذه السورة، وهؤلاء الرسل فضل بعضهم على  
بعض في المكانة، وما خَصَّ كل واحد منهم من معجزات، وإن كانوا جميعاً قد  
تساووا في شرف النبوة والرِّسالة الإلهية.

ثم يبين الله بعض مظاهر التفضيل بينهم فقال سبحانه :

﴿مَنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي من الرُّسل من فَضَّلَهُ اللَّهُ بتكليمه مباشرة دون وسيط كما حصل لموسى عليه السلام ، وقد جاء في القرآن : ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ والدرجات: جمع درجة، وهي المنزلة الرفيعة السامية، أي ومن الرسل من رفعه الله على غيره من الرسل مراتب سامية، كإبراهيم عليه السلام الذي اتخذهُ الله خليلاً، وموسى الذي كلمه الله، وإدريس الذي رفعه الله مكاناً علياً، ومن فَضَّلَهُ الله هو عيسى عليه السلام حيث جعله الله يُحيي الموتى ويُبْرِئ الأكمه والأبرص بإذنه.

والإجماع منعقدٌ على أنَّ أفضلَ الرُّسل جميعاً محمد ﷺ لأن رسالته عامة للبشرية جمعاء، فقد خاطب الله رسوله محمداً بقوله: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وخاطبه الله أيضاً بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومحمد ﷺ أُوتِيَ من الآيات التي تشهد بصدق نُبُوَّتِهِ ما لم يُؤْت أَحَدٌ من الأنبياء قبله، ولو لم يُؤْت إِلَّا الْقُرْآن وحده لكفى به فضلاً على سائر ما أُوتِيَ الأنبياء، لأنه المعجزة الباقية على مدى الدهر دون سائر معجزات الأنبياء وهي في متناول شعوب الأرض في كل زمانٍ ومكانٍ.

وقد قال النبي ﷺ: «أنا سيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ»<sup>(١)</sup>. أما ما روي عن النبي ﷺ قوله: «لا تفضلوني على

(١) أخرجه مسلم وأبو داود.

الأنبياء»<sup>(١)</sup> فإن ذلك من باب تواضعه، أو حرصاً منه للترفع عن الجدال بأن يذكر بعضهم الأنبياء بما لا ينبغي أن يذكر من صفاتهم ويقلل من احترامهم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي وأعطى الله عيسى ابن مريم المعجزات الظاهرة الواضحة الدلالة على صدق نبوته ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي وقوّيناه بجبريل عليه السلام، لأن عيسى كان مضطهداً من أعدائه الرومان ومن قومه بني إسرائيل، ولم يكن له قدرة للدفاع عن نفسه، فتولّى الله حمايته بملائكته الأطهار، ومن بينهم الملك جبريل.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: ولو شاء الله ما اقتتل الناس بعد كل نبيّ بأن جعلهم متفقين على اتباع الرُّسل الذين جاءوا بالحق من عند ربهم ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي من بعد ما جاءهم الرسل بالمعجزات الواضحة والآيات الظاهرة الدالة على الحق الذي يجب اتّباعه ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ وسبب هذا الاختلاف هو أنهم يختلفون في العقول والمدارك والفهم وتقبل الحق ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ فمنهم من آمن لأن قلبه يتّجه إلى الحق، ومنهم من كفر لسوء جبلّته وفساد سريره، وهذا الاختلاف بينهم حول الدّين أدّى بهم إلى التنازع والتخاصم والتقاتل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ كرّر الله ذلك تأكيداً لما سبق، أي لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يتقاتلون ولكن الله تركهم لاختيارهم حتى يتبين الخبيث من الطيّب ثم يُجازي كلّاً حسب عمله ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ والله سبحانه يفعل ما تقتضيه حكمته، فلم يشأ منع الاقتتال بين أتباع الرسل بل أراد أن تكون هكذا طبيعة الإنسان على وجه الأرض.

(١) أخرجه البخاري.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ تخصيص المؤمنين بالخطاب لأنهم هم المكلفون بتنفيذ أوامر الله ومنها الإنفاق في وجوه الخير، ويشمل فريضة الزكاة، وصدقة التطوع الزائدة على فريضة الزكاة، ويقول أحد المفسرين: ظاهر هذه الآية أنها مرادٌ بها الإنفاق في جميع وجوه البر، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال يترجح منه أن يكون الإنفاق موضعه في سبيل الله وهو الإنفاق على الجيش والمجاهدين الذين يُدافعون عن الوطن وما يحتاجون إليه من سلاح وعتاد. ومما يلفت النظر في الآية قوله تعالى ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ففيه إشعار للمؤمنين بأن المال الذي بين أيديهم هو رِزْقُ رَزَقَهُمُ اللهُ إياه، فمن الواجب أن يطيعوا الله فيما أمرهم به من الإنفاق وأن لا ييخلوا في بذل بعضه في سبيل الله ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ﴾ أي من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يجدون فيه ما يتقربون به إلى الله مما يُكسب ببيع أو تجارة أو يفتدون بذلك أنفسهم من عذاب الله ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ الخُلَّةُ: المَوَدَّةُ والمحبة بين صديقين، أي يوم القيامة لا تنفعهم صداقة ومودة مهما قويت ولن تجديهم شفاعة شفيح إلا لمن يأذن الله له ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ والكافرون هم الذين جحدوا وجود الله وأنكروا وحدانيته وأفسدوا في الأرض، هؤلاء هم الظالمون لأنفسهم لأنهم تعدوا على حدود الله، وأوردوا أنفسهم موارد الهلاك.



﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

### شرح المفردات

الْقَيُّوم: القائم على أمور الخلق بالتدبير والرعاية.  
سِنَّة: ما يتقدم النوم من الفتور، وهو النعاس.  
كُرْسِيُّه: عِلْمُه سبحانه، أو كناية عن ملكه وعظمته.  
لَا يَأُودُهُ: لا يثقله ولا يشق عليه.

### آية الكرسي تظهر عظمة الله

تُعَرَّفُ هذه الآية باسم: آية الكرسي لِوُرُودِ اسم الكرسي فيها، وقد ورد عن النبي ﷺ أن هذه الآية أعظم آية في القرآن، وإنما كانت كذلك لأنها جمعت من أحكام الألوهية وصفات الله سبحانه ما لم تجمعها آية أخرى: فهي تؤكد معنى وحدانية الله، وتغرس في قلب المؤمن المهابة والخشية منه سبحانه لما يتصف به من العظمة الإلهية.

وهذه الآية تشتمل على عشر جُمَلٍ، كل جملة منها تشتمل على صفة أو صفتين من صفات كمال الله تعالى وسلطانه الشامل على الكون وتدبيره له، وإليك عرضاً لبعض معانيها:

الجملة الأولى: وهي ما جاء في مطلع الآية ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الله: هذا الاسم أكبر أسمائه تعالى وأجمعها وهو اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، ولم

يُشَنِّ وَلَمْ يَجْمَع ، فالله اسم الموجود الحق الجامع لصفات الألوهية التي لا يشاركه فيها سواه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا هُوَ، وذلك أن بعض الناس عبدوا غير الله، فَعَبَدَ بعضهم الشمس والكواكب، وَعَبَدَ بعضهم النار، وَعَبَدَ بعضهم الأوثان، واعتبروا كل هذه آلهة فكانت عبادتهم باطلة، إنما المعبود بحق المستحق للعبادة هو الله سبحانه.

الجملة الثانية: وهي ما جاء في الآية: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أي إن الله له الحياة الكاملة الأزلية، فلا أول لها، والباقية فلا آخر لها، فهو الحي الذي لا يموت، وسائر الأحياء على وجه الأرض يعترهم الموت والفناء.

فهو سبحانه حيٌّ بذاته وكلُّ ما عداه من الأحياء فهو حيٌّ به، أي: إنه يستمدُّ حياته منه، بينما حياة المخلوقات تفارقها الحياة حين تموت، إن حياة الله تعالى هي التي تفيض الحياة على كل حيٍّ على وَجْهِ الأرض فهو سبحانه الذي يحيي ويميت.

﴿الْقَيُّومُ﴾ أي إنه سبحانه القائم بنفسه الذي لا يقوم بغيره، والقائم على كل شيء بالتدبير والحفظ والرعاية، فهو القائم على خَلْقِهِ بِأَجَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَأَرْزَاقِهِمْ. وقد رُوِيَ عن ابن عباس أن كلمة ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ هي اسم الله الأعظم، وجاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين الأولى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] والثانية في فاتحة سورة آل عمران: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١-٢]»<sup>(١)</sup>.

فالآية الأولى تُثَبِّتُ لِلَّهِ الْوَحْدَانِيَّةَ مَعَ الرَّحْمَةِ، والآية الثانية تُثَبِّتُ لِلَّهِ مَعَ الْوَحْدَانِيَّةِ: الْحَيَاةَ وَالْقَيُّومِيَّةَ.

(١) أخرجه ابن ماجه.

وعن علي رضي الله عنه أنه قال : «لما كان يوم معركة بدر قاتلتُ، ثم جئت إلى رسول الله أنظر ماذا يصنع، قال : فجئت وهو ساجدٌ يقول : يا حيُّ يا قيُّوم لا يزيد على ذلك، ثم رجعتُ إلى القتال ثم جئتُ وهو يقول ذلك، فلا أزال أذهب وأرجع وأنظر إليه، وكان لا يزيد على ذلك إلى أن فتح الله له»<sup>(١)</sup>.

**الجملة الثالثة :** وهي ما جاء في الآية ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ السُّنَّةُ : ما يتقدم النوم من الفتور وهو النعاس، أي إن الله سبحانه لا يصيبه نعاس ولا نوم، وهذا يؤكد بأن الله قيُّوم على كل شيء لأن النعاس والنوم يؤديان إلى الغفلة عن تدبير أمر الخلائق وهذا ينافي معنى الألوهية الحققة، وكلمة ﴿لَا تَأْخُذْهُ﴾ فيها دلالة على أن للنوم سُلْطَةً قَاهِرَةً تأخذ كلَّ حيٍّ أخذاً، فلا يستطيعون التغلب عليه، وذلك مستحيل على الله الذي هو القاهر فوق عباده.

**الجملة الرابعة :** وهي ما جاء في الآية ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فهذه الجملة تفيد المُلْكِيَّةَ الْمُطْلَقَةَ لربِّ العالمين لكل ما في الكون من أجرام سماوية وملائكة وما في الأرض من إنسانٍ وحيوانٍ ونباتٍ وجبالٍ وبحارٍ وأنهارٍ وغير ذلك، فكل أولئك ملكه، خاضِعُونَ لمشيئته، وهو سبحانه الحافظ لوجودهم.

**الجملة الخامسة :** وهي قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ الاستفهام هنا معناه الإنكار والنفي، أي : لا يشفعُ عند الله أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وإنما يأذن الله لمن يشاء عن علم وعدلٍ وحكمة.

وهذه الجملة التي تُبَيِّنُ أن الشَّفَاعَةَ لا تكون إلا لمن يأذن الله له تظهر عموم سُلْطَانِ الله، وأنه انفرد بتدبير أمور الخلائق فلا إرادة تتعلق بأمور الخلق غير

(١) أخرجه النسائي.



إرادته، فهو يُعطي الإذن بالشفاعة لمن يشاء ويمنعها ممن يشاء.

وهذا الذي ذكره القرآن من اختصاص الله بالشفاعة وأنه سبحانه يأذن بها لمن يريد، إنَّ هذا لَسَبِيلٌ إصلاحِيٌّ كبير يقطع الأمل أمام العصاة الذين يقصّرون في واجباتهم الدينية اتكالاً على ما يدّعون بأن لهم شُفَعَاء، غير عابئين بأعمالهم السيئة التي ستؤدي بهم إلى عذاب الله. وجمهور العلماء أثبتوا شفاعَةَ النبي محمد ﷺ للعصاة من أُمَّتِهِ بعد أن يأذن الله بها ويرضى تكريماً له ورحمةً بالناس، وقد وردت أحاديث عن النبي ﷺ في هذا الصدد.

**الجملة السادسة:** وهي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فهذه الجملة تأكيد لكمال علم الله وسُلْطَانِهِ في هذا الوجود، وإحاطة علمه بكل أحوال الناس، لا يخفى عليه شيء، فالله سبحانه يعلم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وهو ما يعلمونه من شؤون سابقة أو حاضرة من أمور دنياهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فهو يعلم ما يكون مغيباً عنهم من أمور ستقع في المستقبل، أو ما يكون من أمور الآخرة، فالعلم بما بين أيديهم وما خلفهم كناية عن إحاطة علم الله بماضي العباد وحاضرهم ومستقبلهم، وما يعرفونه من شؤونهم الدنيوية وما لا يعرفونه.

**الجملة السابعة:** وهي قوله تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ<sup>(١)</sup> مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ إحاطة العلم معناها العلم الكامل بالأمر، أي إن البشر لا يعلمون شيئاً من معلومات الله إلا ما يشاء الله لهم أن يعرفوه، وبالقدر الذي أراد أن يعلمهم إياه على أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ.

**الجملة الثامنة:** وهي قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فَسَّرَ الْعُلَمَاءُ «كُرْسِيُّهُ» بِالْعَرْشِ، كما فسَّر بعضهم «كُرْسِيُّهُ» بأنه كناية عن سعة ملكه

(١) يقول الأصبهاني: الإحاطة بالشيء علماً هي أن تعلم وجوده وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود به.

وَسُلْطَانَهُ وَقُدْرَتَهُ وَشَمُولَ إِرَادَتِهِ. وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «كُرْسِيُّهُ: عِلْمُهُ»، كَمَا ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِي.

وقيل: الكرسي غير العرش، وهما مخلوقان لله تعالى، وهما من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، فنفوّض علم حقيقتهما إليه مع كمال تنزيهه عن الجسمية وعن مشابهته المُحَدَّثَات، اهتداءً بقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الجملة التاسعة: وهي قوله سبحانه مُظْهِراً قُدْرَتَهُ ﴿وَلَا يَشُوْدُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي لا يُثْقَلُهُ وَلَا يُتَّعَبُهُ حِفْظُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَتَدْبِيرُ شَأْنُونَهُمَا، لِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ مُنْزَعٌ عَنِ التَّعَبِ وَعَنِ مُشَابَهَةِ الْحَوَادِثِ، فَكُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ فِي حِفْظِ اللَّهِ، فَأَجْرَامُ السَّمَاءِ مِنْ نُجُومٍ وَكَوَاكِبٍ يَحْفَظُهَا اللَّهُ بِنِظَامِ الْجَاذِبِيَّةِ بِحَيْثُ لَا تَتَصَادَمُ، وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا مِنْ كَائِنَاتٍ فِي حِفْظِ اللَّهِ خَاضِعَةٌ لِلْقَوَانِينِ الَّتِي سَنَّا اللَّهُ بِحِكْمَتِهِ بِمَا يَكْفُلُ لَهَا الْحَصُولَ عَلَى عَيْشِهَا وَاسْتِمْرَارِ نَوْعِهَا.

الجملة العاشرة: وهي قوله سبحانه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ فالله سبحانه علاً بصفاته وذاته عن مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ عَالِي الْمَنْزِلَةِ وَالْقَدْرِ بِتَنْزِيهِهِ عَنِ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِينَ، وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ. كَمَا أَنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ الْعَظِيمُ قَدِيراً وَمَهَابَةً وَشَرْفاً، كُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ، فَلَا شَيْءَ أَعْظَمَ مِنْهُ.

هذه آية الكرسي التي تملأ القلب مهابةً وَخَشْيَةً، فَهِيَ تُعْلِنُ أَنَّ اللَّهَ مُتَفَرِّدٌ بِالْأُلُوْهِيَّةِ، قَائِمٌ عَلَى تَدْبِيرِ الْكَائِنَاتِ، لَا يَغْفُلُ لِحِظَةٍ عَنْ أُمُورِ خَلْقِهِ، وَهُوَ الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَلَا مَعْبُودَ بِحَقِّ الْكَوْنِ إِلَّا هُوَ، الْوَاحِدُ الْأَحَدُ. وَفِيهَا تَكَرَّرَ اسْمُ اللَّهِ ظَاهِراً أَوْ عَنْ طَرِيقِ الضَّمَائِرِ فِي سِتَّةِ عَشَرَ مَوْضِعاً.

وقد أخرج الإمام مسلم بما معناه عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ هِيَ آيَةُ الْكَرْسِيِّ».

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

### شرح الكلمات

لا إكراه في الدين: أي لا إجبار على الدُّخول في الإسلام.  
 الرُّشْدُ: الهدى أو الحق.  
 الْغَيِّ: الضلال أو الباطل.  
 بِالطَّاغُوتِ: كل ذي طُغيانٍ، أو كل معبود سوى الله.  
 الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى: الإيمان بالله، وهو العقيدة المحكمة التي لا يضل من تمسك بها.  
 لَا انْفِصَامَ لَهَا: لا انقطاع لها.  
 وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا: مُعِينُهُمْ وَمُتَوَلِّي أُمُورِهِمْ.  
 يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ: يخرجونهم من نور الحق والإيمان إلى ظلمات الكفر.

### حُرِّيَّةُ الْقَدَّيْنِ

من الأمور الهامة التي تشهد بعظمة الإسلام تقريره حرية المعتقد في زمنٍ شهد العالم سلسلة من الصراعات الدموية في سبيل إرغام الغير على اعتناق دينهم.

والإسلام في تقريره حرية المعتقد سبق المَدَنِيَّةُ الحديثة بقرونٍ كثيرة، فقد صدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أقرته الجمعية العامة للأمم

المتحدة في العاشر من كانون الأول سنة ١٩٤٨ حيث نصّ هذا الإعلان في المادة الثامنة عشرة منه على ما يلي: «إنّ لكلّ شخص حقاً في حرية التفكير والضمير والدين . . . وحرية الإغراب عن ديانته أو عقيدته بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر . . .».

والإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً قرّر حرّية المعتقد بقوله تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ الإكراه: هو إلزام الغير على قول أو فعل لا يريده عن طريق التخويف والتعذيب، والمراد بالدين في الآية: دين الإسلام، والمعنى كما جاء في تفسير ابن كثير: «لا تُكْرَهُوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه بيّن واضح، جليّ دلائله وبراهينه لا يُحتاج إلى أن يُكره أحدٌ على الدخول فيه، بل مَنْ هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوّر بصيرته دخل فيه على بيّنة . . .» ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ أي قد تبين الرشد والحق في دين الإسلام كما تبين الضلال والباطل فيما سواه.

نزلت هذه الآية في قومٍ من الأنصار، أو في رجل منهم، كان لهم أولاد قد هودّوهم أو نصّروهم، فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه، فنهاهم الله عن ذلك، حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام<sup>(١)</sup>.

وروي أنه كانت المرأة من الأنصار تكون مقلاتاً (أي التي لا يعيش لها ولد) فتتذر إن عاش ولدها أن تجعله مع أهل الكتاب على دينهم، فجاء الإسلام وطوائف من أبناء الأنصار على دينهم، فقالوا: إنما جعلناهم على دينهم ونحن نرى أن دينهم أفضل من ديننا، وإذ جاء الله بالإسلام فلنكرههم<sup>(٢)</sup>، فنزلت الآية

(١) عن تفسير الطبري.

(٢) فلنكرههم: أي يكرهونهم على الدخول في الإسلام.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾<sup>(١)</sup> فالآية تقرر أن الإكراه في الدين لا ينبغي فعله، لأن التدين لا يكون إلا عن اقتناع وإذعان قلبي، واتجاه بالنفس إلى الله، وتلك معانٍ لا يتصور منها الإكراه، والتدين والإكراه لا يجتمعان، ومن أكرهه على أمرٍ ازداد له نفوراً وكرهاً.

ويقول الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية: «لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ دَلَائِلَ التَّوْحِيدِ بَيَاناً شَافِئاً قَاطِعاً لِلْعُذْرِ، قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ بَعْدَ إِضْوَاحِ هَذِهِ الدَّلَائِلِ لِلْكَافِرِ عُذْرٌ فِي الْإِقَامَةِ عَلَى الْكُفْرِ إِلَّا أَنْ يُقْسَرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَيُجْبَرَ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَجُوزُ فِي دَارِ الدُّنْيَا الَّتِي هِيَ دَارُ الْإِبْتِلَاءِ، إِذْ فِي الْقَهْرِ وَالْإِكْرَاهِ عَلَى الدِّينِ بُطْلَانٌ مَعْنَى الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ» ونظير هذا ما جاء في القرآن: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] كما جاء في القرآن: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] أي ليس في استطاعتك يا محمد ولا من وظائف الرسالة الإلهية التي بُعثت بها أن تُكره الناس على الإيمان، كما جاء في القرآن: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ الطَّاغُوت: هو الشيطان أو الصنم، وكل ما عُبد من دون الله، وهو مأخوذ من الطُّغْيَان: وهو مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِي الشَّيْءِ، أي فمن يجحد ربوبية كل معبود من دون الله فيكفر به ويصدق بالله بأنه إلهه وربّه ومعبوده ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ وَالْعُرْوَةُ: ما يَسْتَمْسِكُ بِهِ وَيَعْتَصِمُ، وَالْوُثْقَى: الْمُحْكَمَةُ، شَبَّهَ اللَّهُ مَنْ تَمَسَّكَ بِالْإِيمَانِ أَوْ بِالْإِسْلَامِ بِحَالٍ مِنْ تَمَسَّكَ بِأَوْثَقِ عُرَى النِّجَاةِ الَّتِي لَا يُخْشَى مِنْهَا الْخَلَلُ، وَهِيَ الْإِسْتِقَامَةُ عَلَى

(١) عن تفسير الطبري.

طريق الحق القويم الذي لا يضلّ سالكه ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ لا انقطاع لها ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميعٌ لأقوال الناس، عليمٌ بما يُسرّونه في نفوسهم وما يُعلنونه.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الوليُّ: الناصر والمعين، والمعنى: الله سبحانه مُعينُ المؤمنين وناصرهم ومتوليهم بهدايته إلى طريق الحق يخرجهم من ظلمات الكُفر والمعاصي إلى نور الهداية والإيمان ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ أي والذين كفروا بالله وأنكروا رسالة النبي محمد ﷺ هؤلاء يتولى أمرهم الطاغوت وهم الشياطين وسائر المُضِلِّين عن طريق الحق ويوقعونهم في ظلمات الكفر والضلال ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي أولئك الذين ركنوا إلى الطاغوت هم الذين يُعَذَّبون في النار يوم القيامة عذاباً لا نهاية له.

هذه الآية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾ قيل إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩] لأن النبي محمداً ﷺ قد دعا العرب الوثنيين وحثهم على الدخول في دين الإسلام وقاتلهم عندما قاتلوه ولم يرض منهم إلا الإسلام بعدما اضطهدوه، ولأن الجزيرة العربية كانت المنطلق لدعوة الإسلام إلى شعوب العالم.

وقيل: إن هذه الآية غير منسوخة، وإنما نزلت في أهل الكتاب وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى في العالم إذا أدوا الجزية، وهي ضريبة قليلة من المال مقابل حمايتهم. والذي تسكن إليه النفس أنّ هذه الآية غير منسوخة، لأن التدين كما ذكرنا سابقاً لا يكون مع الإكراه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

### شرح المفردات

أَلَمْ تَرَ: ألم تعلم، وهذا الاستفهام للتعجب.  
حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ: خاصمه وجادله في شأن ربه.  
فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ: تَحَيَّرَ وَدْهَشَ وانقطعت حجته.

### طُغْيَانُ الْحُكَّامِ

ثم ينتقل القرآن إلى عَرَضِ لَوْيٍ من ألوان الطغيان الذي يظهر على بعض الحُكَّامِ الطغاة الذين يظنون أنهم وصلوا إلى مرتبة الألوهية، فيُنكرون وجود الخالق الذي خلقهم، وَيُمَعِنُونَ في إيقاع الظلم بالعباد، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ والاستفهام للتعجب، أي أَلَمْ تعلم إلى حال هذا الملك الذي خاصم إبراهيم وجادله في شأن خالقه، والمحااجة: هي المخاصمة والمغالبة في القول ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وكان هذا الْمَلِكُ قد طغى وَتَجَبَّرَ وادعى الألوهية، وطغيان هذا الملك هو بسبب ما أنعم الله عليه من الملك والسلطان الدنيوي على قومه فجعله مسرفاً في الضلال.

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وكان الملك قد سأل إبراهيم عن ربه الذي يدعو له عباده، فوصف إبراهيم ربه بأوضح ما يُعرف به وبالصفة

التي لا يمكن أن يشاركه فيها أحدٌ، ولا يمكن أن يدّعيها أحدٌ، فَرَبُّهُ هو الذي ينشئ الحياة في جميع الكائنات الحية، ويُزيل الحياة عنها بالموت، والتعبير بالفعل المضارع ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يفيد معنى الاستمرار الذي يُرى في كل يوم.

﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ فأجاب الملك إبراهيم: أنا أفعل ذلك فأحيي بالعفو عن محكوم عليه بالموت فلا أقتله، فيكون ذلك مني إحياء له، وأقتل من أردتُ قتله فيكون ذلك مني إماتةً له. وهكذا يفعل الطغاة في كل العصور فتكون أرواح العباد مستباحة لهم لكل من ينتقد سياستهم أو يخالفهم في رأيهم.

ولنرجع إلى جواب الملك لإبراهيم الذي يدلّ على جهله وقصر نظره، ولذلك اقتضت حكمة إبراهيم أن يغلق باب الجهل الذي صدر عن الملك ويجابه بموضوع آخر لا يستطيع أن يجادله فيه:

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي قال إبراهيم للملك: إِنَّ رَبِّي هو الذي يُطلع الشمس من جهة المشرق بهذا النظام والسنن الحكيمة التي نُشاهدها كل يوم، فإذا كنت أيها الملك تدّعي الألوهية فأظهر أمارات قدرتك وسلطانك على الكون بأن تأتي بالشمس من جهة غروبها ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي تحير هذا الذي كفر وادّعى الألوهية، واضطرب ولم يجد جواباً ولم يستطع أن يتفوّه بكلمة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فالذين يعاندون الحق هم ظالمون، وإذا استحكم الظلم في النفس أصبحت كل البراهين لا تجديهم نفعاً، ولذلك لم يكتب الله الهداية لهؤلاء، بل شاء أن يضلوا في ضلالهم يعمهون.



﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ .

### شرح المفردات

أَنَّى يُحْيِي: كيف يحيي .  
 خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا: ساقطة حيطانها على سقوفها .  
 بَعَثَهُ: أحياه الله بعد مماته .  
 لَمْ يَتَسَنَّهْ: لم يُغَيِّرْهُ مَرَّ السنين .  
 وانظر إلى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا: أي كيف نرفعها من أماكنها من الأرض فنردّها إلى أماكنها في الجسم .

### دليل على البعث يوم القيامة

ويتابع القرآن فيقدّم لنا دليلاً على إثبات البعث يوم القيامة مستقى من القصة التالية، قال تعالى:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ هذه الآية معطوفة على الآية قبلها، والمعنى: هل رأيت يا محمد مثل الذي مرّ على قرية، والقرآن لم يسمّ الشخص ولا القرية لأنه يقصد من هذه القصة العبرة، وقد روي أنّ الذي مرّ على القرية هو عُزَيْرٌ، وقيل: إرميا، والقرية: هي بيت المقدس التي خربها وهدمها بختنصر ﴿وَهِيَ

خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا ﴿ خاوية : ساقطة ، وعروشها : جمع عرش وهو السقف ، أي سقط السقف ثم سقطت الشيطان عليه ، وهذا المنظر ينبئ عن خراب القرية وذهاب عمرانها . ثم إن عُزَيْرًا مَرَّ عَلَى هذه القرية وهو راكب على حمار ، فتعجب مما رأى وقال كما ذكر القرآن ﴿ قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي كيف يحيي الله هذه القرية التي فנית وخربت بعد موتها؟ ويلاحظ أن التساؤل من عُزَيْرٍ كان منه عن كيفية الإحياء ولم يكن شكًا منه في قدرة الله على إحيائها ، فهو مؤمن صادق الإيمان . أراد عُزَيْرٌ أن يستريح قليلاً ، فربط حمارة وتناول من شجر هذه القرية التين والعنب وشرب من عصير فاكهتها ، ووضع ما زاد عنه في وعاء له ، فأراد الله أن يريه آيةً تدل على عظيم قدرته التي تعلو وتفوق عمارة هذه القرية ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ﴾ أي جعله الله ميتاً مائة سنة ، وظاهر هذه الإماتة إخراج الروح من الجسد ، كما أمات حمارة معه ، ثم أعمى الله عن جسده أبصار الإنس والسباع والطيور . فلما مضى على موته سبعون سنة وَجَّهَ اللَّهُ ملكاً من ملوك فارس إلى بيت المقدس ليعمره ، فعمروه في ثلاثين سنة ، فلما تمت المائة سنة من موت عُزَيْرٍ أحياه الله بما ذكره القرآن ﴿ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ أي ثم أحياه ، ويوم القيامة يسمّى يوم البعث لأن الموتى يُبعثون فيه من قبورهم . فالله سبحانه أعاد إليه الحياة كما كان سابقاً ، فسأله الله تعالى بواسطة ملك من الملائكة ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ أي : كم لبثت في رقادك؟ قيل له ذلك مراعاةً على ما يظن أنه كان نائماً في تلك المدة التي أفاق منها من نومه ، فأجاب الرجل : ﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ أي مكثتُ في نومي هذا يوماً ، قال هذا قبل النظر إلى الشمس ، ثم التفت فرأى بقية من نور الشمس ، فقال : أو بعض يوم . فقد أماته الله غدوة ثم بعثه حياً بعد تلك المدة الطويلة قبل الغروب .

ولكن الملك أجابه بهذا القول الذي أدهشه وأزاح عن عينيه ما كان غائباً عنه ﴿ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ﴾ أي لم تلبث نائماً تلك المدة القصيرة التي ظنتها

بل مكثت ميتاً مائة عام ثم بعثك الله حيّاً، ونظر عُزَيْرٌ حوله فرأى من عمارة القرية وأشجارها ومبانيها التي بُنيت ما دَلَّ على ذلك.

ثم أراه الله معجزةً أخرى تدلّ على قدرته متمثلة بطعامه وشرابه ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ يَتَسَنَّهْ : أي لم تُغَيِّرْهُ السُّنُونُ، أي فانظر إلى طعامك وشرابك اللذين كانا معك لزدك وقد مرّ عليهما مائة عام وما زالا صالحين للأكل والشراب لم يلحقهما فساد أو تبديل، ولم يغيرهما مضي هذه الأعوام الطويلة ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ أي وانظر أيضاً إلى حمارك كيف نخرت عظامه وتحللت وتفتّتت، وهذا يدلّ على مرّ السنين على حين بقي الطعام والشراب على حالهما لم يلحقهما تغيير ولا فساد ﴿وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ ولنجعل من قصتك هذه دلالةً على البعث بعد الموت يوم القيامة، ومعجزة ناطقة على قدرة الله سبحانه، ووجه كونها آية للناس إنّ الناس تناقلوها فيما بينهم، وإن أحفاد عُزَيْر كانوا يذكرون أنه مات وانتهى أمره، ولمّا وجدوه حيّاً وأعلمهم بما كان له وما أصابه من موت ثم كيف أحياه الله، أدرك الناس علامةً من علامات قدرة الله على البعث.

وتابع الملك خطابه لِعُزَيْرٍ مُلْفِتاً نظره إلى آيةٍ أخرى من آيات الله في إحياء الموتى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ وأمّا العظام التي أمر بالنظر إليها فهي عظام الحمار، ومعنى نُنْشِرُهَا : نرفعها، أي انظر إلى العظام كيف نرفع بعضها على بعض من أماكنها من الأرض فنَرُدُّها إلى مواضعها في الجسم، وهناك قراءة هي ﴿نُنْشِرُهَا﴾ بالراء بمعنى نبعثها إلى الحياة من جديد ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ بالأدلة الحسيّة الماديّة هذه المعجزات، ورأى ما رأى من عظمة الإبداع الإلهي، أيقن وأقرّ بقدرة الله سبحانه، وأنه القادر على فعل أي شيء.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ ثُبُورٌ  
 قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ  
 إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ  
 سَعِيًّا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

### شرح المفردات

فَصُرْهُنَّ: أَمْلَهُنَّ إِلَيْكَ وَقَطَعَهُنَّ.  
 يَأْتِينَكَ سَعِيًّا: سَرِيعًا.  
 عَزِيزٌ: الْقَوِيُّ الْغَالِبُ.

### إحياء الله للموتى

ثم تأتي القصة التالية وفيها يُبين القرآن قدرة الله على إحياء الموتى، يسوقها القرآن لكل من يرتاب في صحة البعث يوم القيامة، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي واذكر يا محمد وقت أن خاطب إبراهيم ربه طالباً منه أن يريه كيفية إحيائه للموتى، والسؤال يدل على إيمان إبراهيم بإحياء الله للموتى، فهو لا يشك في قدرة الله على البعث وإنما يسأل عن الكيفية في ذلك، كما أنه يريد أن ينتقل من مرتبة البرهان العقلي إلى مرتبة المشاهدة، فإنَّ الحسَّ يحمل الإنسان على الإذعان أكثر مما يحمله الدليل العقلي. ومعاذ الله أن يرتاب إبراهيم في قدرة الله سبحانه، فهو رسول من عند الله ومن أولي العزم من الرسل. تأمل كيف استهل إبراهيم دعاء ربه بكلمة ﴿رَبِّ﴾ فهو يعترف له بالربوبية الحققة، ويُقرُّ بأنه خالقه ومربيّه والقائم على أمره.

أجاب الله إبراهيم على سؤاله بقوله: ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِن﴾ أي أتقول ذلك وتطلبه، فهل أنت لم تؤمن؟ فإذا كنت مؤمناً، فلماذا تسأل هذا السؤال؟ ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي قال إبراهيم: بل كنت في حيرة في كيفية الإعادة لا في أصل القضية، فطلبت ذلك منك يا رب ليطمئن قلبي، فلا استدلال بالعيان بعد الاستدلال بالبرهان أثبت في النفس وأرسخ في الإقناع.

أجاب الله إبراهيم على طلبه بكيفية إحيائه للموتى وطلب منه: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ فَصُرْهُنَّ: أي اضممهن إليك، أو بمعنى: قطعهن، أو أملهن إليك. أمر الله إبراهيم بأن يأخذ أربعة من الطير، كل طير يُخالف الآخر في نوعه، وأن يضمهن إليه ليتأمل كل واحد منها فيعرف ميزات كل طائر عن غيره، ثم يذبحهن ويقطعهن، ثم أمره أيضاً ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي ثم ضع يا إبراهيم على كل مرتفع من الأرض جزءاً من تلك الأشلاء المتقطعة من تلك الطيور الأربعة ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ ثم قل لهن: تعالين بإذن الله، فتعود إليك مسرعات تطير إليك وهن الطيور الأربعة عيناها التي عرفتها قبل ذبحها وتفريق أجزائها على الجبال المحيطة بك ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ واعلم أن الله لا يعجز عن شيء، وهو ذو حكمة بالغة في كل أمر.

وفي هذه القصة الموجزة درس للناس ليؤمنوا بالبعث بعد الموت، فكما أن أجسام تلك الطيور بعد ذبحها وتقطيعها وتفرق أجزائها على الجبال أعاد الله الحياة لها، فكذلك جسد الإنسان بعد موته وتحلله وتفرق أجزائه في التراب أو اليم، يجمع الله أجزائه يوم القيامة، ويعيد إليه الحياة للحساب ولمجازاته على أعماله من ثواب أو عقاب.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوهَا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ .

### شرح المفردات

- سبيل الله: هو الطريق الموصل إلى مرضاته كالجهاد للدفاع عن دينه وأعمال البر المتنوعة .
- سنابل: جمع سنبلة وهي ما فوق الساق وفيها الحب كالقمح وما شابه ذلك .
- يضاعف لمن يشاء: يضاعف الثواب لمن يشاء من أهل الإحسان .
- مَنًّا: المَنُّ أن يذكر المنفق فضله على من أحسن إليه ويفتخر عليه .
- أذى: الأذى هنا، أن يتناول المنفق على أخذ الصدقة بكلام يؤذيه أو بعمل ما .
- رثاء الناس: مراعاة لهم .
- صفوان: الحجر الأملس .
- وابلٌ: مطر شديد .
- صلداً: الحجر الصلب الأملس .

## ثواب الإنفاق في سبيل الله

وبعد أن ذكر الله القصص السابقة وما فيها من البراهين الدالة على صحة البعث يوم القيامة رَغَّبَ اللَّهُ في الآيات التالية بالإنفاق في سبيل الله وبيّن ثواب ذلك بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ والإنفاق في سبيل الله هو الإنفاق بما يرضيه كأعمال البر المتنوعة والجهاد في سبيله. فالله سبحانه أراد أن يُصَوِّرَ لعباده ثواب الذين ينفقون أموالهم في سبيله بأن مثْلَهُمْ كَمَثَلِ زَارِعٍ زَرَعَ فِي الْأَرْضِ حَبَّةَ قَمْحٍ أَوْ شَعِيرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَأَنْبَتَتْ هَذِهِ الْحَبَّةُ نَبْتَةً تَحْمِلُ سَبْعَ سَنَابِلَ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، فَشَبَّهَ اللَّهُ الْمُتَصَدِّقَ بِالزَّارِعِ، وَشَبَّهَ الصَّدَقَةَ بِالْبَذْرِ الَّذِي يُعْطِي الْخَيْرَ الْكَثِيرَ، أَيِ إِنْ أَلَّهَ يُعْطِي بِكُلِّ صَدَقَةٍ سَبْعِمِائَةَ حَسَنَةً.

وعلى هذا فإذا عَلِمَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ إِذَا بَذَرَ حَبَّةً فِي الْأَرْضِ أَخْرَجَتْ لَهُ سَبْعِمِائَةَ حَبَّةٍ كَانَ ذَلِكَ دَاعِيًا إِلَى الْحَرَصِ عَلَى زَرْعِ الْحَبُوبِ لِمَا فِيهِ مِنَ الرِّبْحِ الْوَفِيرِ لَهُ، فَكَذَلِكَ إِذَا عَلِمَ الْمُنْفِقُ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُ كَزَارِعِ حَبَّةِ الْقَمْحِ سَيَأْخُذُ أَجْرَهُ سَبْعِمِائَةَ ضِعْفٍ، كَانَ ذَلِكَ حَافِزًا لَهُ عَلَى فَعْلِ الْخَيْرِ، وَدَافِعًا لَهُ إِلَى إِنْفَاقِ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وقد رُوِيَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَمَّا حَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ حِينَ أَرَادَ الْخُرُوجَ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ جَاءَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ وَقَالَ: أَقْرَضْتَهَا لِرَبِّي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ»<sup>(١)</sup> وَفِيمَا أُعْطِيتَ» وَقَالَ عَثْمَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيَّ جِهَازٌ مِنْ لَا جِهَازَ لَهُ (أَيِ مِنْ لَا سِلَاحَ وَلَا رُكُوبَ لَهُ) فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ فِيهِمَا.

(١) أَمْسَكْتَ: أَبْقَيْتَ عِنْدَكَ.

وفي الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُتِبَ لَهُ سَبْعُمِائَةِ ضِعْفٍ»<sup>(١)</sup>.

كما رُوِيَ عَنْهُ ﷺ قَوْلُهُ: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يَضَاعِفُ: الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعُمِائَةِ ضِعْفٍ»<sup>(٢)</sup>.

﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَضَاعِفُ ثَوَابَ الْحَسَنَاتِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالضُّعْفُ هُوَ الزِّيَادَةُ عَلَى أَصْلِ الشَّيْءِ فَيَجْعَلُهُ مِثْلَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أَيِ كَثِيرِ الْجُودِ وَجَزِيلِ الثَّوَابِ، عَلِيمٌ بِمَنْ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي مَرْضَاتِهِ وَطَاعَتِهِ.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ جِهَادٍ وَفِي وَجْهِهِ الْخَيْرِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا عَلَى مَنْ أَنْفَقُوا عَلَيْهِمْ وَلَا يُتْبِعُونَهُ أَذًى لَهُمْ بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْفِعْلِ، هَؤُلَاءِ لَهُمْ ثَوَابُ عَمَلِهِمْ عَلَى الْأَمْوَالِ الَّتِي أَنْفَقُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ يُلْحَقَهُمْ مَكْرُوهٌ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ الْإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَدْفَعُ خَطَرَ الْأَعْدَاءِ وَيَقْضِي عَلَى أَسْبَابِ الْفِتَنِ الدَّاخِلِيَةِ الَّتِي يُولِّدُهَا الْفَقْرُ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَتَدَ فِرَاقِهِمُ الدُّنْيَا عَلَى مَا خَلَّفُوا وَرَاءَهُمْ لِأَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ مَا تَقَرَّرَ بِهِ أَعْيُنُهُمْ.

ولنرجع إلى بيان معنى المنِّ والأذى، فالمنُّ: هو أن يذكر المُنْفِقُ فضله على المحتاج إلى عطائه كأن يقول له: لقد أحسنتُ إليك، وأنقذتك من الضيق

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه مسلم.



الذي أنت فيه وتفضّلت عليك بمالي، أو التحدّث أمام الناس كقوله: لقد أعطيت فلاناً مالاً لَمَّا عرفتُ أنه بحاجة إليه، فيبلغ الفقير خبر ذلك فيؤذيه.

والأذى: هو أن يتناول على الفقير كأن يقول له: كم تسألني العطاء وقد بليت بك وأراحني الله منك، وفي الترفع عن إيذاء الفقير يقول أحد الصالحين: «إذا أعطيت فقيراً مالاً، ورأيت أن سلامك يثقل عليه فلا تُسلم عليه».

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَّدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى﴾ القول المعروف: هو الرّدّ الجميل لطالب العطاء بأن يقول له كلاماً جميلاً يُطَيِّبُ خاطره ويحفظ له كرامته، كأن يعتذر إليه بعدم استطاعته، أو يدعو له بالتيسير والفرج. والمغفرة: هي العفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسؤول، أو عفو من جهة السائل لأنه إذا رده رداً جميلاً عذره. فالقول الجميل والمغفرة للسائل خير عند الله من صدقة يتصدق عليه بها ويؤذيه بسببها.

وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «الكلمة الطيبة صدقة»، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق<sup>(١)</sup> فعليك أيها المسلم أن تلقى صاحب الحاجة بوجه بشوش لتكون مشكوراً إن أعطيت ومعدوراً إن منعت ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ أي عما يتصدق به الناس ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعَجِّل بالعقوبة لمن يمتنون على الفقراء ويؤذونهم بالقول، بل يمهّلهم لعلهم يتوبون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ خاطب الله المؤمنين بأن لا يضيّعوا ثواب صدقاتهم على المحتاجين بالمنّ عليهم بإظهار فضلهم عليهم أو إيذائهم بالقول أو الفعل فيكون مثلهم ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ أي كالمُرائي الذي ينفق أمواله ليرائي بها الناس فتبطل بذلك صدقته، والمُرائي يُظهر للناس أنه يريد بصدقته وجه الله، والواقع هو أنه يريد ثناء الناس

(١) أخرجه مسلم.

عليه ليُقال إنه كريم ورجل صالح ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهذا المرائي لا يصدّق بوحداية الله وربوبيته لهذا الكون، ولا يصدّق بأنه مبعوث بعد الموت ليجازي على عمله ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ الصّفْوَانُ: هو الحجر الكبير الأملس. أي مثَلُ ذلك المرائي بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب يظنه المرائي له أرضاً طيبة خصبة صالحة للزراعة ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ فأصاب هذا الحجر مطرٌ شديدٌ فأزال ما عليه من تراب ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي تركه أجرد نقيّاً من التراب الذي كان عليه.

لقد شبه الله أعمال هؤلاء المرائين الذين لا يبتغون وجه الله في إنفاقهم ولا يبتغون رضاه كحال حجر أملس عليه قليل من التراب يوهم الناظر أنه خصب منتج للزراعة ثم ينزل عليه المطر الشديد فيزيل ما عليه من التراب ويكشف ما حوله، فإذا هو لا ينبت ولا يصلح للزراعة، فثوب الرياء يشق دائماً عما تحته، لأنّ المنافق يظن أن له أعمالاً صالحة، فإذا كان يوم القيامة اضمحلت أعماله وذهبت لأنها لم تكن لله، كما أذهب المطر الشديد ما على هذا الصّفْوَان من التراب.

وفي الحديث الشريف الذي أخرجه مسلم ذكرٌ للأصناف الثلاثة - وهم الغازي والعالم والجواد - التي يُقضى فيها أول الناس يوم القيامة، يقول النبي ﷺ: «وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ. فَعَرَفَهُ نِعَمُهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي هؤلاء الذين يراءون الناس بما تصدّقوا به، عليهم أن يتذكروا أن هذا المال الذي يتصدّقون به لم يكسبوه بمقدرتهم لأن القدرة في عمل شيء أو كسبه هي لله وحده، فما كان لهم أن يراءوا

وَيَمْنُوا وَيُؤْذُوا الْفُقَرَاءَ ، فالمال مال الله وهو الذي مكنهم منه بقدرته وفضله .  
وقد يكون المعنى : إن هؤلاء المرائين لا يقدرّون يوم القيامة على نيل ثواب شيء مما فعلوه في الدنيا ، لأنهم لم يطلبوا بعملهم الأجر والثواب من الله .  
﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ والله سبحانه لا يوفق الكافرين إلى الخير والرشاد في أفعالهم ، وفي ذلك إشارة إلى أن المن والأذى في الإنفاق والرياء من خصال الكفار ، فيجب أن يُقلع عنها أهل الإيمان فهي صفات لا تليق بهم .



﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأْتَتْ أَكْطَاهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ .

### شرح المفردات

ابتغاء مرضاة الله : طلباً لرضاء الله .

تثبيتاً من أنفسهم : تصديقاً و يقيناً بثواب الإنفاق في سبيل الله .

جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ: بستان كثير الشجر بمرتفع من الأرض.

وَإِبِلٌ: مطر شديد.

فَطَلٌ: المطر الخفيف، وهو الرِّذاذ.

إِغْصَارٌ: ريح عاصفة.

وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ: ولا تقصدوا بما تنفقون الرديء والحرام.

تُغْمِضُوا فِيهِ: تتساهلوا وتتسامحوا في أخذه، وتغضوا بصركم عنه.

حميد: من أسماء الله تعالى، أي المحمود على نعمه.

### الترغيب في الإنفاق في وجوه الخير

ويتابع القرآن الكلام عن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ومدى ثوابهم بإعطاء صورة بلاغية رائعة تحث الناس على الاقتداء بهم مقابل صورة من ينفقون أموالهم رياء الناس فيقول الله سبحانه:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ يشبه الله تعالى حال الذين ينفقون أموالهم من أجل الحصول على رضا الله ﴿وَتَشْبِيحاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي يقيناً من أنفسهم وتصديقاً بوعده الله بما أعد لهم من الأجر، أو بمعنى: يتثبتون من الموضع الذي يضعون فيه صدقاتهم في طاعة الله، هؤلاء مثلهم ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ الجَنَّةُ: هي البستان. والربوة: المكان المرتفع من الأرض. أي مثل هؤلاء المنفقين أموالهم في رضا الله كمثل بستان يقع على مرتفع من الأرض وقد أصابه مطر شديد، فزاد ذلك في خصوبته وضاعف من ثمره ﴿فَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي فأعطى هذا البستان ثمرأ بمثلين ثمر غيره ﴿فَإِنْ لَمْ يَصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌ﴾ الطَّلُ: هو المطر الخفيف، أي إن هذا البستان ينتج من الثمر على كل حال سواء أكان المطر غزيراً أم قليلاً، فالقليل والكثير من المطر له نفع عظيم لهذا البستان.

لقد شَبَّهَ اللَّهُ هؤلاء المنفقين أموالهم عن إيمانٍ صادقٍ قاصدين بإنفاقهم وَجْهَ الله، شبههم بإنفاقهم الكثير والقليل من أموالهم في مرضاة الله ببستان بربرة من الأرض خصبة تنتج ضعفي غيرها من الأراضي من الثمار في حال غزارة المطر وفي حال قلته. فصدقة هؤلاء المنفقين في نماء لا ينقطع، يعود نفعها على المجتمع ويعود نفعها عليهم لِمَا يشعرون به من طمأنينة ولما سينالونه من الثواب الجزيل ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي إن الله لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، وفي هذا ترغيب لهم بالإخلاص لله في أعمالهم مع الوعيد ضمناً والتحذير من الرياء ونحوه.

ثم يُعْطِي اللَّهُ مثلاً آخر للذين يبطلون أعمالهم وصدقاتهم بالمنّ والأذى والرياء فيقول: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ الود: المحبة الكاملة، والهمزة في «أَيُّودُ» لإنكار الوقوع بمعنى النفي، أي لا يحب أحدكم أن يكون حاله كحال صاحب البستان الذي يحوي أشجار النخيل والأعناب ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ والمياه تجري من خلال أشجار البستان الذي فيه جميع أنواع الثمار ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ وقد تقدمت السنّ بصاحب هذا البستان حتى أصبح شيخاً هرمًا عاجزاً عن الكسب، وبالإضافة إلى ذلك فإن له ذُرِّيَّةً ضعافاً يحتاجون إلى مَنْ يُعِيلَهُمْ ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ<sup>(١)</sup> فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ وفجأة أصاب هذا البستان ريح عاصفة شديدة معها نار، فأحرقت الثمار والأشجار ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي كما بيّن الله لكم في آياته السابقة آداب الإنفاق

(١) الإعصار: هو اضطراب جوي يتميز برياح شديدة يصحبه رعد وبرق وأمطار، وقد يكون فيه نار إذا كان مقترناً بتفريغ شحنات كهربائية من السحب.

وأحكامه، يبين الله لكم الآيات في سوى ذلك، فيعرفكم أحكامها وحلالها وحرامها، لتفكروا وتتعضوا وتعملوا بما يرضي ربكم.

إن حال من يفعل الخير ثم يبطله باليمن والأذى كحال الذي يملك هذا البستان الذي فيه من كل الثمر، وقد جعله موضع أمله في حياته وغذاء لأولاده بعد وفاته، وهو في سن الكبر والشيخوخة الفانية، وفجأة يصيب بستانه هذا ريح عاصفة فيها نار فتحرقه وتقضي على آماله فيه مع شدة حاجته إليه، فكذلك من يبطل صدقاته باليمن والأذى والرياء تكون حاله كحالة الريح العاصفة التي تقضي على حسناته في وقت هو في أشد الحاجة إليها يوم القيامة عند ملاقة ربه ومجازاته على عمله.

وبعد أن رغب القرآن في الإنفاق في سبيل الله وما فيه من ثواب عظيم، دعا المؤمنين أن يتصدقوا من الطيب لا من الخبيث، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ خاطب الله المؤمنين ودعاهم بأن يتصدقوا من طيبات أموالهم التي اكتسبوها بعملهم، سواء أكان صناعة أم تجارة، وسواء أكان عملاً آلياً أم فكرياً، وأن يكون ما اكتسبوه من المال من طرق الحلال ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ وأن ينفقوا مما أخرج الله لهم من الأرض، من الحبوب والثمار والزروع وغيرها ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ والتيمم: القصد، والمعنى أن لا يقصدوا الرديء من أموالهم وطعامهم فيتصدقوا به، ولكن لتكن صدقاتهم من الطيب الجيد ومن المال الحلال.

وفي أسباب نزول الآية عن البراء بن عازب قال: كانوا يجيئون في الصدقة بأردإ تمرهم وأردإ طعامهم، فنزلت الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ

مَا كَسَبْتُمْ. . ﴿ الآية . وعن عليّ قوله : نزلت هذه الآية في الزكاة المفروضة ، كان الرجل يعمد إلى التمر فيَصْرِمُهُ<sup>(١)</sup> ، فيعزل الجيد ناحية ، فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الرديء ، فقال الله تعالى ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ والصدقة هنا تعم صدقة التطوع وصدقة الفرض ، كما ذهب إلى ذلك الكثير من العلماء .

ثم يُبَيِّن القرآن بأن من يتصدق من الرديء الذي لا يقبله لنفسه ، فكيف يتصدق به على غيره؟

﴿وَلَسْتُمْ بِأَخَذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ والحال أنكم لا تأخذون الرديء لأنفسكم إِلَّا بأن تتساهلوا وتتسامحوا في أخذه ، كما يتساهل من أغمض عينيه عنه فلم ير العيب فيه ، فكيف ترضون لغيركم ما لا ترضون لأنفسكم؟ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ واعلموا أيها الناس أن الله غنيٌّ عن صدقاتكم ، وإنما أمركم بها رحمة منه لفقرائكم وضعفائكم ، وليجزل لكم الثواب عليها في الآخرة ، وهو سبحانه محمود عند خلقه بما أولاهم من نِعَمِهِ عليهم .



(١) فيصرمه : يقطع ثمر النخل ويَجِدّه .

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً  
 مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ  
 يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو  
 الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ  
 اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ  
 فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُوتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ  
 وَيُكَفِّرُ عَنْكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

### شرح المفردات

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ: أي يُخَوِّفُكُم من الفقر إذا أنفقتُم من أموالكم في وجوه الخير.  
 وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ: ويحضُّكم على البُخْلِ لتمتنعوا عن الصدقات.  
 وَفَضْلًا: زيادة في الرِّزْق في الدنيا وثواباً في الآخرة.  
 وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ: وما يتَّعَظُ إِلَّا أصحاب العقول السليمة.  
 إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ: إِنْ تُظْهِرُوهَا بحيث يراها الناس ليقتدوا بكم.  
 فَنِعِمَّا هِيَ: أي فحبذا هذه الصدقات التي تظهرونها.  
 وَإِنْ تُخْفُوهَا: وَإِنْ تَعْطُوا الصَّدَقَاتِ خَفِيَّةً.

### فضيلة الإنفاق وذمُّ البُخْلِ

بعد أن حَثَّ القرآن على الإنفاق في وجوه الخير حذَّر من وساوس الشيطان التي تُغري المؤمن بالبُخْلِ، قال تعالى:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أي إِنْ الشَّيْطَانُ يَخَوِّفُكُم من الفقر إذا أنفقتُم أموالكم في سبيل الله، ويحذِّركم من الصدقة على الفقراء بما يوسوس بذلك في



أنفسكم ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ وَيُغْرِيكُمْ باقتراف الفحشاء وهي المعاصي كالزنى والسرقة وشرب الخمر، كما تُطْلَقُ الفحشاء في لغة العرب على البخل الشديد البخل، وبهذا التفسير اللغوي قد يكون معنى ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ يأمركم بالبخل.

فالشيطان يوسوس في نفس الغني بأن الإنفاق في وجوه الخير يُنقص من ماله ويؤدي به إلى الفقر، فإذا سيطر هذا الشعور على نفسه وجهه إلى طريق البخل الشديد، فكان بهذا البخل أشقى الناس حيث يقتّر على نفسه وعائلته ويحرم نفسه من طيبات الحياة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يشتهر بخله بين الناس فيكون بذلك مكروهاً منبوذاً من المجتمع لأنه مَنَعَ ماله عن المحرومين منه.

ولقد حذّر رسول الله من وساوس الشيطان بقوله: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً<sup>(١)</sup> بَابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلِكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فإِيعَادُ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبُ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلِكِ فإِيعَادُ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقُ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، وَمَنْ وَجَدَ الْآخَرَ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»<sup>(٢)</sup> ثم قرأ قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾.

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ وإذا كان الشيطان يُهَدِّدُ الْمُتَنَفِّقِينَ بالفقر عند العطاء فالله يَعِدُ الْمُتَنَفِّقِينَ بأميرين: أولهما، المغفرة لذنوبهم. وثانيهما: الفضل وهو الزيادة في الخير في الدنيا والآخرة، وهو أن يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا، فإن الصدقات تزيد البركة في الرزق، كما أن الله ينعم عليهم في

(١) لَمَّةٌ: خَاطِرَةٌ.

(٢) أخرجه الترمذي.

الآخرة بما هو أفضل وأكثر. وقد جاء في القرآن ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

فهلها وغان: وعد من الشيطان، وعد من الرحمن، فأى الوعدين تصدق أيها الإنسان؟ هل تصدق وعد الشيطان بالفقر فتُمسِكُ عن الإنفاق، أم هل تصدق وعد الرحمن بأنه يعطيك أفضل مما أنفقت ويخلف عليك أضعافاً مضاعفة؟ لا أظن إلا أنك ستصدق وعد ربك، فتنفق في وجوه الخير وتنال سبعمائة ضعف وأكثر، وتضيف الآية ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو سبحانه واسع العطاء، وواسع المغفرة، عليم بما تتصدقون به ليُجازيكم عليه في الآخرة.

ثم يذكُرُ الله فضل الحكمة وآثارها الحميدة على الإنسان بقوله:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يُعطي الله الحكمة لمن يشاء من عباده ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي ومن يعطه الله الحكمة فقد أعطي خيراً كثيراً ونفعاً عظيماً.

وقد يسأل سائل: ما موضع هذه الآية التي فيها الثناء على من أُعطي الحكمة ضمن الآيات الداعية إلى الإنفاق؟ والجواب: إنَّ من الناس من يحسب البخل والحرص على المال من الحكمة، فأشار الله إلى أن الإنفاق في وجوه الخير هو الحكمة الحقيقية لأن فيه رقيّ الأمة ونهضتها ودفع صنوف الأذى عنها.

ونعود إلى الكلام عن الحكمة ومعانيها وفوائدها، ومما قيل فيها:

- الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل.

- الحكمة: هي القرآن والفقه به، فكتاب الله حكمة وسنة نبيه محمد ﷺ

حكمة.

- الحكمة: المعرفة في الدين والفقه فيه والاتباع له.

- الحكمة: إصابة الصواب في القول والفعل.

- الحكمة: هي الإقدام على الأفعال الحسنة الصائبة وفعل الخيرات.

هذا بعض ما ذكره المفسرون في تعريف الحكمة التي تُنير قلب الإنسان وترشده إلى ما فيه خيره.

ويختتم الله الكلام عن الحكمة بقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ يَذَّكَّرُ: أصلها «يتذكر»، والألباب: جمع لب وهو العقل، والمعنى: وما يتذكر ويعتبر بأوامر الله إلا أصحاب العقول السليمة الراجحة التي تخلصت من شوائب الهوى.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ النذر: هو ما يُوجب الإنسان على نفسه في طاعة من طاعات الله من غير أن يلزمه الله به إذا حصل له ما يرغب فيه، كأن يقول: «نذرتُ لله كذا من المال للمساكين إذا شفى الله ولدي من المرض الذي هو فيه»، أو يقول مثلاً: «ولله عليّ حج بيت الله الحرام في العام المقبل» وهكذا في كل طاعة من الطاعات. وفي قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ وعد ووعد، وعد بثواب الله لمن حقق ما نذره، ووعد لمن لا يفي بنذره ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ والظالمون هم الذين يُبطلون صدقاتهم بالمن والأذى والرياء أو الذين لم يوفوا بنذورهم، كما يندرج فيهم كل من عصى الله وارتكب ما حرّمه، وهؤلاء ليس لهم من ينصرهم من دون الله يوم القيامة فيدفع عنهم عقابه.

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا<sup>(١)</sup> هِيَ﴾ أي إن تُظهروا صدقاتكم وتعلنوها بين

(١) فَنِعِمَّا: هي نِعَم المدغمة في ما، والمعنى: نعم شيئاً يستحق المدح والثناء.

الناس فَنِعْمَ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ الْمَدْحَ والثناء تلك الصدقات ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي وإن تخفوها الصدقات وتعطوها الفقراء سرًّا فهو خير لكم لأن في إخفاء الصدقة سدًّا لكل ذرائع الرياء. كما أن صدقة السرّ خير للفقراء لأنها تحفظ كرامتهم ولا تفضح فقرهم، فلا يجتمع عليهم أمران: ذلّ فقرهم، وإشهار بؤسهم بين الناس، وفي قوله سبحانه: ﴿وَتُؤْتُوهُا الْفُقَرَاءَ﴾ يُفِيدُ أن صدقة التطوع تُسْتَحَبُّ على كل فقير وإن كان من غير المسلمين، وقد جاء في تفسير الطبري أن الآية ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ نزلت في الصدقة على اليهود والنصارى.

وعموم نصوص القرآن والأحاديث الشريفة التي رُويت عن النبي محمد ﷺ تُذكر بأن الله كتب الرحمة والإحسان على كل شيء، ومما روي عن النبي ﷺ قوله: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»<sup>(١)</sup>، «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»<sup>(٢)</sup>.

ومن ثواب الصدقات: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي ويمحو الله عنكم بصدقاتكم بعض الذنوب ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي لا تخفى على الله نيّاتكم عند إبدائكم الصدقات أو عند إخفائها، فهو سبحانه الخبير العالم بدقائق الأمور.

أما مسألة إعلان الصدقات أو إخفائها فإن فيها أقوالاً متعددة، فقال كثير من العلماء: إن صدقة الفريضة كصدقة الزكاة الأفضل إعلانها، لأنها لو أُخفيت لتوهم الناس أن من وجبت عليه لا يُؤدّيها، أما صدقة التطوع فالأفضل

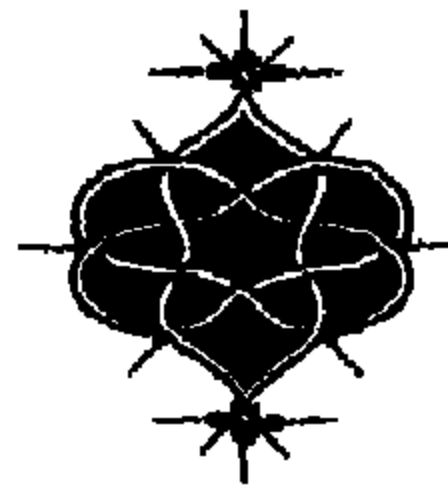
(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الترمذي.

أن تكون في السرّ من حيث هي ستر لحالة الفقير، ومجانبة للرياء. وفي الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ..» وذكر من ضمنهم: «رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالَهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»<sup>(١)</sup>.

وقد يكون في إعلان صدقة التطوع خيراً في بعض الحالات لما يتحقق بها من أُسْوَةٍ حَسَنَةٍ كالإنفاق على الجمعيات والمستشفيات والمستوصفات الخيرية وغير ذلك، فعندئذٍ يكون الإعلان عن الصدقات أفضل لأنها تشجع المحسنين على بذل صدقاتهم في هذا السبيل.

وعلى هذا فَإِنَّ صَدَقَةَ السَّرِّ وَصَدَقَةَ الْعَلَنِ لِكُلِّ مَنِهْمَا حَسَنَاتٌ وَعَلَى الْمُتَصَدِّقِ أَنْ يَتَفَحَّصَ الْمَوْقِعَ الْمُنَاسِبَ مِنْهُمَا فَيَعْمَلَهُ.



(١) متفق عليه.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ  
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ  
اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾  
لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ  
ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ  
التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا  
تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ  
أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ  
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

### شرح المفردات

وما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ: وما تُنْفِقُوا مِنْ مَالٍ فِي وَجْهِ الْخَيْرِ فَثَوَابُهُ عَائِدٌ لَكُمْ.  
يُوَفَّ إِلَيْكُمْ: يَصِلُ إِلَيْكُمْ جَزَاؤُهُ غَيْرُ مَنْقُوصٍ.  
أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ: مُنِعُوا مِنْ كَسْبِ عَيْشِهِمْ لاشتغالهم بالجهاد في سبيل الله.  
لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ: أَي لَا يَسْتَطِيعُونَ سَيْرًا فِي الْبِلَادِ وَتَقَلُّبًا فِيهَا ابْتِغَاءَ الْمَكَاسِبِ  
لاشتغالهم بالجهاد والتعلم.  
مِنَ التَّعَفُّفِ: مِنْ أَجْلِ تَعَفُّفِهِمْ وَامْتِنَاعِهِمْ عَنْ سُؤَالِ النَّاسِ.  
بِسِيمَاهُمْ: بِعَلَامَتِهِمُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى فَقْرِهِمْ وَتَوَاضُعِهِمْ وَخُشُوعِهِمْ.  
لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا: الْإِلْحَافُ: الْإِلْحَاحُ فِي السُّؤَالِ، أَي لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ أَصْلًا،  
تَعَفُّفًا.

### الصدقات للفقراء من جميع الملل

ويتابع القرآن فيبين أن الصدقات تكون لكل الفقراء سواء أكانوا مسلمين أم

غير مسلمين، لأنَّ الإسلام يحترم النفس الإنسانية ويدعو إلى الإخاء الإنسانيّ العام بين البشر، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

وفي بيان أسباب نزول هذا الشطر من الآية عدّة روايات منها:

ما رُوي عن سعيد بن جبیر: إن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمّة، فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ: «لا تتصدقوا إلاّ على أهل دينكم» فنزلت هذه الآية مبيحة الصدقة على مَنْ ليس مِنْ أهل دين الإسلام<sup>(١)</sup>.

ورُوي عن ابن عباس أنه قال: كان ناس من الأنصار لهم قرابات من بني قُرَيْظَة والنّضير، وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم في أن يُسلموا إذا احتاجوا، فنزلت الآية بسبب ذلك.

وهذه الصدقات التي تُعطى لغير المسلمين هي من صدقات التطوّع، أما الزكاة المفروضة على المسلمين فلا تعطى إلاّ للمسلمين.

هذا ما ورد في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ والخطاب للرسول محمد ﷺ والمراد هو وأُمَّته، أي ليس عليك يا محمد هداية من خالفك في دينك، وليس عليك أن تمنع عنهم الصدقات لحملهم على الإسلام، ولكن الله يهدي من يشاء من خَلْقِهِ إلى الإسلام، فيوفّقهم له فلا تمنعهم من الصدقة.

﴿وَمَا<sup>(٢)</sup> تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ﴾ والخير هنا هو المال، أي وما تنفقونه - أيها المسلمون - على الفقراء من مال فإنه سيعود عليكم بالثواب الجزيل في

(١) نقلاً عن تفسيري القرطبي والمحرر الوجيز لابن عطية.

(٢) ما: في الآية هنا اسم شرط جازم يجزم فعلين، لذا كان الفعل (تنفقوا) مجزوماً بحذف النون.

الآخرة كما أنه سيعود نفعه عليكم في الدنيا ، لأن الصدقات تجلب المودة وتؤاخي بين الأغنياء والفقراء وترفع البؤس عن الفقراء مما يؤدي إلى خير المجتمع ، وإذا حُرِمَ الفقراء حقهم من العيش الكريم أضَمروا الحِقْدَ للأغنياء وتكتلوا ضِدَّهم ، وأكثر الثورات والانقلابات في العالم صدرت من الطبقات المحرومة ضد الطبقة الرأسمالية .

﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ ما : حرف نفي ، أي لا تجعلوا إنفاقكم المال على الفقراء إلا قاصدين وجه الله الكريم طلباً لثوابه ورضاه ، لا رياء ولا لغرض دنيوي ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي وما تُنْفِقُوا من مالٍ في سُبُلِ الخير تُعطوا جزاءه في الآخرة جزاءً وافياً ﴿وَأَنْتُمْ لَا تظَلَمُونَ﴾ أي وأنتم لا تُنْقِصُونَ شيئاً من الثواب الذي وعدكم الله به .

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الإحصارُ : الحَبْسُ والمنعُ ، وسبيل الله هو الجهاد في عُرْفِ القرآن ، والمعنى : أنفقوا على فقراء المهاجرين الذين كانوا بسبب الجهاد في سبيل الله غير قادرين على التكسب للمعيشة .

ولكن من هؤلاء الذين أُحْصِرُوا في سبيل الله؟ قيل : إنهم أربعمئة رجل من المهاجرين الفقراء ، هاجروا من مكة إلى المدينة المنورة ولم يكن لهم أهلٌ ، فأقامهم رسول الله ﷺ في الصُّفَّة<sup>(١)</sup> ، فكانوا يستغرقون أوقاتهم في التفقه في الدين والجهاد في سبيل الله ، إذ كانوا يخرجون مع كل سرية يُرسلها رسول الله لمقاتلة أعدائه ، وهؤلاء سُمُّوا (أَهْلَ الصُّفَّةِ) .

(١) الصُّفَّةُ : اسم موضع بناه النبي ﷺ في المسجد النبوي بالمدينة المنورة ليأوي إليه فقراء المهاجرين الذين تركوا أمتعتهم وأموالهم بمكة وهاجروا إلى المدينة المنورة لإعلاء كلمة الله .



ثم ذكر القرآن من صفاتهم التي تستدعي الإنفاق عليهم:

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ والضَّربُ في الأرض: بمعنى الذهاب بها والسفر فيها طلباً للرزق، أي إنهم عاجزون عن السير في الأرض لتحصيل رزقهم بسبب اشتغالهم بالجهاد في سبيل الله. وَسُمِّيَ السير في الأرض ضَرْبًا لما فيه من ضرب الأرض بالأرجل ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي يظنهم من يجهل حالهم بأنهم أغنياء لا يستحقون الصدقة من أجل تعففهم وامتناعهم عن سؤال الناس، والتعفف: ترك الشيء والإعراض عنه تنزهاً عن الطمع بما في أيدي الناس.

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي تعرفهم بعلامتهم وآثارهم، وهي التَّخَشُّع والتواضع، أو ما يظهر عليهم من الفقر من رثاثة الثياب والضرر وصفرة الوجوه ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ الإلحاف: هو الإلحاح في السؤال حتى يحظى السائل بما يطلب، أي لا يسألون الناس مُلِحِّين في السؤال كعادة الفقراء، والمراد أنهم لا يسألون الصدقة مطلقاً لا إلحاحاً ولا بغير إلحاح، فلو كانوا يسألون الصدقة ما حسب الجاهل حالهم بأنهم أغنياء من التعفف، وقد قال رسول الله ﷺ في شأنهم: «ليس المسكين الذي تَرُدُّهُ التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف، اقرأوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾»<sup>(١)</sup>.

﴿وَمَا<sup>(٢)</sup> تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ وما تنفقوا من مالٍ في الصدقات سواء كان سراً أم علانية، فإن الله يعلمه وسيجازيكم عليه بأجلز الثواب يوم القيامة.

(١) أخرجه البخاري.

(٢) ما: هنا شرطية تجزم فعلين.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي الذين من شأنهم الإنفاق في وجوه الخير في جميع الأوقات سواء بالليل أو بالنهار، وفي جميع الأحوال سرًّا أو علانية ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لهم ثواب عملهم عند ربهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا ينالهم خوف يوم الحساب لأنهم في مأمن من عذاب الله بسبب ما قدّموا من عمل صالح، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا فقد عوضهم الله بأحسن من ذلك حيث أسكنهم الله في نعيم جناته.



﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾.

### شرح المفردات

الذين يأكلون الربا: المراد بأكله أخذه والانتفاع به، والربا لغة: الزيادة، وشرعاً: كل قرض جرّ منفعة أو فائدة مقابل أجل ما.

يتخبطه الشيطان: يصرعه، والخبط: الضرب بغير استواء خبط العشواء.

المَسُّ : الخَبَلُ والجنون .

فانتهى : كَفَّ عن الربا .

فله ما سَلَفَ : فله ما كان قد أكل من الربا قبل التحريم .

يمحقُ اللهُ الربا : يُذهبه ويُهلكه ويهلك المال الذي دخل فيه .

يُربي الصدقات : يُنمي المال الذي أخرجت منه الصدقات ويزيده .

كُفَّار : صيغة مبالغة من كافر ، أي مُبالغ في الكُفر لاستحلاله ما حَرَّمَ الله .

أثيم : منهمك في ارتكابه الذنب وذلك باستمراره في أكل الربا .

### تحريم الربا تحريماً قاطعاً

وبعد أن بيَّنَ اللهُ في الآيات السابقة ثواب الإنفاق في وجوه الخير ، بيَّنَ اللهُ في الآيات التالية قُبْحَ الربا وإثمهُ العظيم بقوله :

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ والربا هو أن يزيد المدين في الدَّيْنِ نظير الزيادة في الأجل .

والربا في اللغة : الزيادة مطلقاً ، يُقالُ : رَبَا الشيء إذا زاد ، وعبرَ عن أخذ الربا بالأكل لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال ، ولأنه دالٌّ على الجشع وهو أشدُّ الحرصِ .

وقد كان الربا شائعاً عند العرب وهو إقراض المال إلى أجلٍ بزيادةٍ على ما استقرض ، فكانت الزيادة على الدَّيْنِ بدلاً من الأجلِ . ومعنى يتخبطه : يمسُّه بالأذى ، وقيل : هو الضرب على غير استواء ، ويقال للذي يتصرف في أمرٍ ولا يهتدي فيه : يخبط خبط عشواء - والمسُّ : الخَبَلُ<sup>(١)</sup> والجنون . فالشيطان يمسُّ المرابي بالوسوسة التي يحدث عنها الصرع .

(١) الخَبَلُ : فسادٌ في العقل .

فَاللَّهُ سبحانه يصف المرابين في الدنيا بأنهم يكونون في تصرفاتهم وسائر أحوالهم في اضطراب وخلل، كالذي أفسد الشيطان عقله وأصابه بالجنون، فالرُّبَا يُصِيبُ آكله باضطرابات نفسية وعصبية نتيجة إرهاقه وتركيز ذهنه في المال الذي أقرضه بأنه قد لا يعود إليه، فالمرابون أكثر الناس تعرّضاً للأزمات القلبية، ولقد قرّر الأطباء أن نسبة ضغط الدم وتصلب الشرايين والشلل والذبحة الصدرية عند المرابين هي أضعافها عند غيرهم.

ولقد ذهب الكثير من المفسرين إلى أن ذلك الوصف للمرابي يحصل يوم القيامة بمعنى: أن أكل الربا يُبعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط على غير هدى، وهذه علامة له يُعرف بها يوم الجمع حيث يجمع الله الناس للحساب، وهذه فضيحة له وعقوبة ما بعدها عقوبة، ولا مانع أن يكون هذا الوصف للمرابين حاصلًا في الدنيا والآخرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أي هؤلاء المرابون أحلّوا الربا لأنهم قالوا: إنما البيع يُماثل الربا، فكما أن ربح البيع حلال فكذلك ربح الربا حلال أيضاً. وإنما قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ لإرادة المبالغة في جعل الربا حلالاً وجعله أصلاً للتعامل، وكان مقتضى القياس الظاهري أن يقاس الربا على البيع فيقال: إنما الربا مثل البيع ولكنهم عكسوا ذلك، وهذا مما يظهر شدة تعلقهم بالربا ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ ولكن واقع الأمر أن الله أحلّ الأرباح في التجارة وفي الشراء والبيع وحرم التعاطي بالربا.

والفرق كبير بين الربا والبيع، فالبيع يستلزم العمل والمساهمة في تيسير السلع للمستهلكين وتبادل المنافع بين البائع والمشتري، بينما الربا يؤدي إلى وجود طبقة مترفة لا تعمل شيئاً تستغل حاجات الناس الملحة لزيادة ثروتها، ولا تستجيب لداعي الشفقة، ولا تنظر بعين الرحمة، مما يؤدي إلى انقطاع المعروف بين الناس.

﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾ الموعظة: هي النصيحة والتذكير بالعواقب بما يلين القلب من ثواب أو عقاب، أي فمن جاءه موعظة من ربه بتحريم الربا فاهتدى بذلك وامتنع عن التعامل بالربا ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ فله ما تقدّم من المال الربوي الذي أخذه لا يستردّ منه ولا مؤاخذه على ما أخذه، فالإسلام يَجِبُ ما قبله ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ وأمرُ المرابي قبل تحريم الربا إلى عفو الله ورحمته. أو بمعنى: إن شاء ثبتته الله على الانتهاء من الربا لصدق نيته، وإن شاء خذله عن ذلك. والعبارة تُشعرُ بأن ردّ المرابي ما أخذه من مال الربا إلى أصحابه قبل التحريم، من أفضل القربات إلى الله، ومن أشد ما يُرضي الضمائر الحية التي ترغب في تطهير مالها من الحرام.

﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي ومن عاد إلى الربا مستحلاً له، فأولئك أصحاب النار المُلازمون لها في الآخرة ليعذبوا بها، وهم فيها خالدون لا يخرجون منها أبداً.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ المحق: النقصان وذهاب البركة، ومحق الله للربا بإذهاب بركته وإهلاكه، أو إهلاك المال الذي يدخل فيه ﴿وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ﴾ أي يُضاعف ثوابها ويُبارك فيها ويزيد المال الذي أُخرجت منه الصدقة، وقد روي عن رسول الله محمد ﷺ قوله: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلٍ<sup>(١)</sup> تمرّة من كَسْبٍ طَيِّبٍ - ولا يقبل الله إلا الطيب - فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَرْبِّيْهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يَرْبِّي أَحَدَكُمْ فُلُوهُ<sup>(٢)</sup> حتى يكون مثل الجبل»<sup>(٣)</sup>.

(١) بعدل: مثل.

(٢) فُلُوهُ: مُهَرَّه.

(٣) أخرجه البخاري.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ هاتان الصفتان من صيغ المبالغة أي لا يحب الله من كان عظيم الكفر شديد الإثم. فالذين يستحلّون الربا ينطبق عليهم هذا الوعيد لأنهم اتخذوا ما أسبغ الله عليهم من نِعَمِ المال في سبيل التضيق على الناس والاستيلاء على أموالهم بدلاً من تفريج كربهم، والله لا يرضى عن هؤلاء، ومن حُرِمَ رضا الله فقد حُرِمَ خير الدنيا وسعادة الآخرة.

وبعد أن بيّن القرآن أن المرابي الذي يستحلّ الربا ويتعاطى به هو كفّار أثيم، بيّن في الآية التالية ما يقابل ذلك بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي إن الذين صدّقوا بوجود الله ووجدانيته وبرسوله محمد ﷺ وبما جاء به من عند ربهم من تحريم الربا وأكله وعملوا الأعمال الصالحة التي أمرهم الله بها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ وأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها، وفيها تقديس الله والثناء عليه وعبادته وحده وفيها طلب العون والهدى منه، وأعطوا زكاة أموالهم للمحتاجين مما يُواسي كربتهم ويخفف بؤسهم، هؤلاء ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لهم الجزاء الحسن عند ربهم على ما قاموا به من الأعمال الصالحة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي ولا خوف عليهم من مكروه يصيبهم يوم القيامة - يوم الفزع الأكبر - ولا هم يحزنون على ما خَلَّفُوا وراءهم من الدنيا فقد عوضهم الله بالنعيم المقيم في جنة الخلد.



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِؕ وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٨١) .

### شرح المفردات

وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا: واتركوا ما بقي لكم من الربا عند الناس .  
فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ: فاعلموا أنكم ستُحَارَبُونَ من الله ورسوله .  
فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ: أي لكم أن تستردوا ما أقرضتم من المال بدون فائدة .  
وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ: وإن كان المدين ضيق الحال لا يقدر على أداء الدين .  
فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ: فإمهال للمدين حتى يُصبح في يسر وسعة من المال .  
وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ: وإن تتصدقوا على المدينين فهو خير لكم بما ستجدون ثواب ذلك عند الله .

### إنذارُ المُرابين بحربٍ من الله ورسوله

ويتابع القرآن الكلام عن الربا مُحذِّراً أشد التحذير من التعاطي به، يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ استهلَّ الله الآية بدعوة المؤمنين إلى أن يخشوه ويتَّقوا عذابه وذلك بطاعته فيما أمر وبترك ما نهى عنه ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ واتركوا ما بقي لكم عند الناس من مال الربا، وحاذروا أن تنالوا منه

شيئاً ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مؤمنين حقاً لأن من مقتضيات الإيمان ترك الربا. فالآية خاصة بالذين كانوا يتعاملون بالربا ولهم عقود ربوية قد قبضوا بعضها وبقي البعض الآخر لم يقبضوه، فإن لهم ما سلف من مال الربا قبل تحريمه وأمرهم إلى الله، أما ما بقي لهم من مال الربا بعد تحريمه فلا يحلّ لهم أخذه.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فإن لم تتركوا ما بقي لكم من الربا بعد تحريمه، فاعلموا واستيقنوا بأنكم في حرب كبيرة مع الله ورسوله، لا تدرون كنهها، ومن كان في حرب معهما فهو حتماً خاسر، وهذه الحرب هل هي مَجَازِيَّة بمعنى المبالغة من الوعيد بما سيصيب المُرَابِينَ في الدنيا من بلاء وخسران، وتسليط الأعداء عليهم وما سيصيبهم في الآخرة من عذاب أم أنها محاربة حقيقية بمنع المُرَابِي من الربا قسراً كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين؟ فإذا أصرّ المُرَابِي على الربا أصدر الحاكم بحقه الإجراءات الصارمة، من حَبْسٍ وتَعْزِيرٍ وغير ذلك من العقوبات إلى أن تظهر توبته. وإن كان المُرَابِي ذا قوّة ونفوذ في قومه حاربه الحاكم كما يحارب الفئة الباغية مثل ما حارب الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه مانعي الزكاة.

وكما شدد القرآن على تحريم الربا، شددت السُّنَّة النبوية على ذلك أيضاً.

وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ - أي المَهْلَكَاتِ - وذكر فيها أكل الربا»<sup>(١)</sup>.

وروى أبو داود عن ابن مسعود قوله: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ أَكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ»<sup>(٢)</sup> وشَاهِدُهُ وَكَاتِبُهُ.

(١) أخرجه مسلم.

(٢) المُوَكِّلُ: من يمنع الآخرين توكيلاً ليعملوا باسمه.



﴿وَإِنْ تُبْتِغُوا فَالْكُمُ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي من كان يتعاطى الربا وأراد أن يتوب إلى الله ويرجع إلى طاعته، فليعلم أنه ليس له أن يأخذ من المدين بعد تحريم الربا إلا المال الذي أقرضه خالياً من الفائدة. وإن الاقتصار على استرجاع رأس المال فقط لا يكون فيه ظلم للدائن ولا ظلم للمستدين حيث إن الدائن الخالي من الربا قد فرج كُربته.

ولكن كيف يتوب المرء من المال الحرام؟ إن سبيل التوبة مما بيده من مال الربا يكون بردها إلى مَنْ أَرْبَى عليه، ويطلبه إن لم يكن حاضراً، فإن أيس من وجوده فليصدق بذلك المال، كما ذكر القرطبي في تفسيره.

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي إن كان المدين في شدة وضيق لا يقدر على سداد الدين ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ النَّظِرَةُ: التأخير والإمهال، أي فأمهلوا المدين المعسر عند انقضاء أجل دينه إلى حال يُسره ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أصل تصدقوا: «تَتَصَدَّقُوا»، أي وأن تتصدقوا على المدين المعسر بإبرائه من الدين كُلِّه أو بعضه، فهو خير لكم من إمهاله إلى وقت يُسره وأكثر ثواباً عند الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما في تصدقكم على المعسر من ثواب عند الله، وما يحصل في ذلك من مودة بينكم وبينهم.

وقد بيّن رسول الله فضيلة إبراء المعسر من دينه وما ينشأ عنه من ثواب عظيم فقال ﷺ: «كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِراً فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَلَقِيَ اللَّهَ<sup>(١)</sup> فَتَجَاوَزَ عَنْهُ<sup>(٢)</sup>»، أي غفر الله له.

(١) فلقي الله: أي توفاه الله.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي.

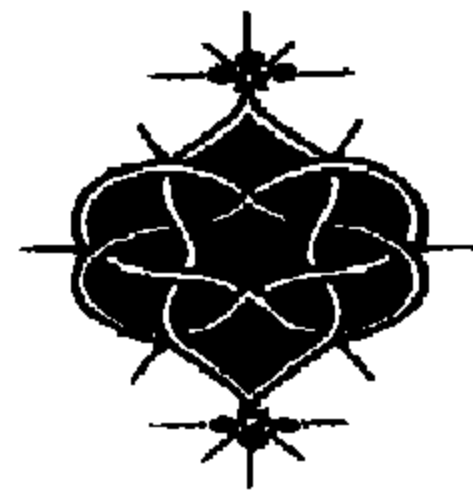
ثم يختم الله آيات الربا بهذه الآية التي فيها الوعظ لجميع الناس:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ دعا الله الناس بأن يتقوا يوم القيامة، وتنكير كلمة اليوم للتفخيم والتهويل والتحذير عما فيه من الشدائد والأحوال، حيث تُرجعون فيه إلى الله بعد بعثكم من قبوركم، فلا تملكون من أموركم شيئاً ثم تُعطى كل نفس جزاء ما كسبته في دنياها وافيّاً كاملاً ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي بنقص من الثواب على عملهم الصالح، أو زيادة عقاب على ما اقترفوا من آثام.

هذه الآية تثير الرهبة في النفوس وتحذر المسترسلين في المعاصي والمنكرات الغافلين عن هذا اليوم العظيم.

وقد قال بعض أهل الورع: من لم يتعظ بمواعظ القرآن فليس له فيما سواه متعظ، وأي موعظة أعظم مما أخبر الله به عباده من الرجوع إليه، فمن لم يحزن لذلك الموقف ولم يبك لذلك المشهد فبأي موعظة يتعظ؟

رُوي أنَّ هذه الآية هي آخر آية نزلت في القرآن، وأنها نزلت قبل موت النبي ﷺ بتسع ليالٍ ثم لم ينزل بعدها شيء، وهناك رواية أنها نزلت قبل موت النبي ﷺ بواحدٍ وثلاثين يوماً.



﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاسْكُتُوا وَلْيَكُتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكُتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكُتُبُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكُتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

### شرح المفردات

تَدَايَنْتُمْ : دَايَنْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا .  
 أَجَلٍ مُّسَمًّى : وَقْتُ مَعِين .  
 كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ : كَاتِبٌ أَمِينٌ فَقِيه .  
 وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ : وَالْمَمْلُوكِ عَلَى الْكَاتِبِ مَا يَكْتُبُهُ هُوَ الْمَدِينُ الَّذِي عَلَيْهِ حَقُّ أَدَاءِ دِينِهِ .

وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا : وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ شَيْئًا مِمَّا عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ .  
 سَفِيهًا : السَّفِيهَ هُوَ الَّذِي لَا يَحْسُنُ التَّصَرُّفَ بِمَالِهِ ، الْمُبْدِرُ لَهُ .  
 ضَعِيفًا : كَأَنْ يَكُونَ صَبِيًا يَنْقُصُهُ الْإِدْرَاكُ أَوْ شَيْخًا أَصَابَهُ الْخَرَفُ .

لا يستطيع أن يُملَّ هو : لا يستطيع أن يلْقن إمَّا لِخَرسٍ أو غيره من العوارض .  
واستشهدوا شهيدين : واطلبوا شهيدين يشهدان على هذه المُداينة .  
ممن ترضون من الشهداء : أي من الشهداء العدول .  
أن تضلَّ إحداهما : إن تنسى إحداهما الشهادة .  
ولا يَأْبُ الشُّهداء إذا ما دعوا : ولا يمتنع الشهود عن أداء الشهادة إذا دُعوا إليها .  
ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً : لا تضجروا ولا تملّوا من كتابة الدَّين صغيراً كان أو كبيراً .  
إلى أجله : إلى الوقت المتفق عليه .  
أقسط عند الله : أعدل عند الله سبحانه .  
أقوم للشهادة : أحفظ للشهادة وأثبت لها وأعون على أدائها .  
أذنى ألا ترتابوا : أقرب ألا تشكّوا في مقدار الدين وأجله .  
ولا يُضَارَ كاتب ولا شهيد : لا يضر الكاتب والشاهد أحد المتعاقدين : بأن يأبى الكاتب أن يكتب أو يأبى الشاهد أن يشهد أو يزيد أحدهما في الحق أو ينقص .  
تديرونها بينكم : تتصرفون فيها يداً بيد بلا تأجيل .  
وإن تفعلوا : أي وإن تفعلوا ما نهيتم عنه .  
فإنه فسوق بكم : فإنه خروج عن طاعة الله ومعصية لاحقة بكم .

### أحكام المُداينة في الإسلام

مما يشهد بعظمة القرآن وأنه وحي إلهي هو ما دعا إليه من كتابة الدَّين والإشهاد عليه ، وفائدة ذلك ليعلم الدائن والمدين أو ورثتهم حقوقهم وواجباتهم نحو بعضهم البعض ، لأن مرور السنين مدعاة للنسيان ، كما يؤدي عدم كتابة الدَّين إلى التنازع ، وإنكار المدين الحقَّ المتوجب عليه نحو الدائن ، كما هو مشاهد عند بعض الناس .

والدَّعوة إلى كتابة الدَّين جاءت في آية هي أكبر آيات القرآن لشمولها كثيراً من التوجيهات التي تحفظ حقوق الدائن والمدين ، وإليكم ما جاء في صدددها

مما يشهد بسمو التشريع الذي يتميز به القرآن وعدالته في أحكامه . قال الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ تداينتم بدئين : تعاملتم بالدين ، وأجل الدين : هو الوقت المعين بالأيام أو الأشهر لأدائه في المستقبل ، والمعنى : يا أيها الذين صدّقوا بالله ورسوله إذا دأين بعضكم بعضاً بدئين إلى وقت معين ، فاكتبوا هذا الدين .

فألله سبحانه أمر بكتابة الدين لئلا يقع فيه نسيان أو جحود ، وقد ذهب الظاهرية إلى وجوبه ، أما جمهور الفقهاء فذهبوا إلى أنه مندوب ، وكتابة الدين المؤجل سداده إلى تاريخ معين أخذ بها القانون الفرنسي في أواخر القرن الثامن عشر حين اشترط أن يكون الدين مكتوباً إذا زاد على قدر معين ، وعن القوانين الفرنسية أخذت القوانين الأوروبية .

﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ كما أمر الله سبحانه أن يكتب وثيقة الدين كاتب عالم بشروط العقود وتوثيقها ، عالم بأحكام الشريعة ، وخبير بمعاملات الناس ، وأن يتحرى العدل بين الطرفين بأن لا يزيد ولا ينقص في الدين الذي يكتبه ، وفي هذا دعوة إلى أنه ينبغي أن يكون في الأمة كُتّاب متخصصون للقيام بهذه المهمة ، وهذا ما يُعرف الآن (بكُتّاب العدل) وتجدر الإشارة إلى أن هذه التسمية مقتبسة من النص القرآني ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ .

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ يَأْب : يمتنع . أي ولا يمتنع كاتب من أن يكتب للمتدائنين ديونهم بالطريقة التي علمه الله إياها بأن يتحرى العدل في كتابته ، وأن يلتزم فيها ما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية ، فلا تكون فيها شروط ليست في كتاب الله أو لا يسوّغها الشرع أو لا يمكن تنفيذها .

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ الإِمْلَالُ والإِمْلَاءُ بمعنى واحد: وهو التلقين، أي إن الذي يُلقِّن الكاتب مقدار الدَّيْن وموعد سداده بوجود الدائن هو المَدِين، ليكون إِمْلَاؤُهُ إقراراً بالدَّيْن وبالحقوق التي يجب عليه الوفاء بها، وليكون ما في الوثيقة حُجَّة يُبرزها الدَّائن عند استحقاق سداد الدَّيْن أو عند بروز الخلاف بينهما ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ الخطاب هنا يصلح أن يكون لِلْمَدِينِ أو أن يكون للكاتب. فإذا كان الخطاب لِلْمَدِينِ فيكون المعنى: وليتق الله المدين الذي عليه حق أداء دَيْنه، ولا ينقص من الدَّيْن حين الإِمْلَاء شيئاً ولو كان زهيداً، بل يعترف به كما اتفق عليه مع الدائن. وعلى المعنى الثاني: وليتق الله الكاتب ولا ينقص من حق كلٍّ من الدائن والمَدِين شيئاً، بل يُثبت لكل منهما حقه كاملاً دون زيادة أو نقصان.

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً﴾ أي إذا كان الذي عليه الحق وهو المَدِينُ سَفِيهاً، وهو الجاهل بالعقود والتصرفات أو المبذر المتلاف الذي لا يحسن تدبير أموره وإدارة أمواله، أو كان ضعيفاً وهو الصبي والشيخ الهرم الذي أصابه الخرف أو العجز ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ أي لا يقدر على التلقين بأن كان أحرص أو غير ذلك ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ﴾ أي فعلى وليِّ أمره أو وكيله أو من يهتم شأنه أن يتولَّى تلقين الكاتب عنه متحرّياً الحق والعدل فيما كُلفَ به، وذلك حرصاً على حق هذا الضعيف أو السفيه من أن توقعه حاله في الإساءة إلى نفسه.

### الإشهاد على الدَّيْن

ولا يكفي القرآن بالدعوة إلى كتابة الدَّيْن، بل يدعو أيضاً إلى الإشهاد عليه زيادة في توثيق عَقْدِ الدَّيْن، وحرصاً على حفظ الحقوق من النكران: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ﴾ واستشهدوا: السين والتاء تُفيدان

الطلب، أي واطلبوا وابحثوا وتحروا ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ أي شاهدين عدلين، لأن «شاهد» صيغة مبالغة من شاهد، والمبالغة في معنى الشهادة تفيد معنى تحري العدالة فيها ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ فإذا تعذر وجود رجلين للشهادة فليقم مقامهما رجل وامرأتان ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ أي من الذين يَرْضَى وضعهم الاجتماعي وسيرتهم الحسنة ويقولون الحق ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ والحكمة في أن المرأتين تقومان مقام رجل واحد في الشهادة هي خشية أن تُخْطِئَ أو تنسى إحداهما، فتذكرها الأخرى به. والسبب في خطئها أو نسيانها هو قِلَّةُ مُزاوَلتها للشؤون المالية، لأن أكثر وقتها هو في تدبير منزلها وتربية أطفالها، فإذا تركت إحداهما شيئاً من الشهادة تكون قد نسيت أو غفلت عنه تذكرها الأخرى به. أما اشتغال النساء في هذا العصر بالمسائل المالية، فلا يغيّر الحكم لأن الأحكام إنما هي للأغلب، كما أن بعض النساء تغلب عليهن العاطفة مما يبعدهن عن جادة الحق فتذكرها الأخرى بالصواب.

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أي ولا يمتنع الشهود عن الشهادة أمام القاضي إذا ما طلبوا لأداء الشهادة، لأن ترك الشهادة أو كتمانها يفضي إلى تضييع الحقوق، ولقد حذر الله من كتمان الشهادة بقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ أي ولا تملؤا من كتابة الدّين سواء أكان الدّين كبيراً أم كان صغيراً إلى وقت حلوله الذي أقرّ به المدين، ولأن إهمال كتابة الدّين الصغير يؤدي إلى جحوده وعندئذ تذهب الثقة، وإذا ذهبت الثقة ساد النزاع ﴿ذَلِكَمُ اقْسَاطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أي تلك الوصايا التي أمركم الله بها هي أعدل عند الله، وأقوم طريق

للإثبات ، وأقرب إلى انتفاء رَيْبِكُمْ وشكوككم في جنس الدَّيْنِ وَقَدْرِهِ ، وأجل استحقاقه .

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ استثنى القرآن التجارة الحاضرة وهي التي يجري فيها التقابض في المجالس أو التي يتأخر فيها الأداء زمنياً يسيراً ، وسميت حاضرة لأن المبيع والتمن كلاهما حاضر ، ووصفت بأنها تدور لأن هذا يعطي وذاك يأخذ ، وقد يطلب هذا بضاعة ويدفع ثمناً مرة وقد يعطي مقابل البضاعة بضاعة أحياناً ، وأمثال هذه التجارات التي يحصل فيها التقابض ويكثر تكرارها لا يُتوقع فيها التنازع أو النسيان ، ولا جناح عليكم في عدم كتابتها ، وفي نفي الجُنَاح إشارة إلى أن كتابة ذلك أولى ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أمر الله بالإشهاد على البيع ، وقد قرر المذهب الظاهري أن الإشهاد على البيع واجب ، بحيث لو لم يُشْهَدْ المُتَبَايعَانِ على بيعهما شهوداً يأثمان ، أما جمهور العلماء فقالوا : إنَّ الإشهاد على البيع غير واجب وإنما هو مجرد إرشاد وتعليم ، هذا مع العلم أن الإشهاد على البيع يمنع من أي ظلم قد يطرأ عليه .

﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ والمضارّة : إدخال الضرر ، أي لا يصح أن ينزل ضرر بالكاتب أو الشاهد لحملهما على كتابة غير الحق أو قول غير الحق ﴿وَأَنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ وإن تفعلوا ما نهيتم عنه من الإضرار بالكاتب أو الشاهد وتلحقوا الأذى بهما ، فإن ذلك معصية وخروج عن طاعة الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوا الله وراقبوه في فعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه ﴿وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾ ويعلمكم الله أحكام دينكم وما تحتاجون إليه لمصالحكم ، وفي هذا النص الوعد لمن اتقى الله أن يعلمه الله العلم النافع ، لأن العلم نور لا يهدي لغير من اتقى الله .



ولقد قال الإمام الشافعي حين شكّا لأستاذه وكيع سوء حفظه للعلم ، فدعاه إلى تقوى الله ، وفي هذه المناسبة أنشد الشافعي هذه الأبيات :

شَكَوْتُ إِلَى وَكَيْعٍ سُوءَ حِفْظِي      فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي  
وَأَعْلَمَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ      وَنُورُ اللَّهِ لَا يُهْدَى لِعَاصِي

ويختتم الله الآية بقوله ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي إنه سبحانه يعلم أعمالكم ويحصيها عليكم ليجازيكم عليها .

وهكذا نرى أن توثيق الحقوق الذي يُعدّ من النظم الحديثة ، قد شرعه الإسلام من قبل ما يزيد على أربعة عشر قرناً ، وهذا مما يشهد على عظمة القرآن الذي جاء بتشريعات فيها الخير والصلاح للبشرية جمعاء .



﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ .

### شرح المفردات

فَرِهَانٌ : الرهان جمع رهن ، وهو ما يأخذه الدائن من المستدين من الأعيان ذات القيمة ضماناً لوفاء دينه .

أمانته : دينه وسمي الدين أمانة لائتمانه عليه بدون رهن أو كتابة .

وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ: وليخش الله ربّه فلا يخون الأمانة .  
ولا تكتموا الشهادة: ولا تخفوا أيها الشهود ما علمتوه وشاهدتموه .  
إن تبدوا ما في أنفسكم: إن تظهروا ما في قلوبكم .

### الرَّهْنُ عِنْدَ تَعْدِيرِ كِتَابَةِ الدَّيْنِ

وبعد أن دعا الله في الآية السابقة إلى كتابة الدين والإشهاد عليه، بين في الآية التالية ما ينبغي فعله عند عدم وجود الكاتب كما في حال السفر، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أي إن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ولم تجدوا كاتباً يكتب لكم الدين، فليكن بدل الكتابة رهان مقبوض يقبضها صاحب الحق وثيقة لدينه من المدين. ولا يدل هذا التقييد على أن مشروعية الرهن خاصة بالسفر، لأنه ثبت أن النبي محمداً ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي<sup>(١)</sup> مقابل ما استدان منه، وهذا ما جرى التعامل فيه بين المسلمين على الرهن في السفر والحضر، سواء وجد الكاتب أم لم يوجد، وإنما أرشدت الآية إلى ما يقوم مقام الكتابة في الحالة التي يغلب عليها عدم وجود الكاتب وهي حالة السفر.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ أي فإن أمن الدائن المدين فاستغنى عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه فعندها يؤدي المدين الدين في موعده لأنه أمانة في عنقه ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي وليخش المدين ربّه فلا يخون الأمانة وهي الدين المترتب عليه، ولا يماطل في أداء الحق الواجب عليه ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ ولا تخفوا الشهادة أيها الشهود بما علمتم، بل أشهدوا وأقروا بالحق إذا دُعيتم لأداء الشهادة، ومن يكتم الشهادة

(١) أخرجه البخاري .

وَيُغْرِضُ عَنْ أَدَائِهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبِهِ، والقلب أشرف مكان في الإنسان، وله الهيمنة على كل الأعضاء، فإذا صَلَحَ صَلَحَ الجسد كله وإذا فسد دبَّ الفساد في الجسد كله، وهذا تصوير بليغ لشدة الإثم المترتب على كاتم الشهادة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وَاللَّهُ سبحانه يعلم ما يصدر من الناس من خيرٍ أو شرٍ، فيجازي المحسنين إحساناً والمسيئين سوءاً.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا النص متصل بالآيات السابقة التي دعت إلى الإنفاق في سبيل الله، فكل ما في السماوات وما في الأرض هو مُلْكُ الله، وأنت أيها الإنسان بما تملكه من مال جعله اللَّهُ وديعة في يدك، فلا يحسن أن تبخل به على المستحقين لأن المال مال اللَّهِ، وهذا ما ذكره اللَّهُ بقوله: ﴿وَعَاثُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي إن تظهروا أيها الناس ما في قلوبكم أو جوارحكم من أقوال وأفعال حسنة أو سيئة أو تكتموها عن الناس يجازيكم اللَّهُ بها يوم القيامة. هذا النص يفيد علم اللَّهِ بما ظهر وما خَفِيَ وأنه سيحاسب الإنسان على النيات إضافة إلى الأعمال الظاهرة. وقد روي أنه لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله، فأتوا رسول اللَّهِ فقالوا: كُلفنا من الأعمال ما نطبق.. وقد أنزل اللَّهُ هذه الآية ولا نطبقها! فقال رسول اللَّهِ ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ثم أنزل اللَّهُ بعد ذلك ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا..﴾ تهويناً للخطب عليهم.

فالعزم على المعصية والتصميم عليها مؤاخذ عليهما الإنسان، وأما حديث النفس بها والخواطر الفاسدة التي تَرِدُ على القلب دون أن يصحبها عزم وتصميم فمغفوء عنها، إذ ليس في وسع الإنسان أن يمنعها عنه. وروي عن النبي ﷺ قوله:

«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لَأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ»<sup>(١)</sup>.  
 ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ فَيَغْفِرُ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ مِنْ أَهْلِ  
 الْإِيمَانِ وَيَعْفُو عَنْهُمْ، وَيُعَذِّبُ بَعْدَهُ مِنْ يَشَاءُ مِنْ أَهْلِ الشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي حَسَبَ  
 مَشِيئَتِهِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى الْحِكْمَةِ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَدِيرٌ: صِيغَةٌ مَبَالِغَةٌ  
 لِاسْمِ الْفَاعِلِ فِي الْقُدْرَةِ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى حِسَابِ أَهْلِ الْعَصِيَانِ  
 وَمُعَاقِبَتِهِمْ، وَعَلَى مَنَحِ الْغُفْرَانِ وَالتَّجَاوُزِ عَنِ السَّيِّئَاتِ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ  
 الْمُؤْمِنِينَ، فَلَا أَحَدٌ يَعَارِضُهُ فِي حُكْمِهِ الْمَبْنِيِّ عَلَى الْعَدْلِ.



﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ  
 وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا  
 سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ  
 نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا  
 تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا  
 حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ  
 وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ  
 الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

### شرح المفردات

لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ: أَيِ نَوْءٍ مِنْ بَرَسَلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا نَكْفُرُ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ.  
 وَقَالُوا سَمِعْنَا: أَيِ سَمِعْنَا قَوْلَكَ وَاعْتَقَدْنَا وَجُوبَ الْعَمَلِ بِهِ.  
 غُفْرَانَكَ رَبَّنَا: أَيِ نَطْلُبُ وَنَسْأَلُ غُفْرَانَكَ يَا رَبِّ.

(١) متفق عليه.

وإليك المصير: وإليك المرجع بعد الموت يوم البعث .  
 إِلَّا وَسْعَهَا: إِلَّا مَا تَتَّسِعُ لَهُ طَاقَتُهَا وَقُدْرَتُهَا مِنَ الْأَعْمَالِ .  
 لَهَا مَا كَسَبَتْ: لَهَا ثَوَابٌ مَا عَمِلَتْ مِنَ الْحَسَنَاتِ .  
 وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ: وَعَلَيْهَا وَزْرٌ مَا عَمِلَتْ مِنَ السَّيِّئَاتِ .  
 وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا: لَا تَكْلِفْنَا أَمْرًا يَثْقُلُ عَلَيْنَا .  
 أَنْتَ مَوْلَانَا: أَنْتَ مَالِكُنَا وَمَتَوَلِي أَمْرِنَا .

### ابتهالات إلى الله وقبولها منه سبحانه

وأخيراً يختم الله هذه السورة ببيان أن رسالة محمد هي امتداد للرسالات الإلهية السابقة، وأن جوهر الدين واحد في كل الرسالات الإلهية التي أنزلها الله على رسله، قال تعالى:

﴿أَمَّا الرُّسُولُ فَإِنَّمَا أَنزَلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي صدق الرسول محمد وأقر بما أوحى إليه ربه من القرآن وما فيه من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والوعد بثواب الله لمن أطاعه والوعيد لمن عصاه . واقتران إيمان المؤمنين بإيمان الرسول محمد هو تشريف لهم حيث آمنوا برسول الله وبما جاء به من الهدى من عند ربه .

﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي كل فريق من هذين الفريقين وهما الرسول محمد ﷺ والمؤمنون آمنوا بالله وهو التصديق بوجوده ووحدانيته وصفاته ورَفُضُ كل معبودٍ سواه . ثم ثنى الله بأنهم يؤمنون أيضاً بالملائكة وهم غُيِّبَ عن الأنظار لا يُروْن ولا نَعْرِفُ عنهم شيئاً إلا بما أخبرنا الله عنهم، وهم لا يعصون الله ويفعلون ما يُؤْمَرُونَ، فمنهم من خصَّه الله بإنزال الوحي على رسله، ومنهم من خصَّه الله بقبض أرواح الناس عند استيفاء أجلهم، ومنهم من خصَّه بإنزال العذاب على العصاة، ومنهم من خصَّهم الله بمهماتٍ غير ذلك .

كما أن الرسول محمداً ﷺ والمؤمنين يؤمنون بكتب الله التي أنزلها على رسله قبل أن يدخل عليها التحريف والتبديل، وهذه الكتب فيها الهدى للناس، وفيها ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم، والكتب التي ذكرها القرآن الكريم هي صُحُف إبراهيم، والتَّوراة، والإنجيل، والزَّبُور، وكان آخر هذه الكتب: القرآن الكريم، وكذلك يُصَدِّقُ المؤمنون بِرُسُلِ اللَّهِ جميعاً فمنهم من جاء ذكرهم في القرآن ومنهم من لم يذكره، وقد خاطب الله رسوله محمداً بقوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿لَا تَفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ أي إن حال الرسول محمد ﷺ والمؤمنين هو أنهم يؤمنون بجميع رسل الله من غير تفریق بينهم، فلا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ولكنهم يصدّقون بهم جميعاً، ويقرّون بأن ما جاءوا به من الهدى هو من عند الله، وهم بذلك يُخالفون اليهود الذين أقرّوا بنبوّة موسى وكذّبوا بنبوّة عيسى ومحمد عليهما السلام، كما أنهم يُخالفون النصارى الذين أقرّوا بنبوّة موسى وعيسى وكذّبوا بنبوّة محمد ﷺ.

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي وقال الرسول محمد والمؤمنون: سمعنا قول ربنا بما أنزل علينا من القرآن الذي هو كلامه، وعَلِمْنَا صَحَّتْه وقبلناه، وأطعنا ربنا فيما ألزَمنا به من فرائضه، وما دعانا إليه من طاعته ﴿غُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي نسألك يا ربنا غفرانك لذنوبنا، والغُفْرَانُ: السُّتْرُ من الله على ذنوب من غفر له من عباده وصفحه عنهم ورفع العقوبة عنهم، وإليك يا ربنا المصير والمآل، وهنا إقرار منهم بالبعث يوم القيامة والحساب والمجازاة على أعمالهم، هذه الكلمات الأخيرة التي يقولها المؤمنون تُجَسِّدُ معنى العبودية الحقّة لله سبحانه والتسليم لإرادته مما يُضفي عليهم طمأنينة في قلوبهم، وراحة في نفوسهم مصدرها هذا الإيمان الذي خالط قلوبهم واستشعروا لذته في أرواحهم ووجدانهم.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا يكلف الله نفساً من التكاليف الشرعية والأوامر والنواهي إلا بما تستطيع وتقدر على فعله، فلا يضيق عليها ولا يجهدوها، وقد جاء في القرآن ما يطابق هذا المعنى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي للنفس البشرية ما عملت من الحسنات فتنال أجرها وثوابها ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وعليها ما ارتكبت من سيئات، فعَلَيْهَا وزُرُّها وتنال العقاب عليها، وجاءت العبارة في الحسنات بلفظ ﴿لَهَا﴾ من حيث هي مما يفرح الإنسان ويسرّ بكسبه لها فتضاف إلى ملكه، وجاءت السيئات بلفظ ﴿عَلَيْهَا﴾ من حيث هي أوزار وأثقال ينوء بحملها.

﴿رَبَّنَا<sup>(١)</sup> لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ والمؤاخضة معناها المجازاة والمعاقبة، أي لا تعاقبنا يا ربّ على الإثم الذي يقع منا على وجه النسيان أو الخطأ.

وقد يسأل سائل: لماذا ذكر الله هذا الدعاء مع أن الخطأ والنسيان مرفوع وزره عن أمة محمد كما جاء في الحديث الشريف «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»<sup>(٢)</sup>؟ الجواب على ذلك: هو أن أمة محمد لما كانت حريصة أشدّ الحرص على أن تتقي الله حق تقاته، فإن ما يصدر منها من زلة أو معصية لا يكون إلا على وجه الخطأ أو النسيان.

وذهب الطبري إلى أن النسيان هنا بمعنى الترك، أي لا تؤاخذنا إن تركنا شيئاً من طاعتك.

(١) ربنا: منادى حُذِفَ منه حرف النداء، وأصله: يا ربنا.

(٢) رواه ابن ماجه.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ الإِصْرُ في اللغة: الثُّقْلُ والشَّدَّةُ، مأخوذٌ من أَصَرَ بمعنى حَبَسَ، فكأنه لِثِقَلِهِ يحبس صاحبه في مكانه، فيمنعه من الحركة، والمُرَادُ به التكاليف الشاقة، فالمؤمنون يطلبون من ربِّهم أَنْ لَا يُكَلِّفَهُم بالتكاليف الشاقة التي يعجزون عن أدائها كما كَلَّفَ بذلك اليهود حيث أمروا بأداء ربع أموالهم في الزكاة، ومن أصاب ثوبه نجاسة أَمَرَ بقطعها، وكانوا إذا أتوا بخطيئة حَرَّمَ اللَّهُ عليهم من الطعام بعض ما كان حلالاً لهم.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ والطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، أي لا تحمِلْنَا يا رب ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف أو ما لا طاقة لنا على تحمّله من المِحْن والبلايا والمصائب والأمراض المستعصية وقد كررت لفظ ﴿رَبَّنَا﴾ لكمال الضراعة ولبیان أن حالهم يتجدّد فيهم لطلب العون من ربهم ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ أي امْحُحْ عنا ذنوبنا يا رب، واسْتُرْ سيئاتنا، فلا تفضحنا بها يوم القيامة، وارحمنا برحمتك التي وَسَّعَتْ كل شيء، فلا تعذبنا بما صَدَرَ مِنَّا من تقصيرٍ أو من زلٍ ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أنت يا رب سيدنا المتولي أمورنا ونحن عبيدك، فانصرنا على القوم الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك وعبدوا غيرك.

وقد جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ: أَنْ أُلَّهَ قَالَ عَقِبَ كُلِّ دَعْوَةٍ مِنْ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ: «قَدْ فَعَلْتُ» فكان ذلك دليلاً على أنه سبحانه لم يُؤَاخِذْهُمْ بشيءٍ من الخطأ والنسيان، ولا حمل عليهم شيئاً من الإِصْرِ الذي حمّله على من قَبْلَهُمْ، ولا حمّلهم ما لا طاقة لهم به، وعفا عنهم وغفر لهم ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين، والحمد لله رب العالمين.

وقد روى البخاري والجماعة أن النبي ﷺ قال: «من قرأ بالآيتين من آخر



سورة البقرة في لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ» أي كفتاه من كل ما يحذر من كل هامة وشيطان، فلا يقربه شيء من ذلك تلك الليلة.

وأخرج الإمام أحمد والنسائي أن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَها نَبِيٌّ قَبْلِي».

وأخرج الترمذي أن رسول الله قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَاباً قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَلْفِي عَامٍ، فَأَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَلَا يُقْرَأُ بِهِنِ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ».

وأخرج مسلم والنسائي واللفظ له عن ابن عباس قال: «بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ وَعِنْدَهُ جَبْرِيلُ إِذْ سَمِعَ نَقِيضاً<sup>(١)</sup>، فَرَفَعَ جَبْرِيلُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ قَدْ فُتِحَ مِنَ السَّمَاءِ مَا فُتِحَ قَطُّ، قَالَ: فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَبَشِّرْ بِنُورَيْنِ قَدْ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتِهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ حَرْفاً مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيَتْهُ».

(١) نقيضاً: أي صوتاً.

## المراجع

- جامع البيان في تأويل القرآن للإمام أبي جعفر بن جرير الطبري  
الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي  
التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي  
تفسير الكشاف للإمام الزمخشري  
تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير  
تفسير أبي السعود للعلامة بن محمد العمادي  
تفسير الفتح القدير للعلامة محمد بن علي الشوكاني  
المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للإمام ابن عطية  
تفسير اللباب في علوم الكتاب للإمام عمر بن علي الحنبلي  
تفسير فتح البيان في مقاصد القرآن للإمام أبي الطيب القنوجي البخاري  
التفسير الوسيط - تأليف لجنة من العلماء - مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر  
تفسير صفوة البيان للإمام حسنين محمد مخلوف  
التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي  
تفسير سورة البقرة للعلامة محمد الخضر حسين في (مجلة لواء الإسلام)  
زهرة التفاسير للإمام محمد أبو زهرة  
التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر ابن عاشور  
تفسير المنار للإمام محمد رشيد رضا  
التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي  
تفسير القرآن الكريم - لجنة من الأساتذة - دار المعارف بمصر  
الموسوعة الفقهية - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت  
كتاب الحيض للدكتور كامل موسى

## الفهرس

٥	..... حول هذه السورة
٩	..... تعريف بهذه السورة
١٤	..... القرآن هداية للمتقين
٢٠	..... صفات المنافقين
٢٥	..... وصف أحوال المنافقين
٢٧	..... الدعوة إلى عبادة الله وحده
٣٠	..... القرآن يتحدى العرب وكافة الأمم
٣٣	..... القرآن هو المعجزة الكبرى لمحمد ﷺ
٣٨	..... المقارنة بين المؤمنين والكافرين ومصير كل منهما
٤٣	..... آدم خليفة الله في الأرض
٤٧	..... قصة آدم مع الملائكة
٥١	..... غواية الشيطان لآدم
٥٥	..... دعوة بني إسرائيل إلى الإسلام
٥٩	..... توجيهات لخير الإنسان
٦٢	..... فضل الله على بني إسرائيل
٦٧	..... عبادة بني إسرائيل للعجل
٧٢	..... بعض المعجزات لبني إسرائيل
٧٥	..... كفران اليهود لنعم الله عليهم
٧٩	..... عقاب الله لبني إسرائيل لعصيانهم أمره

٨٣	..... قصة بقره بني إسرائيل
٨٦	..... الغاية من ذبح البقرة وقسوة قلوب اليهود
٩٠	..... تحريف بني إسرائيل للتوراة وأمانهم الباطلة
٩٥	..... العهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل
١٠١	..... كفر اليهود واستكبارهم
١٠٥	..... عصيان اليهود لربهم وإجرامهم
١٠٨	..... أوهام اليهود
١١١	..... عداوة اليهود لجبريل ونبذهم للعهد
١١٥	..... تعاطي اليهود للسحر
١٢٠	..... الوقاية من السحر والشرور
١٢٤	..... مراعاة الأدب مع رسول الله ﷺ
١٢٦	..... النسخ في القرآن
١٢٨	..... حسد اليهود للمسلمين وأمانهم الباطلة
١٣٣	..... التحذير من العدوان على معابد الله
١٣٨	..... إصرار أهل الكتاب على ضلالهم
١٤١	..... استجابة إبراهيم لأوامر ربه
١٤٤	..... دعاء إبراهيم وإسماعيل
١٤٧	..... وصية إبراهيم ويعقوب لأبنائهما
١٥١	..... الإسلام يدعو إلى الإيمان بجميع رسل الله
١٥٦	..... الإسلام دين وسط بين الأديان
١٦٠	..... تحويل القبلة في الصلاة نحو الكعبة

١٦٤	..... التأكيد على صحة نبوة محمد ﷺ
١٦٨	..... منزلة الذاكرين لله والصابرين عند البلاء
١٧٤	..... الصفا والمروة من معالم الحج
١٧٦	..... التحذير من كتمان شرائع الله
١٧٩	..... البرهان على وحدانية الله
١٨٤	..... الشرك بالله يؤدي إلى عذابه
١٨٥	..... الانتفاع من الأرض والحذر من الشيطان
١٨٨	..... ذم التقليد الأعمى
١٨٩	..... الطعام حلاله وحرامه
١٩٣	..... البرّ المطلوب من المؤمن
٢٠٠	..... عقوبة القاتل عن عمد
٢٠٥	..... الوصية بالعدل
٢١٠	..... فريضة الصيام وأحكامها
٢١٦	..... الدعاء من العبادة
٢٢١	..... التحذير من أكل أموال الناس بالباطل
٢٢٦	..... القتال للدفاع عن النفس
٢٣٣	..... بعض أحكام الحج والعمرة
٢٣٨	..... من أعمال الحج
٢٤٣	..... صفات المنافق المفسد في الأرض
٢٤٧	..... الدعوة إلى السلم
٢٥٣	..... اختلاف الناس سببه العدول عن الحق

٢٥٨	التكافل الاجتماعي .....
٢٦٠	حكم القتال في الأشهر الحرم .....
٢٦٥	تحريم الخمر والقمار .....
٢٧١	تحريم الزواج من المشركات .....
٢٧٣	تحريم زواج المسلمة من مشرك وكافر .....
٢٧٦	الضرر من مضاجعة الزوجة الحائض .....
٢٨٤	النهي عن جعل الحلف بالله مانعاً للخير .....
٢٨٦	من فروع القسم: الإيلاء .....
٢٨٩	من أحكام الطلاق .....
٢٩٤	ضوابط الطلاق .....
٢٩٨	النهي عن الإضرار بالمطلقة .....
٣٠٣	الحقوق المتوجبة للمرضعة .....
٣٠٦	عدة المتوفى عنها زوجها .....
٣١١	حقوق الزوجة المطلقة قبل الدخول بها .....
٣١٤	الدعوة إلى المحافظة على الصلاة .....
٣١٩	الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله .....
٣٢٣	توخذ بني إسرائيل بعد الهزائم التي حلت بهم .....
٣٢٨	طالبون يقود بني إسرائيل إلى النصر .....
٣٣١	هزيمة جالوت .....
٣٣٤	التفاضل بين رُسُل الله الكرام .....
٣٣٨	آية الكرسي تظهر عظمة الله .....

٣٤٣	..... حرية التدين
٣٤٧	..... طغيان الحكام
٣٤٩	..... دليل على البعث يوم القيامة
٣٥٢	..... إحياء الله للموتى
٣٥٥	..... ثواب الإنفاق في سبيل الله
٣٦٠	..... الترغيب في الإنفاق في وجوه الخير
٣٦٤	..... فضيلة الإنفاق ودم البخل
٣٧٠	..... الصدقات للفقراء من جميع الملل
٣٧٥	..... تحريم الربا تحريماً قاطعاً
٣٧٩	..... إنذار المرابين بحرب من الله ورسوله
٣٨٤	..... أحكام المداينة في الإسلام
٣٩٠	..... الرهن عند تعذر كتابة الدّين
٣٩٣	..... ابتهالات إلى الله وقبولها منه سبحانه
٣٩٨	..... المراجع
٣٩٩	..... الفهرس
٤٠٤	..... كلمة الشكر

## كلمة الشكر

أقدم شكري لأصحاب دار العلم للملايين الأفاضل، لما لقيت منهم من دعم طيلة أربعين عاماً، وما لمست منهم من صدق وإخلاص ووفاء في زمن قلّ فيه الوفاء، سائلاً الله أن يحفظ دار العلم، وأن يجعل رايثها خفاقة في ربوع العالم لتؤدي رسالة العلم والنور.

وأقدم شكري وامتناني إلى الصديقين:  
فضيلة العلامة القاضي الشيخ حسين غزال  
وفضيلة الكاتب والمفكر الإسلامي الشيخ شريف سكر  
اللذين تفضلاً فراجعا هذا التفسير

كما أقدم شكري إلى  
الأديبة ذات الكفاءة العالية: الأستاذة هدى رفيق سنو  
والدكتور محمد مرعشلي  
اللذين أشرفا على تصحيح هذا الكتاب قبل الطبع وما قدّما لي من ملاحظات قيّمة.  
وإلى الصديق الحميم الأستاذ شفيق لبنان لما قدم لي من معونة وملاحظات قيّمة.

كما أقدم شكري لفضيلة الدكتور الشيخ أحمد اللدن على ما تفضّل بكتابة الخطوط العربية لهذه السورة، وهو من أميز خطّاطي لبنان، بالإضافة إلى تخصّصه بالعلوم الشرعية وتدريسه لها.



وفي الختام أقدم شكري لموظفي مكتبة كلية الآداب في الجامعة العربية لما بذلوه من جهد في إمدادي بالمراجع العلمية، وما خصّوني به من عناية وتوفير الجو الملائم لي لمتابعة البحث والدراسة بتفكير هادئ مشرق.

كما أقدم شكري للصديق الأستاذ توفيق حوري عميد كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية لسعيه الدؤوب وتضحياته الجمّة في إنشاء مكتبة كلية الإمام الأوزاعي والتي أصبحت تضمّ أكثر من مائة ألف كتاب من الكتب النفيسة، المبوّبة على أحدث الأساليب العلمية والتي قدّمت لي الكثير من المراجع القيمة.

سائلاً الله أن يلهم أثرياء المسلمين التبرع لبناء كبير يستوعب هذه الكتب التي تزداد يوماً بعد يوم، وفيه قاعة كبيرة للمطالعة تسع العشرات من القراء والباحثين في جوّ مريح.

إلى هؤلاء جميعاً أسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء وأن ييسرنا جميعاً لخدمة دينه

## كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي الطبعة الرابعة والثلاثون
- مع الأنبياء في القرآن الطبعة الرابعة والعشرون
- روح الصلاة في الإسلام الطبعة الثالثة والعشرون
- الخطايا في نظر الإسلام الطبعة الثانية عشرة
- اليهود في القرآن الطبعة الرابعة عشرة
- الحكمة النبوية الطبعة الرابعة
- تعلم كيف تحج الطبعة الثانية

### • THE SPIRIT OF ISLAM

الترجمة الإنكليزية لكتاب (روح الدين الإسلامي)

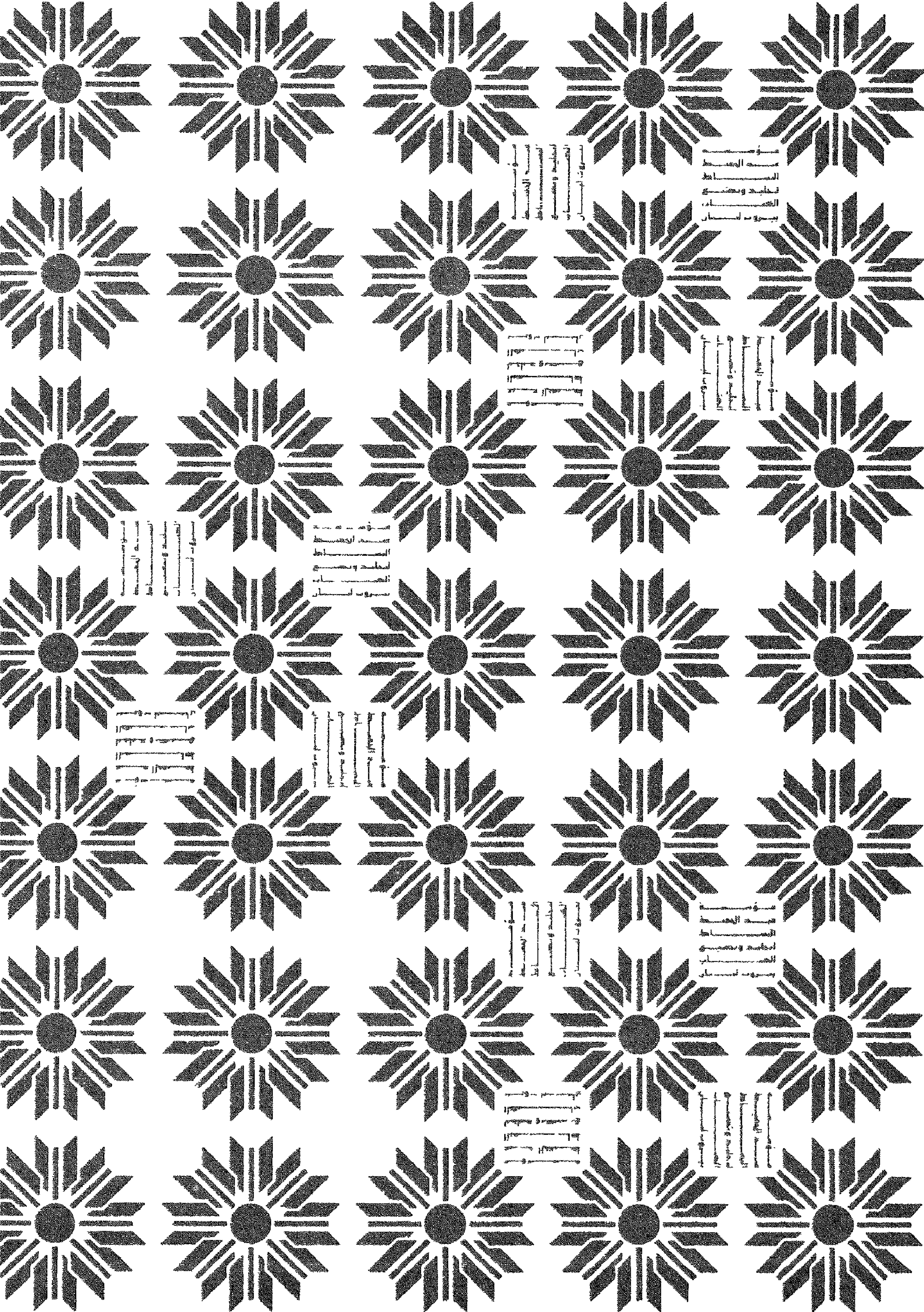
### صدر عن تفسير (روح القرآن) الأجزاء والسور الآتية:

- تفسير جزء عم
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزء الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُور: الكهف - مريم - طه
- تفسير سُور: الحجر - النحل - الإسراء
- تفسير سُور: يوسف - الرعد - إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف
- تفسير سورة الأنعام
- تفسير سورة المائدة
- تفسير سورة البقرة

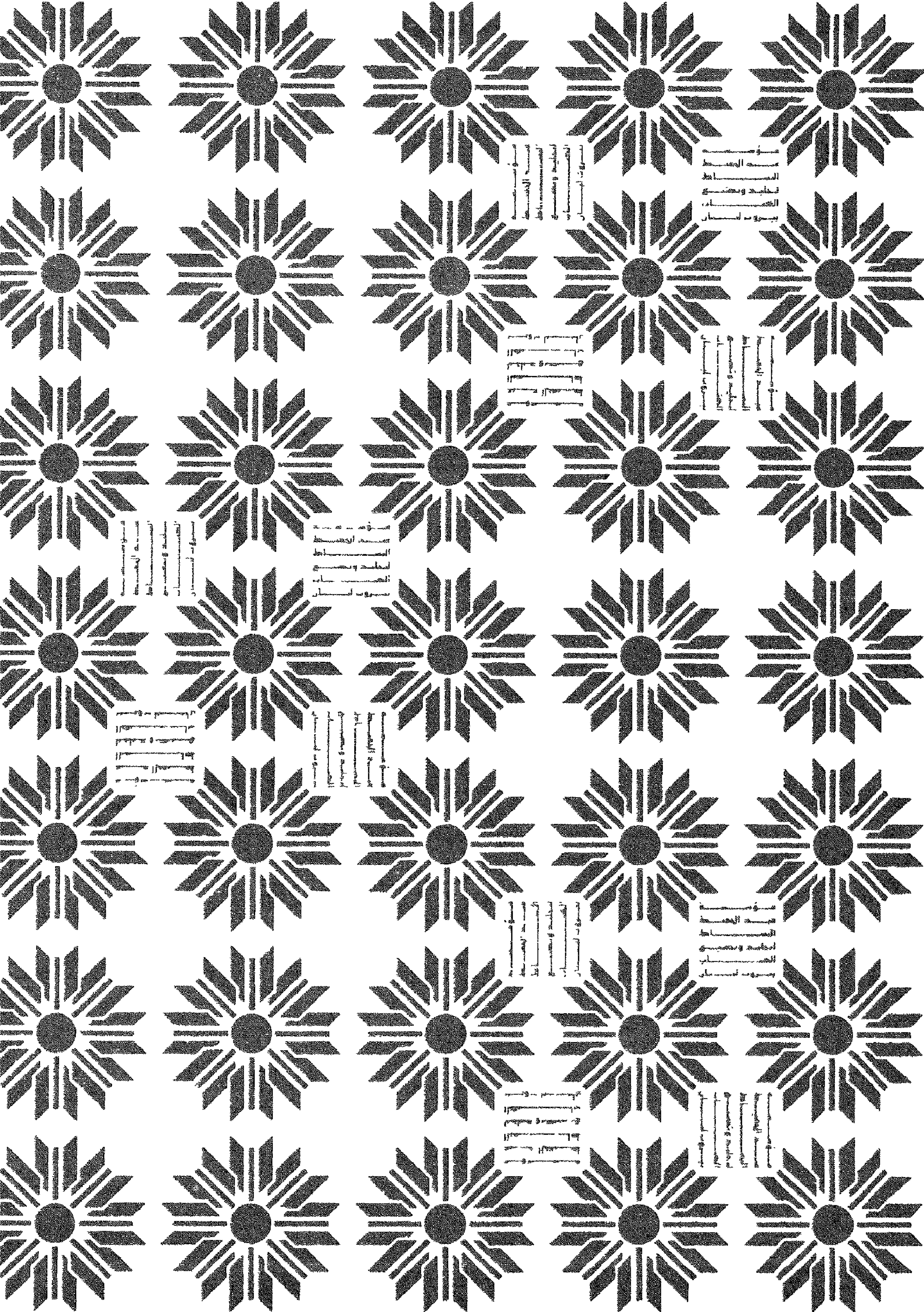














## هذا التفسير

• يعرض آراء المفسرين من السلف الصالح  
وآراء المفسرين في العصر الحاضر.

• يعالج التفسير بطريقة مبسطة بعيدة  
عن التطويل الممل والإيجاز المخل.

• ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن  
الكريم والسنة النبوية وفقه اللغة.

• يبين التفسير العلمي لآيات القرآن  
الكريم ويظهر إعجازه.

• يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة  
مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.

• يفسر المجمال من الآيات بما هو مفصل  
في آيات أخرى.

